(٥٩) سورة الحشر مدنية
وآياتها أربع وعشرون

سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحورُ الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن « غزوة بني النضير » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة ، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير » وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ، وبإيجاز هي سورة الغزوات والجهاد والغنائم .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده ، فالكون بما فيه من إنسان وحيوان ، ونبات ، وجماد ، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله ، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿ سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ .

● **ثم ذكرت** السورة بعض آثار قدرته ، ومظاهر عزته ، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم ، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع ، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم ، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ..﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** السورة موضوع الفيء والغنيمة ، فبينت شروطه وأحكامه ، ووضحت الحكمة عن تخصيص الفيء بالفقراء لئلا

يستأثر به الاغنياء ، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع ، بما فيه خير الفريقين ، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين ..﴾ الآيات .

● **وتناولت** السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر ، فنوَّهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار . فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله والانصار نصروا دين الله ، وآثروا إخوانهم – المهاجرين – بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿للفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .. الآيات .

● وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وضربت لهم أسوأ الأمثال بالشيطان الذي يغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذ له ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجَنّ معكم -﴾ الآيات .

● **ووعظت** السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا يفيد فيه جاه ولا مال وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ... ﴾ الآيات وختمت السورة بذكر أسماء الله الحُسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هو الله الذي لا آله الا هو ..﴾ الآيات . وهكذا يتناسق البدء والختام .

سورة الحشر

[٩١١] أخرج البخاري عن ابن عباس قال: سورة الأنفال نزلت في بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

[٩١٢] وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة فحاصرهم رسول الله [ﷺ] حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة وهي السلاح فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

[٩١٣] وأخرج البخاري وغيره(٢) عن ابن عمر أن رسول الله [ﷺ] حرق نخل بني النضير وقطع وادي البويرة فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾(٣) الآية.

[٩١٤] وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن جابر قال: رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي [ﷺ] فقالوا: يا رسول الله هل علينا إثم فيما قطعناه أو تركناه؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾(٤) الآية.

[٩١٥] ك.. وأخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: لما نزل رسول الله [ﷺ] ببني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن النساء وتعيبه فما بال قطع النخل وتحريقها فنزلت.. وأخرج ابن جرير عن قتادة ومجاهد مثله.

[٩١٦] وأخرج ابن المنذر عن يزيد الأصم أن الأنصار قالوا: يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين قال: **«لا ولكن تكفونهم المؤنة**

---

[٩١٢] (١) سورة الحشر: الآية (١).

[٩١٣] (٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريقين مختلفين ووجهين مختلفين عن ابن عمر ص (٢٣٧و ٢٣٨).

(٣) سورة الحشر: الآية (٥).

[٩١٤] (٤) سورة الحشر: الآية (٥).

وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم» قالوا رضينا فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾[1] الآية.

[٩١٧] وأخرج البخاري[2] عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله [ﷺ] فقال: يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله [ﷺ] لا تدخريه شيئاً قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله [ﷺ] فقال: «لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة» فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

[٩١٨] وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي: أن رجلاً من المسلمين فذكر نحوه وفيه. أن الرجل الذي أضاف ثابت بن قيس بن شماس فنزلت فيه هذه الآية.

[٩١٩] وأخرج الواحدي من طريق محارب بن دثار عن ابن عمر قال: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله [ﷺ] رأس شاة فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4] الآية.

[٩٢٠] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال أسلم ناس من أهل قريظة وكان فيهم منافقون وكانوا يقولون لأهل النضير لئن أخرجتم لنخرجن معكم فنزلت هذه الآية فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾[5].

* * *

---

[٩١٦] (١) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩١٧] (٢) صحيح البخاري (٨/ ١٨٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٠)، والشجري في أماليه (١/ ٢٨٣) وابن أبي عاصم (١/ ٢٥٠) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٣٨).

(٣) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩١٩] (٤) سورة الحشر: الآية (٩).

[٩٢٠] (٥) سورة الحشر: الآية (١١).

سورة الحشر

وهي عشرون واربع آيات مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي المنعوت في التوراة بالنصر، فلما هزم المسلمون يوم أحد تابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة، فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري، فقتل كعبًا غيلة، وكان أخاه من الرضاعة، ثم صحبهم رسول الله ﷺ بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف، فقال لهم: اخرجوا من المدينة، فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله ﷺ عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فبعث إليهم عبد الله بن أبي وقال: لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم، فحصنوا الأزقة فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح، فأبى إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق، وآل حيي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة بالحيرة **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى هذه اللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الجواب: إنها هي اللام في قولك: جئت لوقت كذا، والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر.

السؤال الثاني: ما معنى أول الحشر؟ الجواب: أن الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، وأما أنه لم سمى هذا الحشر بأول الحشر فبيانه من وجوه: أحدها: وهو قول ابن عباس

والأكثرين إن هذا أول حشر أهل الكتاب، أي أول مرة حشروا وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، لأنهم كانوا أهل منعة وعز، وثانيها: أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشرًا، وجعله أول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة إلى ناحية الشام، ثم تدركهم الساعة هناك، وثالثها: أن هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام، ورابعها: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما يحشرهم لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله وخامسها: قال قتادة هذا أول الحشر، والحشر الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾.

قال ابن عباس: إن المسلمين ظنوا أنهم لعزتهم وقوتهم لا يحتاجون إلى أن يخرجوا من ديارهم، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تعظيمًا لهذه النعمة، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم، فالمسلمون ما ظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود، فيتخلصون من ضرر مكايدهم، فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة أعظم.

قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

قالوا: كانت حصونهم منيعة فظنوا أنها تمنعهم من رسول الله، وفي الآية تشريف عظيم لرسول الله، فإنها تدل على أن معاملتهم مع رسول الله هي بعينها نفس المعاملة مع الله، فإن قيل: ما الفرق بين قولك: ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه، قلنا: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسمًا، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم، وهذه المعاني لا تحصل في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الآية وجهان: الأول: أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ عائد إلى اليهود، أي فأتاهم عذاب الله وأخذهم من حيث لم يحتسبوا، والثاني: أن يكون عائدًا إلى المؤمنين أي فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا، ومعنى: لم يحتسبوا، أي لم يظنوا ولم يخطر ببالهم، وذلك بسبب أمرين: أحدهما: قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة، وذلك مما أضعف قوتهم، وفتت عضدهم، وفلَّ من شوكتهم، والثاني: بما قذف في قلوبهم من الرعب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء، فدل على أن باب التأويل مفتوح، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرئ (فَآتَاهُمُ اللَّهُ) أي فآتاهم الهلاك، واعلم أن هذه القراءة لا تدفع ما بيناه من وجوه التأويل، لأن هذه القراءة لا تدفع القراءة الأولى، فإنها ثابتة بالتواتر، ومتى كانت ثابتة بالتواتر لا يمكن دفعها، بل لا بد فيها من التأويل.

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ قال أهل اللغة: الرعب، الخوف الذي يستوعب الصدر، أي يملؤه، وقذفه إثباته فيه، وفيه قالوا في صفة الأسد: مُقْذِف، كأنما قذف باللحم قذفًا لاكتنازه وتداخل أجزائه، واعلم أن هذه الآية تدل على قولنا من أن الأمور كلها لله، وذلك لأن الآية دلت على أن وقوع ذلك الرعب في قلوبهم كان من الله ودلت على أن ذلك الرعب صار سببًا في إقدامهم على بعض الأفعال، وبالجملة فالفعل لا يحصل إلا عند حصول داعية متأكدة في القلب، وحصول تلك الداعية لا يكون إلا من الله، فكانت الأفعال بأسرها مسندة إلى الله بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو علي: قرأ أبو عمرو وحده: (يُخَرِّبُونَ) مشددة، وقرأ الباقون: (يُخْرِبُونَ) خفيفة، وكان أبو عمرو يقول: الإخراب أن يترك الشيء خرابًا والتخريب الهدم، وبنو النضير خربوا وما أخربوا، قال المبرد: ولا أعلم لهذا وجهًا، ويخربون هو الأصل خَرِب المنزل وأَخْربه صاحبه كقوله: عَلِم وأَعْلمه وقام وأقامه فإذا قلب يخربون من التخريب فإنما هو تكثير، لأنه ذكر بيوتًا تصلح للقليل والكثير، وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان في الكلام، فيجري كل واحد مجرى الآخر، نحو فَرَّحْتُه وأَفْرحته، وحَسَّنه الله وأَحْسنه، وقال الأعشى:

وَأَخْرَبْتُ مِنْ أَرْضِ قَوْمٍ دِيَارًا (١)

وقال الفراء: (يُخَرِّبُون) بالتشديد يهدمون، وبالتخفيف يخربون منها ويتركونها.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في بيان أنهم كيف كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وجوهًا أحدها: أنهم لما أيقنوا بالجلاء، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج، وثانيها: قال مقاتل: إن المنافقين دسوا إليهم أن لا يخرجوا، ودربوا على الأزقة وحصنوها، فنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على أبواب الأزقة، وكان المسلمون يَخربون سائر الجوانب، وثالثها: أن المسلمين إذا ظهروا على درب من دروبهم خربوه، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم، وينقبونها من أدبارها، ورابعها: أن المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد، واليهود لما أيقنوا بالجلاء، وكانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم، وينزعونها ويحملونها على الإبل، فإن قيل: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلنا: قال الزجاج: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوه إياهم.

---

(١) تقدمت ترجمة الأعشى.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية في كتاب (الْمَحْصُولُ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ) على أن القياس حجة فلا نذكره هاهنا، إلا أنه لا بد هاهنا من بيان الوجه الذي أمر الله فيه بالاعتبار، وفيه احتمالات أحدها: أنهم اعتمدوا على حصونهم، وعلى قوتهم وشوكتهم، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم، ثم قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ولا تعتمدوا على شيء غير الله، فليس للزاهد أن يعتمد على زهده، فإن زهده لا يكون أكثر من زهد بلعام، وليس للعالم أن يعتمد على علمه، أنظر إلى ابن الراوندي مع كثرة ممارسته كيف صار، بل لا اعتماد لأحد في شيء إلا على فضل الله ورحمته، وثانيها: قال القاضي: المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر، والكفر في البلاء والجلاء، والمؤمنون أيضًا يعتبرون به فيعدلون عن المعاصي.

فإن قيل: هذا الاعتبار إنما يصح لو قلنا: إنهم غدروا وكفروا فعذبوا، وكان السبب في ذلك العذاب هو الكفر والغدر، إلا أن هذا القول فاسد طردًا وعكسًا، أما الطرد فلأنه رب شخص غدر وكفر، وما عذب في الدنيا وأما العكس فلأن أمثال هذه المحن، بل أشد منها وقعت للرسول عليه السلام ولأصحابه، ولم يدل ذلك على سوء أديانهم وأفعالهم، وإذا فسدت هذه العلة فقد بطل هذا الاعتبار، وأيضًا فالحكم الثالث في الأصل هو أنهم: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإذا عللنا ذلك بالكفر والغدر يلزم في كل من غدر وكفر أن يخرب بيته بيده وبأيدي المسلمين، ومعلوم أن هذا لا يصلح، فعلمنا أن هذا الاعتبار غير صحيح، والجواب: أن الحكم الثابت في الأصل له ثلاث مراتب: أولها: كونه تخريبًا للبيت بأيديهم وأيدي المؤمنين، وثانيها: وهو أعم من الأول، كونه عذابًا في الدنيا، وثالثها: وهو أعم من الثاني، كونه مطلق العذاب، والغدر والكفر إنما يناسبان العذاب من حيث هو عذاب، فأما خصوص كونه تخريبًا أو قتلًا في الدنيا أو في الآخرة فذاك عديم الأثر، فيرجع حاصل القياس إلى أن الذين غدروا وكفروا وكذبوا عذبوا من غير اعتبار أن ذلك العذاب كان في الدنيا أو في الآخرة، والغدر والكفر يناسبان العذاب، فعلمنا أن الكفر والغدر هما السببان في العذاب، فأينما حصلا حصل العذاب من غير بيان أن ذلك العذاب في الدنيا أو في الآخرة، ومتى قررنا القياس والاعتبار على هذا الوجه زالت المطاعن والنقوض وتم القياس على الوجه الصحيح.

المسألة الثانية: الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العَبْرة عَبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد، وسمي المعبر معبرًا لأن به تحصل المجاوزة، وسمي العلم المخصوص بالتعبير، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع، ويقال: السعيد من اعتبر بغيره، لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ولهذا قال المفسرون: الاعتبار

هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها، وفي قوله: ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ وجهان: الأول: قال ابن عباس: يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر، والثاني: قال الفراء: ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ يا من عاين تلك الواقعة المذكورة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

معنى الجلاء في اللغة، الخروج من الوطن والتحول عنه، فإن قيل: إن ﴿لَوْلَآ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب في الدنيا، لكن الجلاء نوع من أنواع التعذيب، فإذًا يلزم من ثبوت الجلاء عدمه وهو محال، قلنا معناه: ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة، وأما قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ فهو كلام مبتدأ وغير معطوف على ما قبله، إذ لو كان معطوفًا على ما قبله لزم أن لا يوجد لما بينا، أن (لَوْلاَ) تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فهو يقتضي أن علة ذلك التخريب هو مشاقة الله ورسوله، فإن قيل: لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال: أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب، ومعلوم أنه ليس كذلك، قلنا: هذا أحد ما يدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها.

ثم قال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمقصود منه الزجر.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بيان لـ﴿مَا قَطَعْتُم﴾، ومحل ﴿مَا﴾ نصب بقطعتم، كأنه قال: أي شيء قطعتم، وأنث الضمير الراجع إلى (ما) في قوله: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنه في معنى اللينة.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة: اللينة النخلة ما لم تكن عجوة أو برنية، وأصل لِينة لِوْنة، فذهبت الواو لكسرة اللام، وجمعها ألوان، وهي النخل كله سوى البرني والعجوة، وقال بعضهم: اللينة النخلة الكريمة، كأنهم اشتقوها من اللين وجمعها لين، فإن قيل: لم خصت اللينة بالقطع؟ قلنا: إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرئ (قُوَّمًا عَلَى أُصُلِها)، وفيه وجهان أحدهما: أنه جمع أَصْل كرَهْن ورُهْن، واكتفى فيه بالضمة عن الواو، وقرئ (قائمًا على أصوله)، ذهابًا إلى لفظ ما، وقوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي قطعها بإذن الله وبأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ولأجل إخزاء الفاسقين، أي اليهود أذن الله في قطعها.

المسألة الرابعة: روي أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق، قالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية، والمعنى أن الله إنما أذن في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم.

المسألة الخامسة: احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة، وعن ابن مسعود قطعوا منها ما كان موضعًا للقتال.

المسألة السادسة: روي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة، والآخر اللون، فسألهما رسول الله ﷺ، فقال هذا: تركتها لرسول الله، وقال هذا: قطعتها غيظًا للكفار، فاستدلوا به على جواز الاجتهاد، وعلى جوازه بحضرة الرسول.

قال المبرد: يقال: فاء يفيء إذا رجع، وأفاءه الله إذا رده، وقال الأزهري: الفيء: ما رده الله على أهل دينه من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال، إما بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم، كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن لكل ثلاثة منهم حِمْل بعير مما شاءوا سوى السلاح، ويتركوا الباقي، فهذا المال هو الفيء، وهو ما أفاء الله على المسلمين، أي رده من الكفار إلى المسلمين، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من يهود بني النضير، قوله: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يَجِفُ وجفًا ووجيفًا، وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه، إذا حمله على السير السريع، وقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على ما أفاء الله، وقوله: ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ الركاب ما يركب من الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارسًا، ومعنى الآية أن الصحابة طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم، فذكر الله الفرق بين الأمرين، وهو أن الغنيمة ما أتعبتم أنفسكم في تحصيلها وأوجفتم عليها الخيل والركاب بخلاف الفيء فإنكم ما تحملتم في تحصيله تعبًا، فكان الأمر فيه مفوضًا إلى الرسول يضعه حيث يشاء.

ثم هاهنا سؤال: وهو أن أموال بني النضير أخذت بعد القتال لأنهم حوصروا أيامًا، وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء فوجب أن تكون تلك الأموال من جملة الغنيمة لا من جملة

الفيء، ولأجل هذا السؤال ذكر المفسرون هاهنا وجهين: الأول: أن هذه الآية ما نزلت في قرى بني النضير لأنهم أوجفوا عليهم بالخيل والركاب وحاصرهم رسول الله ﷺ والمسلمون بل هو في فدك، وذلك لأن أهل فدك انجلوا عنه فصارت تلك القرى والأموال في يد الرسول عليه السلام من غير حرب فكان عليه الصلاة والسلام يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي في السلاح والكراع، فلما مات ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فدكًا، فقال أبو بكر: أنت أعز الناس علي فقرًا، وأحبهم إلي غنى، لكني لا أعرف صحة قولك، ولا يجوز أن أحكم بذلك، فشهد لها أم أيمن ومولى للرسول عليه السلام، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع فلم يكن، فأجرى أبو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول ﷺ ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول، ويجعل ما يبقى في السلاح والكراع، وكذلك عمر جعله في يد علي ليجريه على هذا المجرى، ورد ذلك في آخر عهد عمر إلى عمر، وقال: إن بنا غنى وبالمسلمين حاجة إليه، وكان عثمان رضي الله عنه يجريه كذلك، ثم صار إلى علي فكان يجريه هذا المجرى فالأئمة الأربعة اتفقوا على ذلك، والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في بني النضير وقراهم، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، ولم يقطعوا إليها مسافة كثيرة، وإنما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشيًا، ولم يركب إلا رسول الله ﷺ وكان راكب جمل، فلما كانت المقاتلة قليلة والخيل والركب غير حاصل، أجراه الله تعالى مجرى مالم يحصل فيه المقاتلة أصلاً فخص رسول الله ﷺ بتلك الأموال، ثم روى أنه قسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة.

ثم إنه تعالى ذكر حكم الفيء فقال:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

قال صاحب الكشاف: لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها وغير أجنبية عنها، واعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بنو هاشم وبنو المطلب. قال الواحدي: كان الفيء في زمان رسول الله ﷺ مقسومًا على خمسة أسهم: أربعة منها لرسول الله ﷺ خاصة وكان الخمس الباقي يقسم على خمسة أسهم، سهم منها لرسول الله أيضًا، والأسهم الأربعة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فللشافعي فيما كان من الفيء لرسول الله قولان: أحدهما: أنه للمجاهدين المرصدين للقتال في الثغور لأنهم قاموا مقام رسول الله في رباط الثغور، والقول الثاني: أنه

يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يبدأ بالأهم فالأهم، هذا في الأربعة أخماس التي كانت لرسول الله ﷺ، وأما السهم الذي كان له من خمس الفيء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال المبرد: الدُّولَة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا مرة، والدَّولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم، فالدُّولة بالضم اسم ما يتداول، وبالفتح مصدر من هذا، ويستعمل في الحالة السارة التي تحدث للإنسان، فيقال: هذه دولة فلان أي تداوله، فالدولة اسم لما يتداول من المال، والدولة اسم لما ينتقل من الحال، ومعنى الآية كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها واقعًا في يد الأغنياء ودولة لهم.

المسألة الثانية: قرئ: (دَولَةً وَدُوْلَةً) بفتح الدال وضمها، وقرأ أبو جعفر: (دُولَةٌ) مرفوعة الدال والهاء، قال أبو الفتح: ﴿يَكُونَ﴾ هاهنا هي التامة كقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠] يعني كي لا يقع دولة جاهلية، ثم قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ يعني ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حلال وما نهاكم عن أخذه فانتهوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أمر الفيء ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على ما نهاكم عنه الرسول، والأجود أن تكون هذه الآية عامة في كل ما آتى رسول الله ونهى عنه وأمر الفيء داخل في عمومه.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

اعلم أن هذا بدل من قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] كأنه قيل: أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا، ثم إنه تعالى وصفهم بأمور: أولها: أنهم فقراء، وثانيها: أنهم مهاجرون، وثالثها: أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم يعني أن كفار مكة أحوجوهم إلى الخروج فهم الذين أخرجوهم، ورابعها: أنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، والمراد بالفضل ثواب الجنة وبالرضوان قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وخامسها: قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بأنفسهم وأموالهم، وسادسها: قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ظهر

صدقهم في دينهم، وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر رضي الله عنه، فقال: هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، والله يشهد على كونهم صادقين، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم: يا خليفة رسول الله، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته.

ثم إنه تعالى ذكر الأنصار وأثنى عليهم حين طابت أنفسهم عن الفيء للمهاجرين دونهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والمراد من الدار: المدينة وهي دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، وتقدير الآية: والذين تبوءوا المدينة والإيمان من قبلهم فإن قيل: في الآية سؤالان: أحدهما: أنه لا يقال: تبوأ الإيمان، والثاني: بتقدير أن يقال ذلك لكن الأنصار ما تبوءوا الإيمان قبل المهاجرين، والجواب عن الأول من وجوه: أحدها: تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله:

وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي الْوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا[1]

وثانيها: جعلوا الإيمان مستقرًا ووطنًا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما أنهم لما سألوا سلمان عن نسبه فقال: أنا ابن الإسلام، وثالثها: أنه سمى المدينة بالإيمان، لأن فيها ظهر الإيمان وقوي، والجواب: عن السؤال الثاني من وجهين: الأول: أن الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان، والثاني: أنه على تقدير حذف المضاف والتقدير: تبوءوا الدار والإيمان من قبل هجرتهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ وقال الحسن: أي حسدًا وحرارة وغيظًا مما أوتي المهاجرون من دونهم، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحرارة، لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة، فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية، ثم قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يقال: آثره بكذا إذا خصه به، ومفعول الإيثار محذوف، والتقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم. عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ دُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَقَسَمْتُ لَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ كَمَا قَسَمْتُ لَهُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَ لَهُمُ الْغَنِيمَةُ وَلَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ**» **فَقَالُوا: لاَ بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَلاَ نُشَارِكُهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ**[2]. فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال،

---

(١) الشطر الثاني من البيت راية لعبد الله بن الزبعر وتقدمت ترجمته وشطره الأول هكذا:

يا ليت زوجك قد غدا متقلدًا سيفًا ورمحًا

(٢) **ضعيف**: أورده الفتني في (تذكر الموضوعات) (١/ ١٨٤) وقال: لابن مردويه والديلمي وأبي موسى والكل ضعيف، أورده ابن كثير في (تفسيره) (٨/ ٥٥) قال: وقال نعيم بن حماد حدثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن... فذكره.

ولكنه عن حاجة وخصاصة وهي الفقر، وأصلها من الخصاص وهي الفرج، وكل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع فهي خصاص، الواحد خصاصة، وذكر المفسرون أنواعًا من إيثار الأنصار للضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف، ثم ذكروا أن الآية نزلت في ذلك الإيثار، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات، ثم قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشح بالضم والكسر، وقد قرئ بهما.

واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس، لا جرم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا، قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئًا نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئًا أمره الله بإعطائه فقد وقى شح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضًا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد، وقيل: التابعون بإحسان وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، وذكر تعالى أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان، وهو قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي غشًا وحسدًا وبغضًا.

واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم، وبيَّن أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

قال المقاتلان: يعني عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، كانوا من الأنصار، ولكنهم نافقوا يقولون لإخوانهم، وهذه الأخوة تحتمل وجوهًا: أحدها: الأخوة في الكفر لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد ﷺ، وثانيها: الأخوة بسبب المصادقة

والموالاة والمعاونة، وثالثها: الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد ﷺ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قالوا لليهود: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في خذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ ووعدوهم النصر أيضًا بقولهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم إنه تعالى شهد على كونهم كاذبين في هذا القول فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

ولما شهد على كذبهم على سبيل الإجمال أتبعه بالتفصيل فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، فعلم الموجودات في الأزمنة الثلاثة، والمعدومات في الأزمنة الثلاثة، وعلم في كل واحد من هذه الوجوه الستة، أنه لو كان على خلاف ما وقع كيف كان يكون على ذلك التقدير، فهاهنا أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فهؤلاء المنافقون لا يخرجون معهم، وقد كان الأمر كذلك، لأن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا أيضًا فما نصروهم، فأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ فتقديره كما يقول المعترض الطاعن في كلام الغير: لا نسلم أن الأمر كما تقول، ولئن سلمنا أن الأمر كما تقول، لكنه لا يفيد لك فائدة، فكذا هاهنا ذكر تعالى أنهم لا ينصرونهم، وبتقدير أن ينصروا إلا أنهم لا بد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا، ويتركوا أولئك المنصورين في أيدي الأعداء، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأما قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه راجع إلى المنافقين يعني لَيَنْهزِمَنَّ المنافقون: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بعد ذلك أي يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم والثاني: لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

ثم ذكر تعالى أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله تعالى فقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يريد أن هؤلاء اليهود والمنافقين لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالخنادق والدروب أو من وراء جدر، وذلك بسبب أن الله ألقى في قلوبهم الرعب، وأن تأييد الله ونصرته معكم، وقرئ (جُدْرٍ) بالتخفيف وجِدَار وجُدُر وجَدْر وهما الجدار.

ثم قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ **وفيه ثلاثة أوجه:**

أحدها: يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما يكون إذا كان بعضهم مع بعض، فأما إذا قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله. **وثانيها:** قال مجاهد: المعنى أنهم إذا اجتمعوا يقولون: لنفعلن كذا وكذا، فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون، ثم يحترزون عن الخروج للقتال فبأسهم فيما بينهم شديد، لا فيما بينهم وبين المؤمنين. **وثالثها:** قال ابن عباس: معناه بعضهم عدو للبعض، والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني تحسبهم في صورتهم مجتمعين على الألفة والمحبة، أما قلوبهم فشتى، لأن كل أحد منهم على مذهب آخر، وبينهم عداوة شديدة، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ **فيه وجهان:**

الأول: أن ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ لهم.

والثاني: لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما يوهن قواهم.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب فإن قيل: بم انتصب ﴿قَرِيبًا﴾، قلنا: بمثل، والتقدير كوجود مثل أهل بدر. ﴿قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله من قولهم: كلأ وبيل أي وخيم وسيئ العاقبة يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مثل المنافقين الذين غروا بني النضير بقولهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] ثم خذلوهم وما وفوا بعهدهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد إما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر، وإما إغواء الشيطان قريشًا يوم بدر بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال مقاتل: فكان عاقبة المنافقين واليهود مثل عاقبة الشيطان والإنسان حيث صارا إلى النار.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: قرأ ابن مسعود (خالدان فيها)، على أنه خبر (أن)، و(في النار) لغو، وعلى القراءة المشهورة الخبر هو الظرف و﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ حال، وقرئ: (عاقِبَتُهُمَا) بالرفع، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم إنه تعالى رجع إلى موعظة المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾. الغد: يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له، ثم ذكر النفس والغد على سبيل التنكير. أما الفائدة في تنكير النفس فاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: الغد لا يعرف كنهه لعظمه.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيدًا، أو يحمل الأول: على أداء الواجبات والثاني: على ترك المعاصي.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ وفيه وجهان: الأول: قال المقاتلان: نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، الثاني: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ والمقصود منه الذم، واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين إلى ما هو مصلحتهم يوم القيامة بقوله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨] وهدد الكافرين بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ بيّن الفرق بين الفريقين فقال:

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ

ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

واعلم أن التفاوت بين هذين الفريقين معلوم بالضرورة، فذكر هذا الفرق في مثل هذا الموضع يكون الغرض منه التنبيه على عظم ذلك الفرق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المعتزلة احتجوا على أن صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة، لأن الآية دلت على أن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان، فلو دخل صاحب الكبيرة في الجنة لكان أصحاب النار وأصحاب الجنة يستويان، وهو غير جائز، وجوابه معلوم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالذمي، وقد بينا وجهه في الخلافيات.

ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم أمر القرآن فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى أنه لو جعل في الجبل عقل كما جعل فيكم، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار، وغلظ طباعهم، ونظير قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

وقيل: السر والعلانية، وقيل: الدنيا والآخرة.

اعلم أنه تعالى قدم الغيب على الشهادة في اللفظ وفيه سر عقلي، أما المفسرون فذكروا أقوالاً في الغيب والشهادة، فقيل: الغيب المعدوم، والشهادة الموجود ما غاب عن العباد وما شاهدوه.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ وكل ذلك قد تقدم تفسيره.

ثم قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ قرئ: بالضم والفتح، وهو البليغ في النزاهة في الذات والصفات، والأفعال والأحكام والأسماء، وقد شرحناه في أول سورة الحديد، ومضى شيء منه في تفسير قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال الحسن: إنه الذي كثرت بركاته.

وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في كونه سليمًا من النقائص كما يقال: رجاء، وغياث، وعدل، فإن قيل فعلى

هذا التفسير لايبقى بين القدوس، وبين السلام فرق، والتكرار خلاف الأصل، قلنا: كونه قدوسًا، إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، وكونه: سليمًا، إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب، فإنه تزول سلامته ولا يبقى سليمًا، الثاني: أنه سلام بمعنى كونه موجبًا للسلامة.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه الذي آمن أولياءه عذابه، يقال: آمنه يؤمنه فهو مؤمن، والثاني: أنه المصدق، إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم، أو لأجل أن أمة محمد ﷺ يشهدون لسائر الأنبياء، كما قال: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ثم إن الله يصدقهم في تلك الشهادة، وقرئ بفتح الميم، يعني المُؤمَن به على حذف الجار كما حذف في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قالوا: معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء. ثم في أصله قولان، قال الخليل وأبو عبيدة: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبًا على الشيء، وقال آخرون: مهيمن أصله مؤيمن، من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، وقد تقدم استقصاؤه عند قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال ابن الأنباري: المهيمن: القائم على خلقه برزقه، وأنشد:

أَلاَ إِنَّ خَيـرَ النَّـاسِ بَـعْـدَ نَـبِـيِّـهِ ... مُهَيمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

قال معناه: القائم على الناس بعده.

وما ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فهو إما الذي لا يوجد له نظير، وإما الغالب القاهر.

وأما ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه فعَّال من جبر إذا أغنى الفقير، وأصلح الكسير. قال الأزهري: وهو لعمري جابر كل كسير وفقير، وهو جابر دينه الذي ارتضاه، قال العجاج:

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرَ(١)

والثاني: أن يكون الجبار من جَبَره على كذا إذا أكرهه على ما أراده، قال السدي: إنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراده، قال الأزهري: هي لغة تميم، وكثير من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي يقول: جَبَره السلطان على كذا بغير ألف. وجعل الفراء الجبَّار بهذا معنى من أجبره، وهي اللغة المعروفة في الإكراه، فقال: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين، وهما جبَّار من أجبر، ودرَّاك من أدرك، وعلى هذا القول الجبار هو القهار، الثالث: قال ابن الأنباري: الجبار في صفة الله الذي لا ينال، ومنه قيل للنخلة التي فاتت يد المتناول: جبارة، الرابع: قال ابن عباس: الجبار، هو الملك العظيم، قال الواحدي: هذا الذي ذكرناه من معاني الجبار في صفة الله، وللجبار معان في صفة الخلق: أحدها: المسلط كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، والثاني: العظيم الجسم كقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]،

(١) تقدم ترجمة العجاج.

والثالث: المتمرد عن عبادة الله، كقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾[مريم: ٣٢]، والرابع: القتال كقوله: ﴿بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾[الشعراء: ١٣٠] وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ١٩].

أما قوله: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ففيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله، وثانيها: قال قتادة: المتعظم عن كل سوء، وثالثها: قال الزجاج: الذي تعظم عن ظلم العباد، ورابعها: قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، والكبرياء عند العرب: المُلْك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ٧٨]، واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا، فكان ذلك مذمومًا في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الإسم: قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ والخلق هو التقدير معناه أنه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة.

ثم قال: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ وهو بمنزلة قولنا: صانع وموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام، ولذلك يقال في الخلق: برية ولا يقال في الأعراض التي هي كاللون والطعم.

وأما ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ فمعناه أنه يخلق صور الخلق على ما يريد، وقدم ذكر الخالق على البارئ، لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارئ على المصور، لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقد فسرناه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف: ١٨٠].

أما قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقد مر تفسيره في أول سورة الحديد والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب،

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحَشْر

مدنِيَّةٌ في قول الجميع. وهي أربع وعشرون آية[1]، روى ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، لم يَبْقَ شيء من الجنَّة والنار والعرش والكرسيِّ والسماوات والأرض والهوامِّ والريح والسحاب والطير والدوابِّ والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلّوْا عليه، واستغفروا له. فإنْ مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». خرَّجه الثعلبيُّ[2]. وخرَّج الثعالبيُّ عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آخر سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» ـ إلى آخرها ـ فمات من ليلته مات شهيداً»[3].

وروى الترمذيُّ عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح ثلاثَ مرَّات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعين ألف مَلك يُصلُّون عليه حتى يُمْسِي، وإن مات في يومه مات شهيداً، ومن قرأها حين يُمْسِي فكذلك». قال: حديث غريب[4].

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

تقدَّم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣.

(٢) لم نقف عليه عند غيره.

(٣) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٠٢ وعزاه إلى ابن مردويه.

(٤) وقعت العبارة في بعض النسخ الخطية و(م): حسن غريب، ولم ترد عند الترمذي (٢٩٢٢)، وهو عند أحمد (٢٠٣٠٦) وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٦٣١، وقال: لم يحسِّنه الترمذي، وهو حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النَّضير. وهم رهط من اليهود من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فِتن بني إسرائيل؛ انتظاراً لمحمَّد ﷺ، وكان من أمرهم ما نصَّ الله عليه[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الحشرُ: الجمعُ[2]؛ وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة؛ أمَّا الذي في الدنيا فقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال الزهريُّ: كانوا من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء، وكان الله عزَّ وجلَّ قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذَّبهم في الدنيا[3]. وكان أوَّلَ حشْر حُشِروا في الدنيا إلى الشام[4]. قال ابن عباس وعكرمة: من شكَّ أنَّ المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال قتادة: هذا أوَّل المحشر. قال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٥٢، والأثر أخرجه البخاري (٤٠٢٩)، ومسلم (٣٠٣١).

(٢) من هنا إلى نهاية قول قتادة الآتي من التذكرة ص١٩٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/٣١٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٨٢، وأبو عبيد في الأموال (٨١)، والطبري ٢٢/٤٩٧ - ٤٩٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٨٢، والطبري ٢٢/٤٩٨ - ٤٩٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/١٧٦ - ١٧٧.

ابن عباس: هم أوَّل من حُشِر من أهل الكتاب وأُخرِج من دياره[١]. وقيل: إنَّهم أُخرجوا إلى خَيْبر، وأنَّ معنى «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر ﷺ إياهم من خَيْبر إلى نجد وأذرِعات. وقيل: تَيماء وأرِيحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم[٢]. وأما الحشر الثاني: فحشرهم قربَ القيامة. قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تَبِيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم مَن تخلَّف[٣]. وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤].ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال: قلت لمالك: هو جلاؤهم من ديارهم؟ فقال لي: الحشر يوم القيامة حشر اليهود. قال: وإجلاء رسول الله ﷺ اليهودَ إلى خَيْبر حين سُئلوا عن المال فكتموه، فاستحلَّهم بذلك. قال ابن العربيِّ[٥]: للحشر أوَّل ووسط وآخِر؛ فالأوَّل: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء خيبر، والآخِر: حشر يوم القيامة. وعن الحسن: هم بنو قُرَيظة. وخالفه بقيَّة المفسرين وقالوا: بنو قُرَيظة ما حُشروا ولكنهم قتلوا. حكاه الثعلبيُّ.

الثالثة: قال الكيا الطبريُّ[٦]: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنَّما كان ذلك في أوَّل الإسلام، ثم نُسخ. والآن فلابدَّ من قتالهم، أو سَبيِهم، أو ضرب الجِزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ يريد: لِعظم أمْرِ اليهود ومَنَعتهم وقوَّتهم في

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٩ ، عدا قول قتادة فمن النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ ، وقول ابن عباس أخرجه البزار (٣٤٢٦ كشف الأستار)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٥ (١٨٨٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣ : رواه البزار، وفيه: أبو سعدالبقال، والغالب عليه الضعف.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٥ ، وأذرعات وتيماء وأريحاء من بلاد الشام، كما قاله السهيلي.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٤٩٩ .

(٤) ص١٩٨ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٢ ، وما قبله منه أيضاً.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٥ .

صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ قيل: هي الوَطِيح والنَّطاة والسُّلالِم والكَتِيبة[١]. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أمره، وكانوا أهل حَلْقة ـ أي: سلاح كثير ـ وحصون منيعة، فلم يمنعهم شيء منها. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وعذابه[٢]. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: لم يظنوا[٣]. وقيل: من حيث لم يعلموا. وقيل: «مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» بقتل كَعْب بن الأشرف، قاله ابن جُريج والسُّدِّيُّ وأبو صالح[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بقتل سَيِّدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله هو محمد بن مَسْلمة، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش ـ وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ـ وعبّاد بن بِشر بن وَقْش، والحارث بن أَوْس بن معاذ، وأبو عَبْس بن جبر. وخبره مشهور في السيرة[٥]. وفي «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نُصِرتُ بالرُّعْب بين يَدَي مَسِيرةِ شهر»[٦] فكيف لا يُنْصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلَّة بني النضير. وهذه خصيصَة لمحمَّد ﷺ دون غيره[٧].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب، أي: يهدمون. وقرأ السُّلمِيُّ والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو: «يُخَرِّبون» بالتشديد[٨] من التخريب. قال أبو عمرو: إنَّما اخترت التشديد؛ لأنَّ الإخراب تركُ الشيء خراباً بغير ساكن، وبنو النَّضير لم يتركوها خراباً، وإنما خرَّبوها بالهدم، يؤيده

(١) التعريف والإعلام ص١٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ عن ابن جبير والسدي.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥ .

(٦) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٣ .

(٨) السبعة ص٦٣٢ ، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤ .

قوله تعالى: «بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ». وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنًى واحد، والتشديد بمعنَى التكثير[١]. وحكى سيبويه: أنَّ معنى فَعَّلت وأفعلت يتعاقبان، نحو أخربته وخرَّبته، وأفرحته وفرَّحته[٢]. واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأُولى.

قال قتادة والضحَّاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يُخربون من داخل ليبنُوا به ما خُرِّب من حِصْنهم[٣]. فرُوِيَ أنَّهم صالحوا رسولَ الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يومَ بَدْر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِت في التوراة، فلا تُردُّ له راية. فلما هُزِم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكَّة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصاريَّ، فقتل كَعْباً غِيلةً، ثم صبَّحهم بالكتائب، فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحبُّ إلينا من ذلك، فتنادَوْا بالحرب. وقيل: استمهلوا رسولَ الله ﷺ عشرة أيام ليتجهَّزوا للخروج، فدسَّ إليهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أُخرِجتم لنخرجنَّ معكم. فدُرِّبُوا على الأزقَّة وحصنوها إحدى وعشرين ليلةً، فلما قذف الله في قلوبهم الرُّعب، وأيِسُوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء[٤]، على ما يأتي بيانه.

وقال الزهريُّ وابن زيد وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبيُّ ﷺ على أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا يستحسنون الخشَبَة والعمود فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها[٥]. وعن ابن زيد أيضاً: كانوا يخربونها؛ لئلا يسكنها

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ عن قتادة، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن الضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٧٩ - ٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن ابن زيد وابن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٥٠١ عن الزهري.

المسلمون بعدهم. وقال ابن عباس: كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم، هدموها ليتَّسع موضع القتال، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها؛ ليتحصَّنوا فيها، ويرموا بالتي أخرِجوا منها المسلمين[١]. وقيل: ليسدُّوا بها أزِقَّتهم[٢]. وقال عِكرمة: «بِأَيْدِيهِمْ» في إخراب دواخلها وما فيها؛ لئلا يأخذه المسلمون. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إخراب ظاهرها؛ ليَصِلُوا بذلك إليهم[٣]. قال عكرمة: كانت منازلهم مزخرفةً، فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج. وقيل: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ» بنقض الموادعة[٤] «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» بالمقاتلة، قاله الزهريُّ أيضاً. وقال أبو عمرو بن العلاء: «بِأَيْدِيهِمْ» في تركهم لها. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إجلائهم عنها. قال ابن العربيّ[٥]: التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقةً، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً؛ إلا أنَّ قول الزهريِّ في المجاز أمْثل من قول أبي عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتَّعِظُوا يا أصحابَ العقول والألباب. وقيل: يا من عاين ذلك ببصره[٦]، فهو جمع للبصر. ومن جملة الاعتبار هنا أنَّهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها. ومن وجوهه: أنَّه سلَّط عليهم من كان ينصرهم. ومن وجوهه أيضاً: أنَّهم هدموا أموالهم بأيديهم. ومن لم يعتبر بغيره، اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: السَّعيد من وُعِظ بغيره[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ دون نسبته إلى عكرمة، وما بعده منه أيضاً.

(٤) في النسخ: المواعدة، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ والكلام منه، والموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح. اللسان (ودع).

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٣.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٤، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٤٣، وورد في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٦) عن عبد الله =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: لولا أنَّه قضى أنَّه سيُجْليهم عن دارهم، وأنَّهم يبقون مدَّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والسَّبْي[١]، كما فعل ببني قُرَيظة. والجلاء: مفارقة الوطن[٢]، يقال: جَلَا بنفسه جلاءً، وأَجلاه غيرُه إجلاءً[٣]. والفرق بين الجلاء والإخراج ـ وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً ـ من وجهين: أحدهما: أنَّ الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة، قاله الماورديُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عادَوْه، وخالفوا أمره[٥]. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ قرأ طلحة بن مُصرِّف ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ»[٦] بإظهار التضعيف، كالتي في «الأنفال»[٧]، وأدغم الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

فيه خمس مسائل:

= ابن مسعود ﷺ. وفي إسناده: أبو إسحاق وهو: عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، وهو مدلِّس، وقد عنعنه ولم يصرِّح بالسماع. والمحفوظ أنه موقوف على ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٦) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣] وسلفت ٩/ ٤٦٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ «ما» في محلِّ نصب بـ «قَطَعْتُمْ»[(١)]، كأنَّه قال: أيّ شيء قطعتم. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل على حصون بني النضِير - وهي البُوَيْرة - حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحُد، أمر بقَطْع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا في عدد ذلك، فقال قتادة والضحَّاك: إنَّهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ستَّ نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنَّهم قطعوا نخلة، وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره؛ إمَّا لإضعافهم بها، وإما لسعَة المكان بقَطْعها. فشقَّ ذلك عليهم فقالوا - وهم يهود أهل الكتاب -: يا محمَّد، ألستَ تزعم أنَّك نبيٌّ تريد الصلاح، أفمن الصلاح قَطْع النخل وحرق الشجر؟[(٢)] وهل وجدتَ فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا؛ لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[(٣)]. وقال شاعرهم سماك اليهوديُّ في ذلك:

أَلَسْنَا وَرِثْنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم نَصْدِفِ
وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عِجافٍ ... بسَهْلِ تِهامة والأَخْيَفِ
تَرَونَ الرعايةَ مجداً لكم ... لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِفِ
فيا أيها الشاهدون انتهُوا ... عن الظلم والمنطق المُؤْنِفِ
لعلَّ الليالي وصَرف الدهور ... يُدِلْنَ من العادل المنصف
بقتل النَّضِير وإجلائها ... وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَفِ[(٤)]

فأجابه حسان بن ثابت:

---

(١) الكشاف ٤/ ٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠١، وخبر قطع نخيل بني النضير وإحراقها أخرجه البخاري (٤٠٣٢)، ومسلم (١٧٤٦): (٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

تفاقَدَ مَعْشَرٌ نصرُوا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُوا أوتوا الكتاب فضيَّعوه ... وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرَان وقد أبيتم ... بتصديق الذي قال النذيرُ
وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيْرَة مستطيرُ[(١)]

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أدام الله ذلك من صنيعٍ ... وحرَّق في نواحيها السَّعِيرُ
ستَعْلَمُ أيُّنا منها بنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أيُّ أرْضِيْنا تَضيرُ
فلو كان النخيل بها رِكاباً ... لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا[(٢)]

الثانية: كان خروج النبيِّ ﷺ إليهم في ربيع الأوَّل، أوَّل السنة الرابعة من الهجرة، وتحصَّنوا منهم في الحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذٍ نزل تحريم الخمر. ودسَّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النَّضير: إنَّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم؛ فاغترُّوا بذلك. فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن دمائهم ويُجْلِيهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم، كَحُيَيِّ بن أَخْطَب، وسَلَّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع. فدانت لهم خَيبر[(٣)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، والأبيات في شرح ديوان حسان لعبد الرحمن البرقوقي ص٢٥٠ ، قال شارحه: وقوله: تفاقَدَ معشر: أي: فَقَدَ بعضهم بعضاً. وقوله: بُورُ: يعني ضُلَّال أو هلكى، من البوار وهو الهلاك. وقوله: سراة بني لؤي: أي خيارهم. والبويرة: موضع بني قريظة. ا هـ. والبيت الأخير سيأتي ضمن خبر ابن عمر، وثمة تخريجه هناك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، وورد فيه: طرائقها، بدل: نواحيها. وأبو سفيان بن الحارث: هو ابن عبد المطلب، وهو ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان حينئذٍ لم يُسلم، وقد أسلم بعدُ في الفتح. وبنزه: ببعد. وتضير: من الضَّيْر، وهو بمعنى الضُّرِّ. فأبو سفيان يقول: تخرَّبت أرض بني النضير، وتخريبها إنما يضرُّ أرضَ من جاورها، وأرضكم [يعني أرض الأنصار] هي التي تجاورها فهي التي تتضرَّر لا أرضنا [يعني أرض قريش]. فتح الباري ٧/ ٣٣٣-٣٣٤ . والبيتان الأول والثاني ذكرهما البخاري (٤٠٣٢) ضمن خبر ابن عمر الآتي قريباً، وكما أشرنا إليه هناك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، حيث ذكر أن هذه الغزوة كانت سنة أربع، وكذا ذكر =

الثالثة: ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قطع نخل بني النَّضير وحَرَّق، ولها يقول حسان:

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

وفي ذلك نزلت: «مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ» الآية[1].

واختلف الناس في تخريب دار العدوِّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأوَّل: أنَّ ذلك جائز، قاله في «المدوَّنة»[2]. الثاني: إن علم المسلمون أنَّ ذلك لهم، لم يفعلوا، وإن يئسوا، فعلوا، قاله مالك في «الواضحة». وعليه يناظر أصحاب الشافعي. ابن العربيِّ[3]: والصحيح الأوَّل. وقد علم رسول الله ﷺ أنَّ نخل بني النَّضير له، ولكنه قَطع وحَرَّق؛ ليكون ذلك نكايةً لهم، ووَهْناً فيهم، حتى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعاً، مقصودة عقلاً.

الرابعة: قال الماورديُّ: إنَّ في هذه الآية دليلاً على أنَّ كلَّ مجتهد مصيبٌ. وقاله الكِيَا الطَّبَريُّ[4] قال: وإن كان الاجتهاد يَبعُد في مثله مع وجود النبيِّ ﷺ بين

= البلاذري في فتوح البلدان ص٣١، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٥٠ أن ابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في هذا الموضع - أي بعد غزوة أحد - وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر. اهـ. وخبر الزهري في مغازيه ص٧١، وأخرجه البلاذري في فتوح البلدان ص٣١ ولكن ورد فيه أن وقيعة بني النضير من يهود كانت على ستة أشهر من يوم أحد. وعلَّقه البخاري قبل حديث (٤٠٢٨) عن الزهري عن عروة، ووصله عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٧، وردَّه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٢٣، وذكر الواقدي في المغازي ١/ ٣٦٣ أنها كانت في ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجرة النبي ﷺ.

(١) مسلم (١٧٤٦): (٣٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٠٣٢)، وزاد: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع وحرَّق في نواحيها السعير
ستعلم أيُّنا منها بنزه وتعلم أيُّ أرضينا تضير

وسلفت قريباً.

(٢) ٣/ ٧ - ٨، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦.

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٦.

أظهرهم، ولا شكَّ أنَّ رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت، فتلَقَّوا الحكم من تقريره فقط. قال ابن العربيّ[(١)]: وهذا باطل؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهادَ مع حضور رسول الله ﷺ، وإنَّما يدلُّ على اجتهاد النبيِّ ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذاً بعموم الأذِيَّة للكفار، ودخولاً في الإذن للكلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الخامسة: اختلف في اللِّينة ما هي، على أقوال عشرة: الأوَّل: النخل كلُّه إلا العَجْوةَ، قاله الزهريُّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل[(٢)]. وعن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنَّها النخل كلُّه، ولم يستثنوا عَجْوةً ولا غيرها[(٣)]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها لون من النخل. وعن الثوريِّ: أنَّها كرام النخل[(٤)]. وعن أبي عبيدة[(٥)]: أنَّها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْني. وقال جعفر بن محمد: إنَّها العجوة خاصّةً[(٦)]. وذكر أنَّ العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة. والعتيق: الفحل. وكانت العجوة أصلَ الإناث كلِّها، فلذلك شقَّ على اليهود قطعها، حكاه الماورديُّ[(٧)]. وقيل: هي ضَرْبٌ من النخل، يقال لتمره: اللَّون، تمره أجود التمر، وهو شديد الصفرة يُرَى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضِّرس؛ النخلة منها أحبُّ إليهم من وَصِيف[(٨)]. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وأنشد الأخفش:

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ ، دون عزوه لسعيد بن جبير وعزاه له النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٠٧ عن عكرمة والزهري وابن عباس وآخرين.

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٠٨ عن ابن عباس. وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ عن الحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠٩ .

(٥) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ وعزاه لمقاتل، والوصيف: الخادم، غلاماً كان أو جارية. اللسان (وصف).

قد شجاني الحمام حين تَغَنَّى ... بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ(١)

وقيل: إنَّ اللِّينة: الفَسِيلة؛ لأنَّها ألين من النخلة. ومنه قول الشاعر:

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين ... ثم حَفّوا النخيل بالآجامِ(٢)

وقيل: إنَّ اللينة: الأشجارُ كلُّها؛ للينها بالحياة، قال ذو الرُّمَّة:

طِراقُ الخَوَافي واقعٌ فوق لِينة ... نَدَى ليله في ريشه يترقرقُ(٣)

والقول العاشر: أنَّها الدقَل، قاله الأصمعيُّ. قال: وأهل المدينة يقولون: لا تنتفخ(٤) الموائد حتى توجد الألوان، يعنون: الدَّقَل. قال ابن العربيِّ(٥): والصحيح ما قاله الزهريُّ ومالك؛ لوجهين: أحدهما: أنَّهما أعرف ببلدهما وأشجارهما. الثاني: أنَّ الاشتقاق يَعْضُده، وأهل اللُّغة يصححونه؛ فإنَّ اللِّينة وزنها لُونة، واعتلَّت على أصولهم، فآلت إلى لِينة، فهي لون، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها؛ كَبْرك: الصَّدْرُ - بفتح الباء - وبِرْكة - بكسرها - لأجل الهاء.

وقيل: لِينة، أصلها لِوْنة، فقلبت الواو ياءً؛ لانكسار ما قبلها. وجمع اللينة: لِين.

وقيل: لِيان، قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه:

وسالفة كسَحُوقِ اللِّيا ... نِ أضْرَمَ فيها الغَويُّ السُّعُرْ(٦)

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ولم ينسبه، وأورده الحميري في الروض المعطار ص٦١٧ ، إلا أنه ورد فيه: الفسيل، بدل: النخيل، وكما نسبه لبعض ولد يثرب بن قانية أول من نزل مدينة النبي ﷺ، وسمِّيت باسمه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ٤٨٨ إلا أنه ورد فيه: ريعة، بدل: لينة. قال شارحه: طراق: أي بعضه على بعض. والخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. والريعة: المكان المرتفع. ويترقرق: يجيء ويذهب.

(٤) في (خ): لا ينتفخ. وفي أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٧ والكلام منه: لا ننحى. وقول الأصمعي ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧١ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٦) الصحاح (لون)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٥ ، إلا أنه ورد فيه: اللُّبان، بدل: اللِّيان، قال شارحه: السالفة: العُنُق. وكسحوق اللُّبان: كالشجرة في الطول. واللُّبان: شجرة اللُّبان، وهو الكُنْدر.

وقال الأخفش: إنَّما سمِّيت لينةً؛ اشتقاقاً من اللَّون، لا من اللين[١]. المهدوِيُّ: واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي من اللون، وأصلها لُونة. وقيل: أصلها لِينة، من لان يلين.

وقرأ عبد الله: «ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قُوَّماً على أصولها»[٢] أي: قائمة على سوقها. وقرأ الأعمش: «ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولِها»[٣] المعنى: لم تقطعوها. وقرئ: «قُوَّماً على أُصُلِها». وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه جمع أصلٍ، كَرَهْن ورُهُن. والثاني: اكْتُفِي فيه بالضمَّة عن الواو. وقرئ: «قائماً على أصوله» ذهاباً إلى لفظ «ما»[٤]. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليذلَّ اليهودَ الكفَّارَ به وبنبيِّه وكتبه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ هذه الآية والتي بعدها إلى قوله: «شَدِيدُ الْعِقَابِ» **فيه عشر مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ما ردَّه الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أموال بني النَّضِير. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أوْضَعْتم عليه. والإيجاف: الإيضاع في السير، وهو الإسراع[٥]، يقال: وَجَفَ الفرسُ: إذا أسرع، وأوجفته أنا، أي: حرَّكته

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٤ إلا أنه ورد فيه: أصوله، بدل: أصولها.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤ .
(٤) الكشاف ٤/ ٨١ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣ .

وأتعبته، ومنه قول تميم بن مقبل:

مَذاوِيد بالبِيض الحديثِ صِقالُها عن الركب أحياناً إذا الركب أَوْجَفُوا[(١)]

والركاب: الإبل، واحدها: راحلة[(٢)]. يقول: لم تقطعوا إليها شُقَّة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقَّة؛ وإنَّما كانت من المدينة على مِيلَيْن، قاله الفرَّاء[(٣)]. فمشَوْا إليها مَشْياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، إلا النبيَّ ﷺ فإنَّه ركب جملاً، وقيل: حماراً مخطوماً بليف، فافتتحها صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم[(٤)]. فسأل المسلمون النبيَّ ﷺ أن يَقسم لهم فنزلت: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ» الآية. فجعل أموال بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خاصَّةً يضعها حيث شاء، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين. ـ قال الواقديُّ: ورواه ابن وهب عن مالك ـ ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثةَ نفر محتاجين، منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة[(٥)]. وقيل: إنَّما أعطى رجلين، سهلاً وأبا دُجَانة. ويقال: أعطى سعد بن معاذ سيفَ ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم[(٦)]. ولم يُسلم من بني النَّضير إلا رجلان: سفيان بن عمير، وسعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها[(٧)].

وفي «صحيح مسلم» عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبيت في ديوان تميم بن أُبيٍّ بن مقبل ص٣٧٢ ، والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٥ ، عدا قوله: وقيل: حماراً مخطوماً بليف. فمن الكشاف ٤/ ٧٩ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٦) المغازي للواقدي ١/ ٣٧٩ ، والقول الأول أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٢٦ عن عبد الله بن أبي بكر ﷺ.

(٧) الدرر لابن عبد البر ص١٨٥ ، وورد فيه أنهما: يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب، وكذا وردا في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢ .

رسوله، مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيِّ ﷺ خاصَّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ، وما بقي يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله تعالى(١).

وقال العباس لعمر رضي الله عنهما: اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ـ يعني: عليّاً ﷺ، فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير ـ فقال عمر: أتعلمانِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا نُورث ما تركناه صدقة» قالا: نعم. قال عمر: إنَّ الله عزَّ وجلَّ كان خصَّ رسوله ﷺ بخاصَّة ولم يُخَصِّص بها أحداً غيره. قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» ـ ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا ـ فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النَّضير، فو اللهِ ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أُسْوَةَ المال... الحديث بطوله، خرَّجه مسلم(٢). وقيل: لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم، طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظٌّ كالغنائم، فبيَّن الله تعالى أنَّها فَيْءٌ، وكان قد جرى ثَمَّ بعضُ القتال؛ لأنَّهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق، بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار، وخصَّ الله تلك الأموال برسوله ﷺ. وقال مجاهد(٣): أعلمهم الله تعالى وذكَّرهم أنَّه إنَّما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كُراع ولا عُدَّة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من أعدائه. وفي هذا بيان أنَّ تلك الأموال كانت خاصَّةً لرسول الله ﷺ دون أصحابه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة، وفَدَك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر. وقُرى

(١) مسلم (١٧٥٧)، وهو عند البخاري (٢٩٠٤)، وأحمد (١٧١)، والكراع: الدوابُّ التي تصلح للحرب.
(٢) برقم (١٧٥٧): (٤٩)، وهو عند البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد (٤٢٥).
(٣) في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥١٤ .

عُرَينة[١]. ويَنْبُع جعلها الله لرسوله. وبيَّن أنَّ في ذلك المال الذي خصَّه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول، نظراً منه لعباده.

وقد تكلَّم العلماء في هذه الآية والتي قبلها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال، فقال قوم من العلماء: إنَّ قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أوَّل الإسلام تُقسم الغَنِيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما[٢]. ونحوه عن مالك. وقال قوم: إنَّما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا رِكاب، فيكون لمن سمَّى الله تعالى فيه فَيْئاً، والأُولى للنبيِّ ﷺ خاصَّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين. وقال معمر: الأُولى للنبيِّ ﷺ، والثانية هي الجزية والخراج، للأصناف المذكورة فيه. والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين[٣]. وقال قوم منهم الشافعيُّ: إنَّ معنى الآيتين واحد، أي: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيِّ ﷺ. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القربى - وهم بنو هاشم وبنو المطلب - لأنَّهم مُنِعوا الصدقة، فجعل لهم حقٌّ في الْفَيْء، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٤]. وأما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي كان من الْفَيْء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعيِّ في قولٍ إلى المجاهدين المترصِّدين للقتال في الثغور؛ لأنَّهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يُصرَف إلى مصالح المسلمين من سدِّ الثغور وحفر الأنهار وبناء

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٧.
(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥٦، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٧، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥١٧ - ٥١٨ عن يزيد بن رومان وقتادة.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٩.
(٤) الأم ٤/ ٧٧، وأحكام القرآن للشافعي جمع الإمام البيهقي ١/ ١٥٣ وما بعدها.

القناطر، يُقدَّم الأهمُّ فالأهمِّ، وهذا في أربعة أخماس الفيء[١]. فأمَّا السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خلاف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس لي من غنائمكم إلا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم»[٢]. وقد مضى القول فيه في سورة «الأنفال»[٣]. وكذلك ما خلَّفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يُصرَف عنه إلى مصالح المسلمين، كما قال عليه السلام: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صدقة»[٤]. وقيل: كان مال الفيء لنبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» فأضافه إليه؛ غير أنَّه كان لا يتأثَّل[٥] مالاً، إنَّما كان يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[٦]: لا إشكالَ أنَّها ثلاثةُ معانٍ في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قوله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» ثم قال تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم .﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ يريد كما بَيَّنَّا؛ فلا حقَّ لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنَّها كانت خالصةً لرسول الله ﷺ، يعني بني النضير وما كان مثلها. فهذه آية واحدة ومعنًى متَّحد. الآية الثانية: قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» وهذا كلام مبتدأ غير الأوَّل لمستحقٍّ غيرِ الأوَّل. وسمَّى الآية الثالثة آيةَ الغنيمة، ولا شكَّ في أنَّه معنًى آخر باستحقاق ثانٍ لمستحقٍّ آخر، بَيْدَ أنَّ الآية الأولى والثانية، اشتركتا في أنَّ كلَّ واحدة منهما تضمَّنت شيئاً

---

(١) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٩٥ .

(٢) سلف ٩/ ٤٤٤ .

(٣) ١٠/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) أي: غير جامع، يقال: مال مؤثَّل، ومجد مؤثَّل. أي: مجموع ذو أصل، وأثلة الشيء: أصله. النهاية (أثل).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦٠ - ١٧٦١ .

أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنَّه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنَّه حاصل بقتال، وعرِيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» عن ذِكْر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من ها هنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كلّه ونحوه. ومن طائفة قالت: هي ملحقة بالثانية، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنَّها ملحقة بآية الأنفال، اختلفوا؛ هل هي منسوخة ـ كما تقدَّم ـ أو مُحكَمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أَوْلى؛ لأنَّ فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أنَّ حمل الحرف من الآية ـ فضلاً عن الآية ـ على فائدة متجدِّدة أَوْلى من حمله على فائدة معادة.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: «فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» هي[1] النضير، لم يكن فيها خمس، ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافيةً لرسول الله ﷺ، فقَسَمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار، حسب ما تقدَّم. وقوله: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» هي قُرَيظة، وكانت قُريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربيّ[2]: قول مالك: إنَّ الآية الثانية في بني قُريظة، إشارة إلى أنَّ معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ، وهذا أقوى من القول بالإحكام، ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيَّنَّا أنَّ الآية الثانية لها معنًى مجدَّد حسب ما دلَّلنا عليه. والله أعلم.

قلت: ما اختاره حَسَن. وقد قيل: إنَّ سورة «الحشر» نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدِّمُ المتأخِّرَ[3]. وقال ابن أبي نَجيح: المال ثلاثة: مَغْنم، أوْفَيْءٌ، أو صَدَقة، وليس منه درهم إلا وقد بيَّن الله موضعه[4]. وهذا أشبه.

---

(١) في (د) و(م): بني. والمثبت من (ظ) و(خ) و(ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٥٩ - ١٧٦٠ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦١ .

(٣) نواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٨ .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٥ وعزاه لابن المنذر.

الثالثة: الأموال التي للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ، ثلاثةُ أضْرُب: ما أُخِذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات. والثاني: الغنائم، وهو ما يحصُل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث: الْفَيْء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عَفواً صفْواً من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجِزية والخراج والعشور المأخوذة من تجّار الكفَّار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارثَ له. فأمَّا الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها، حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في «براءة»[1]. وأمَّا الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبيِّ ﷺ يصنع فيها ما شاء، كما قال في سورة «الأنفال»: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الآية: ١]، ثم نسخ بقوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الآية [٤١: من سورة الأنفال]. وقد مضى في الأنفال بيانه[2].

فأما الفَيْءُ فقسمته وقسمة الخمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما، قَسَمه كلَّه بين الناس، وسوَّى فيه بين عربيِّهم ومَوْلاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا، ويعطوا ذَوُو القربى من رسول الله ﷺ من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حدٌّ معلوم. واختلف في إعطاء الغنيِّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه، لأنَّه حقٌّ لهم. وقال مالك: لا يُعطَى منه غير فقرائهم؛ لأنَّه جُعل لهم عِوَضاً من الصدقة[3].

وقال الشافعيُّ: أيّما حصل من أموال الكفَّار من غير قتال كان يقسم في عهد النبيِّ ﷺ على خمسة وعشرين سهماً: عشرون للنبيِّ ﷺ يفعل فيها ما يشاء. والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الدَّاوُديّ: وهذا قول

(١) ١٠/ ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) ١٠/ ١٩ وما بعدها.

(٣) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨ .

ما سبقه به أحدٌ علمناه، بل كان ذلك خالصاً له، كما ثبت في الصحيح عن عمر[(١)] مبيِّناً للآية. ولو كان هذا لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يدلُّ على أنَّه يجوِّز الموهوبةَ لغيره، وأنَّ قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] يجوِّز أن يشركهم فيها غيرهم. وقد مضى قول الشافعيِّ مستوعَباً في ذلك، والحمد لله. ومذهب الشافعيِّ ﷺ: أنَّ سبيل خمس الْفَيْء سبيل خمس الغنيمة، وأنَّ أربعة أخماسه كانت للنبيِّ ﷺ، وهي بعده لمصالح المسلمين. وله قول آخر: أنَّها بعده للمرصدين أنفسَهم للقتال بعده خاصة، كما تقدَّم.

الرابعة: قال علماؤنا: ويُقسم كلُّ مال في البلد الذي جُبيَ فيه، ولا يُنقَل عن ذلك البلد الذي جُبِيَ فيه حتى يَغنَوا، ثم يُنقَل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في أعوام الرَّمادة، وكانت خمسةَ أعوام أو ستَّة. وقد قيل: عامين. وقيل: عامٌ فيه اشتدَّ الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا، ورأى الإمام إيقافَ الْفَيْء، أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس، ويبدأ بمن أبوه فقير. والْفَيْء حلال للأغنياء. ويسوِّي بين الناس فيه إلا أنَّه يُؤْثِر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنَّما يكون على قَدْر الحاجة. ويُعطى منه الغرماء ما يؤدُّون به ديونهم. ويُعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلاً، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأوْلاهم بتوفر الحظِّ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً. ومن أخذ من الْفَيْء شيئاً في الديوان، كان عليه أن يغزو إذا غزى[(٢)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ قراءة العامة: «يَكُونَ» بالياء. «دُولَةً» بالنصب، أي: كي لا يكون الفَيْء دُولةً[(٣)]. وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ـ عن ابن

---

(١) سلف تخريجه عند الآية السادسة من هذه السورة.

(٢) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨، وأعوام الرمادة كانت سنة ثمان عشرة للهجرة، وخبرها في تاريخ الطبري ٤/ ٩٦-١٠١. والمنفوس: المولود. معجم متن اللغة (نفس).

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٢٥.

عامر ـ وأبو حيوة: «تكون» بتاء، «دُولةٌ» بالرفع(١)، أي: كي لا تقع دُولة. فكان تامَّة. و«دُولَةٌ» رفع على اسم كان، ولا خبرَ له. ويجوز أن تكون ناقصةً، وخبرها: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». وإذا كانت تامَّة فقوله: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» متعلّق بـ «دُولة» على معنى: تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» وصفاً لـ «دُولة». وقراءة العامة: «دُولة» بضمِّ الدال. وقرأها السُّلَمِيُّ وأبو حيوة بالنصب(٢). قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعيُّ: هما لغتان بمعنًى واحد(٣). وقال أبو عمرو بن العلاء: الدَّوْلَة ـ بالفتح ـ الظَّفَر في الحرب وغيره، وهي المصدر. وبالضمِّ: اسم الشيء الذي يتداول من الأموال(٤). وكذا قال أبو عبيدة: الدُّولة: اسم الشيء الذي يُتداول. والدَّوْلة: الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفَيْء؛ كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا، أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفي منها أيضاً بعد المرْباع ما شاء(٥)، وفيها قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصَّفايا(٦)

يقول: كي لا يُعمَل فيه كما كان يُعمَل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله ﷺ، يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: ما

---

(١) التيسير ص٢٠٩ عن هشام، والنشر ٢/ ٣٨٦، والمحتسب ٢/ ١٥٤ عن أبي جعفر، وما بعده منه، ومن الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/ ٣١٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن السلمي.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦ عن عيسى بن عمر، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٣ عن يونس والأصمعي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٨.

(٦) هذا صدر بيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وعجزه:

وحُكْمك والنشيطة والفضول

وسلف ١٠/ ٢٤.

أعطاكم من مال الغَنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول، فانتهوا، قاله الحسن وغيره. السُّدِّيُّ: ما أعطاكم من مال الْفَيْء، فاقبلوه، وما منعكم منه، فلا تطلبوه. وقال ابن جُريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردِيُّ[١]: وقيل: إنَّه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

السابعة: قال المهدوِيُّ: قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هذا يوجب أنَّ كلَّ ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ أمْرٌ من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم، فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دخل فيها. وقال الحَكَم بن عُمير - وكانت له صحبة -: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَب، عسير على من تركه، يسير على من اتَّبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب، وهو الحَكَم، فمن استمسك بحديثي وحَفِظَه، نجامع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي، خسر الدنيا والآخرة. وأُمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتَّبعوا سُنَّتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي، فقد استهزأ بالقرآن، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[٢].

الثامنة: قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابنُ مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ عليَّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[٣].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، وما قبله منه أيضاً، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٥ ، والطبري ٢٢/ ٥٢٢ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٦٣٠) مقتصراً على طرفه الأول، وفي إسناده: عيسى بن إبراهيم القرشي، وهو منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩ وعدَّه من مناكيره.

(٣) الكشاف ٤/ ٨٢ - ٨٣ ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد، دون ذكر ابن مسعود ﷺ.

وقال عبيد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِيُّ: سمعتُ الشافعيَّ ﷺ يقول: سلوني عمَّا شئتم، أُخبركم من كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّكم ﷺ. قال: فقلت له: ما تقولُ ـ أصلحكَ اللهُ ـ في المُحْرِمِ يقتل الزُّنْبُور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وحدَّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن عبد الملك بن عُمير، عن رِبْعِيِّ بنِ حراش، عن حُذيفة بن اليَمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر». وحدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن مِسْعر بن كِدَام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أنَّه أمر بقَتْل الزُّنْبُور(١).

قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحُسْنِ، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيَّن أنَّه يَقتدي فيه بعمر، وأنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بالاقتداء به، وأنَّ الله سبحانه أَمَرَ بقبول ما يقوله النبيُّ ﷺ، فجواز قَتْله مستنبَط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سُئل عن أمهات الأولاد فقال: هنَّ أحرار. في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية: ٥٩](٢).

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن علقمة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفلِّجاتِ للحُسْن، المُغَيِّرَاتِ

(١) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢١٢ من طريق عبد الله بن وهب الدينوري، عن الفريابي، به، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩ -١١٠ من طريق محمد يزيد بن حكيم، قال: رأيت محمد بن إدريس الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس يجلس عليها، . فأتاه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ قال: حرام. فقال الخراساني: حرام؟! فقال: نعم، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والمعقول، . . . الخبر، فذكر الآية المذكورة أعلاه، وخبر الاقتداء، وخبر عمر لكن بإسناد آخر عنه. وقوله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، أحدهما: عن أحمد بن منيع، عن ابن عيينة، به. والآخر: عن الحسن بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، به. وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥). قال الترمذي: وكان سفيان بن عيينة يُدلِّس في هذا الحديث، فربَّما ذكره عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، وربَّما لم يذكر فيه: عن زائدة. وقال أيضاً: هذا حديث حسن. اهـ. وبرقم (٣٦٦٣) من طريق عمرو بن هرم، عن ربعي، به.
وقول عمر أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨ ، وسلف ٨/ ١٨٣ .
(٢) ٦/ ٤٣٠ .

خَلْقَ الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: بلغني أنَّك لعنتَ كَيْتَ وكيت! فقال: ومالِيَ لا ألعنُ مَن لَعَنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وَجَدْتِيه! أما قرأتِ: «وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»! قالت: بلى. قال: فإنَّه قد نهى عنه.. الحديث. وقد مضى القول فيه في «النساء» مستوفًى[1].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء: وهو المناولة، فإنَّ معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، فقابله بالنهي، ولا يُقابل النهي إلا بالأمر، والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبل[2]، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمْرٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[3]. وقال الكلبيُّ: إنَّها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله ﷺ من أموال المشركين: يا رسولَ الله، خُذ صَفِيَّك والرُّبع، ودعنا والباقي؛ فهكذا كنَّا نفعل في الجاهلية. وأنشدوه:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايا ... وحُكْمُكَ والنَّشِيطةُ والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية[4].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عذاب الله، إنَّه شديد لمن عصاه[5]. وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيِّعوها[6]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ - ١٧٦٣ بتمامه، والحديث عند مسلم (٢١٢٥)، ولم يرد منه عبارة: قال رسول الله ﷺ. والحديث سلف ٧/ ١٤٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ .

(٣) سلف ٥/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، والبيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وسلف ١٠/ ٢٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٤ .

(٦) الكشاف ٤/ ٨٢ .

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: الفَيْءُ والغنائمُ «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ». وقيل: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ» ولكن يكون «لِلْفُقَرَاءِ»[1]. وقيل: هو بيان لقوله: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»[2] فلما ذُكروا بأصنافهم، قيل: المال لهؤلاء؛ لأنَّهم فقراء ومهاجرون، وقد أُخرجوا من ديارهم؛ فهم أحقُّ الناس به. وقيل: «وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» للفقراء المهاجرين؛ لكيلا يكون المال دولةً للأغنياء من بني الدنيا. وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين؛ أي: شديد العقاب للكفَّار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أَجْلهم. ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدِّم ذكرهم في قوله تعالى: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى». وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأتِ بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لِبَكْر لفلان لفلان.

والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ حُبّاً فيه ونُصْرَةً له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان، حبّاً لله ولرسوله، حتى إنَّ الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صُلبه من الجوع، وكان الرجل يتَّخذ الحَفِيرة في الشتاء ماله دِثار غيرها[3]. وقال عبد الرحمن بن أبزى وسعيد بن جُبَير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجُّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى الفقْر، وجعل لهم سهماً في الزكاة[4]. ومعنى «أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ»، أي: أخرجهم كفَّار مكَّة، أي: أحْوَجُوهم إلى الخروج، وكانوا مئة رجل. ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون. ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: غنيمة في الدنيا ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ في الآخرة، أي:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٩٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٢٨٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/٣١٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/٥٢٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/٥٢٣ عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

مرضاة ربِّهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهاد في سبيل الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في فعلهم ذلك. ورُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبَيَّ بنَ كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيدَ بنَ ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذَ بنَ جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإنَّ الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألَا وإنِّي بادٍ بأزواج النبيِّ ﷺ فمعطيهنَّ، ثم بالمهاجرين الأوَّلين؛ أنا وأصحابي أُخْرِجنا من مكَّة من ديارنا وأموالنا(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لا خلافَ أنَّ الذين تبوَّؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها(٢). «وَالْإِيمَانَ» نصب بفعل غير تبوَّأ؛ لأنَّ التبوُّءَ إنَّما يكون في الأماكن. و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ «مِنْ» صلة تبوَّأ، والمعنى: والذين تبوَّؤوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكان يتبوَّأ، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أي: وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو عليٍّ والزمخشري(٣) وغيرهما. ويكون من باب قوله:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٥ وعزاه إلى علي بن رباح اللخمي، وأخرجه عنه أبو عبيد في الأموال (٥٤٨). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٧٩٥) من طريق عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وقال: لم يروِ هذا الحديث عن داود بن الحصين إلا ابنه سليمان، تفرَّد به عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٥: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله موثقون.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٣) في الكشاف ٤/ ٨٣، وما بعده منه أيضاً.

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبـنـاً ومـاءً بـارداً[1]

ويجوز حمله على حذف المضاف، كأنه قال: تبوَّؤوا الدارَ ومواضعَ الإيمان. ويجوز حمله على ما دلَّ عليه تبوَّأ، كأنَّه قال: لزموا الدارَ ولزموا الإيمانَ، فلم يفارقوهما. ويجوز أن يكون تبوَّأ الإيمان على طريق المَثَل، كما تقول: تبوَّأ من بني فلان الصميم[2]. والتبوُّء: التمكُّن والاستقرار. وليس يريد أنَّ الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبيِّ ﷺ إليهم.

الثانية: واختلف أيضاً هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها، أو معطوفة؟ فتأوَّل قوم أنَّها معطوفة على قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ الآياتِ التي في الحَشْر كلَّها معطوفة بعضها على بعض. ولو تأمَّلوا ذلك وأنصفوا، لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» إلى قوله: «الْفَاسِقِينَ» فأخبر عن بني النَّضِير وبني قَيْنُقاع. ثم قال: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» فأخبر أنَّ ذلك للرسول ﷺ؛ لأنَّه لم يُوجف عليه حين خَلَّوه. وما تقدَّم فيهم من القتال وقَطْع شجرهم، فقد كانوا رجعوا عنه، وانقطع ذلك الأمر. ثم قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» وهذا كلام غيرُ معطوف على الأوَّل. وكذا: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» ابتداءُ كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم؛ فإنَّهم سلَّموا ذلك الْفَيْءَ للمهاجرين؛ وكأنَّه قال: الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار يُحبُّون لهم، لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الْفَيْء. وكذا «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ابتداءُ كلام، والخبر: «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا».

وقال إسماعيل بن إسحاق: إنَّ قوله: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا»

---

(١) سلف ١/ ٢٩١ .

(٢) قال المبرِّد في الكامل ٣/ ١٠٩٣ : الصميم: الخالص من كل شيء، يقال: فلان من صميم قومه، أي: من خالصهم.

معطوف على ما قبلُ، وأنَّهم شركاء في الفيء، أي: هذا المال للمهاجرين والذين تبوَّؤوا الدار.

وقال مالك بن أوْس: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» حتى بلغ: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»، «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ثم قال: لئن عشتُ ليأتينَّ الراعِيَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر نصيبُه منها لم يَعْرَق فيها جبينه[1].

وقيل: إنَّه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتحَ الله عليه من ذلك، وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه، ثم اغدوا عليَّ. ففكَّر في ليلته فتبيَّن له أنَّ هذه الآيات في ذلك أُنزلت. فلما غدَوْا عليه قال: قد مررت البارحةَ بالآيات التي في سورة «الحشر» وتلا: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» إلى قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» فلما بلغ قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» قال: ما هي لهؤلاءِ فقط. وتلا قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» إلى قوله: «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ». ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. والله أعلم.

الثالثة: روى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنَّ عمر قال: لولا من يأتي من آخِرِ الناس ما فُتحت قريةٌ إلا قسمتها، كما قسم رسولُ الله ﷺ خَيْبر[2]. وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة: أنَّ عمر أَبقى سوادَ العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم[3]؛ لتكونَ من أُعْطِيات المقاتلة وأرزاق الحِشْوة والذَّراري، وأنَّ الزبير وبِلالاً

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٤، وأبو عبيد في الأموال (٥٢٦)، وهو عند البخاري (٤٠٣٣)، ومسلم (١٧٥٧) مطولاً بنحوه. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٧ عن أبي عمرو: السرو: ما انحدر من حزونة الجبل، وارتفع عن منحدر الوادي، فما بينهما سرو.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٤) من طريق عبد الرحمن، عن مالك، به، وهو عند أحمد (٢٨٤)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٢٠) وسلف ١٠/ ٩.

(٣) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٤٤ - ٤٥، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٩٥. والسواد: جماعة النخل والشجر؛ لخضرته واسوداده، والسواد: ما حوالي الكوافة من القرى والرساتيق. اللسان (سود).

وغيرَ واحد من الصحابة أرادوه على قَسْمِ ما فتح عليهم، فكره ذلك منهم، واختلف فيما فعل من ذلك، فقيل: إنَّه استطاب أنفس أهل الجيش؛ فمن رضيَ له بترك حَظّه بغير ثمن ليُبْقِيَه للمسلمين قَلَّةٌ. ومن أبى، أعطاه ثمن حظِّه[1]. فمن قال: إنَّما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم، جعل فعله كفعل النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قسم خَيْبر؛ لأنَّ اشتراءه إيَّاها وتركَ من ترك عن طيب نفسه، بمنزلة قسمها. وقيل: إنَّه أبقاها بغير شيء أعطاه أهل الجيوش. وقيل: إنَّه تأوَّل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» إلى قوله: «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» على ما تقدَّم[2]. والله أعلم.

الرابعة: واختلف العلماء في قسمة العَقار؛ فقال مالك: للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين. وقال أبو حنيفة: الإمام مخيَّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفاً لمصالح المسلمين. وقال الشافعيُّ: ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم، كسائر الأموال. فمن طاب نفساً عن حقِّه للإمام أن يجعله وقْفاً عليهم، فله. ومن لم تَطِب نفسُه، فهو أحقُّ بماله[3]. وعمر ﷺ استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم[4].

قلت: وعلى هذا يكون قوله: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» مقطوعاً مما قبله، وأنَّهم نُدبوا بالدعاء للأوَّلين والثناء عليهم.

الخامسة: قال ابن وهب: سمعت مالكاً يذكر فَضْلَ المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إنَّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرَى افتُتِحت بالسيف، ثم قرأ: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» الآية[5]. وقد مضى الكلام في هذا، وفي فَضْلِ الصلاة في المسجدين: المسجد

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٣٣ بنحوه.

(٣) التمهيد ٦/ ٤٥٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ .

الحرام ومسجد المدينة، فلا معنى للإعادة[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَيْء وغيره، كذلك قال الناس[٢]. وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى: مَسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أوتوا. وكلُّ ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة. وكان المهاجرون في دُوْرِ الأنصار، فلما غَنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النَّضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: «إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضِير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسَلَّمنا يا رسولَ الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار». وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم[٣]. ويحتمل أن يريد به: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلاً [بل] يقنعون به، ويرضَوْن عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيِّ ﷺ دُنْيَا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا. وقد أنذرهم النبيُّ ﷺ وقال: «سترون بعدي أَثَرَة، فاصبروا حتى تلقوْني على الحوض»[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في الترمذيِّ عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً بات به ضيفٌ، فلم يكن عنده إلا قوتُه وقوتُ صبيانه؛ فقال

---

(١) ٨/ ١٨٨ و١٢/ ١٥١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣.

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩ عن أم العلاء رضي الله عنها، وسلف ذكر الثلاثة ص٣٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ - ١٧٦٤ وما بين حاصرتين منه، والحديث سلف ١١/ ٦١.

لامرأته: نَوِّمي الصِّبيةَ، وأَطفئي السراج، وقَرِّبي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ». قال: هذا حديث حسن صحيح. خرَّجه مسلم أيضاً[(١)].

وخرَّج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. ثم أرسل إلى الأُخرى فقالت مثل ذلك، حتى قُلْنَ كلُّهنَّ مثلَ ذلك: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. فقال: «مَن يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله»؟. فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانْطَلَق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: هل عندكِ شيءٌ؟ قالت: لا، إلا قوتُ صِبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفُنا، فأَطفئي السِّراج وأَرِيه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تُطفئيه. قال: فقعدوا وأَكَلَ الضيف. فلما أصبح غدَا على النبيِّ ﷺ فقال: «قد عَجِبَ اللهُ من صنيعكما بضيفكما الليلة»[(٢)].

وفي رواية عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ليُضيفه، فلم يكن عنده ما يُضيفُه. فقال: «ألا رَجُلٌ يُضيفُ هذا رحمه الله»؟ فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة. فانطلق به إلى رحله، وساق الحديث بنحو الذي قبله، وذكر فيه نزولَ الآية[(٣)].

وذكر المهدويُّ عن أبي هريرة أنَّ هذا نزل في ثابت بنِ قيس ورجلٍ من الأنصار ـ نزل به ثابت ـ يقال له: أبو المتوكِّل، فلم يكن عند أبي المتوكِّل إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته: أطفئي السراج ونوِّمي الصبيةَ؛ وقَدَّم ما كان عنده إلى ضيفه. وكذا ذكر النحَّاس قال: قال أبو هريرة: نزل برجل من الأنصار ـ يقال له: أبو المتوكِّل ـ ثابت بن قيس ضيفاً، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته:

---

(١) الترمذي (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠٥٤): (١٧٣).

(٢) مسلم (٢٠٥٤)، وهو عند البخاري (٤٨٨٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥ - ٤٤٦ بنحوه.

(٣) مسلم (٢٠٥٤): (...).

أطفئي السراج ونوِّمي الصبية؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» إلى قوله: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وقيل: إنَّ فاعل ذلك أبو طلحة[١]. وذكر القشيريُّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم: وقال ابن عمر: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَه أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعةُ أبيات، حتى رجعت إلى أولئك؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ»[٢]. ذكره الثعلبيُّ عن أنس قال: أُهْدِيَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة - وكان مجهوداً - فوجَّه به إلى جارٍ له، فتداولته سبعةُ أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأوَّل، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ» الآية[٣].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ للأنصار يوم بني النَّضير: «إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم من الغنيمة شيئاً» فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ» الآية[٤]. والأوَّل أصحُّ[٥].

وفي «الصحيحين» عن أنس: أنَّ الرجل كان يجعل للنبيِّ ﷺ النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قُرَيْظة والنَّضِير، فجعل بعد ذلك يردُّ عليه ما كان أعطاه. لفظ مسلم[٦]. وقال الزُّهريُّ عن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون - من مكَّةَ - المدينةَ، قَدِموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ بنحوه، وسلف ذكر أبي طلحة في حديث مسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢١٤ بنحوه، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٤٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٠ ، وزاد المسير ٨/ ٢١٤ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٤ .

(٦) برقم (١٧٧١)، والبخاري (٣١٢٨).

على أن أعطوهم أنصافَ ثمار أموالهم كلَّ عام، ويكفُونهم العملَ والمؤونة، وكانت أمُّ أنس بن مالك تُدْعَى بأمِّ سُلَيم، وكانت أمَّ عبدِ الله بن أبي طلحة، كان أخاً لأنَسٍ لأمِّه، وكانت أعطت أمُّ أنَسٍ رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمَّ أيْمَنَ مَوْلَاتَه، أمَّ أسامة بنِ زيد. قال ابنُ شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم. قال: فردَّ رسول الله ﷺ إلى أمِّي عِذاقها، وأعطى رسولُ الله ﷺ أمَّ أيْمَن مكانهنَّ من حائطه. خرَّجه مسلم أيضاً(١).

الثامنة: الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظِها الدنياوية، رغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوَّة اليقين، وتوكيد المحبَّة، والصبر على المشقَّة(٢). يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضَّلته(٣). ومفعول الإيثار محذوف، أي: يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنًى، بل مع احتياجهم إليها(٤)، حسب ما تقدَّم بيانه.

وفي «موطأ مالك»: أنَّه بلغه عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، أنَّ مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إيَّاه. فقالت: ليس لكِ ما تُفطِرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيَّاه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهْدَى لنا أهلُ بيت، أو إنسانٌ، ما كان يُهدى لنا: شاةً وكَفَنَها. فدعتني عائشة فقالت: كُلِي من هذا، فهذا خير من قُرْصك(٥).

قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزاكي عند الله تعالى، يعجِّل منه

---

(١) برقم (١٧٧١)، وهو عند البخاري (٢٦٣٠)، وعذاقاً: جميع عَذق، وهي النخلة، والمنيحة: المنحة. النهاية (عذق) و(منح).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ .

(٣) اللسان (أثر).

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٧ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٩٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٢).

ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدَّخر عنه. ومن تَرَكَ شيئاً لله، لم يجد فَقْدَه. وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأنَّ من فعل ذلك، فقد وقي شُحَّ نفسِه، وأفلح فلاحاً لا خسارةَ بعده. ومعنى: شاةٌ وكَفَنَها: فإنَّ العرب ـ أو بعض العرب، أو بعض وجوههم ـ كان هذا من طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطَّوْه كلَّه بعجِينِ البُرِّ، وكفنُوه به، ثم عَلَّقوه في التَّنُّور، فلا يخرج من وَدَكِه شيء إلا في ذلك الكفن؛ وذلك من طيِّب الطعام عندهم[1].

وروى النسائيُّ عن نافع أنَّ ابن عمر اشتكى واشتهى عِنَباً، فاشْتُرِي له عنقود بدرهم، فجاء مسكين فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه. فخالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكينُ فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه. ثم خالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع، فمنع. ولو علم ابنُ عمر أنَّه ذلك العنقود ما ذاقه[2]؛ لأنَّ ما خرج للهِ لا يعود فيه.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا محمد بن مطرِّف قال: حدَّثنا أبو حازم، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع، عن مالك الدار: أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربع مئة دينار، فجعلها في صُرَّة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عُبيدة بنِ الجرَّاح، ثم تَلَكَّأْ

---

(١) الاستذكار ٢٧/ ٤٠٦ - ٤٠٧، ووقع في مطبوعه: وأفلح فلا حاجة لإحسان بعده. بدل: وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده. والوَدَك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. اللسان (ودك).

(٢) لم نقف عليه عند النسائي في المجتبى والكبرى، وأخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٠٧ من طريق القيروان، عن أحمد بن شعيب النسائي، عن الحسن بن الحسن المروذي، والطبراني في الكبير (١٣٠٦٧)، ـ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٩٧ ـ من طريق نعيم بن حماد، كلاهما عن ابن المبارك، عن عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، عن نافع، به.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٤٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير نعيم بن حماد، وهو ثقة. اهـ.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٧ من طريق خبيب بن عبد الرحمن، عن نافع، أن ابن عمر اشتهى عنباً... بنحوه.

ساعةً في البيت حتى تنظرَ ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وَصَلَه الله ورَحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتَلَكَّأْ في البيت ساعةً حتى تنظرَ ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووَصَله، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأةُ معاذ فقالت: ونحن! واللهِ مساكين، فأعطنا. ولم يَبْقَ في الخرقة إلا ديناران فدحا[1] بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال: إنَّهم إخوة! بعضهم من بعض[2]. ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إيَّاها، وكان عشرة آلاف، وكان المُنْكَدِر دخل عليها[3].

فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدُّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنَّما كره ذلك في حقِّ من لا يُوثَق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرَّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه. فأمَّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) في (م): قد جاء. والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج، ودحا: رمى وألقى. اللسان (دحا).

(٢) الزهد لابن المبارك (٥١١) ـ ومن طريقه أخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٠/ ٣٣ (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٧ ـ عن محمد بن مطرِّف، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير، ومالك الدار: لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقوله: تلكَّأْ. في الموضعين، وقعت عند ابن المبارك والطبراني: تلهَّ. وعند أبي نعيم وقعت في الموضع الأول: تلبَّث، وفي الموضع الثاني: وتلهَّ. قال ابن الأثير في النهاية (لها): وحديث عمر أنه بعث إلى أبي عبيدة بمال في صرَّة، وقال للغلام: اذهب بها إليه، ثم تلهَّ ساعة في البيت... أي: تشاغل وتعلَّل.

(٣) بعدها في (د)و(ظ) بياض، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/ ٢٨ .

وكان الإيثار فيهم أفضلَ من الإمساك. والإمساك لمن لا يصبر ويتعرَّض للمسألة أَولى من الإيثار[١]. وروي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: «يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدَّق به، ثم يقعد يتكفَّف الناس»[٢]، والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس. ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْس أقصَى غاية الجُودِ[٣]

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حدِّ المحبة: أنَّها الإيثار، ألا ترى أنَّ امرأة العزيز لمَّا تناهت في حُبِّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] وأفضل الجودِ بالنفس الجودُ على حماية رسول الله ﷺ، ففي الصحيح: أنَّ أبا طَلْحة تَرَّس على النبيِّ ﷺ يوم أُحُد، وكان النبيُّ ﷺ يتطلَّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تُشرِف يا رسولَ الله! لا يصيبونك! نَحْرِي دون نَحْرِك! ووَقَى بيده رسولَ الله ﷺ، فشُلَّت[٤].

وقال حُذيفة العدوِيُّ: انطلقتُ يوم اليَرْمُوك أطلب ابنَ عمٍّ لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول: إن كان به رَمقٌ سقيتُه، فإذا أنا به، فقلت له: أَسقيك؟ فأشار برأسه أنْ نَعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابنُ عمِّي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٨ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٣) و(١٦٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٢) واللفظ له. وفي إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو مدلِّس، ولم يصرِّح بالتحديث.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ ، وما بعده منه أيضاً، والمثل عجز بيت لمسلم بن الوليد، ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٩٥، وصدره:

يجود بالنفس إذ ضنَّ الجواد بها

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ ، والخبر أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١)، وأحمد (١٢٠٢٤) عن أنس ﷺ.

ابن العاص فقلت: أَسقيكَ؟ فأشار أنْ نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمِّي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البِسْطَامِيُّ: ما غَلَبني أحد ما غَلَبني شابٌّ من أهل بَلْخ! قدِم علينا حاجّاً، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إنْ وَجَدْنا أَكَلْنا. وإن فقدنا صَبَرْنَا. فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا. فقلت: وما حَدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فَقَدْنا شكرنا، وإن وَجَدْنا آثرنا(١).

وسُئل ذو النُّون المصريُّ: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وتَرْك طلب المفقود، والإيثار عند القوت. وحكي عن أبي الحسن الأنطاكيِّ: أنَّه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرِّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعَهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام؛ فلما رفُع، فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلُّ بها الحال. وأصلها من الاختصاص، وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة: الانفراد بالحاجة؛ أي: ولو كان بهم فاقة وحاجة. ومنه قول الشاعر:

أمَّا الربيع إذا تكون خصاصةٌ ... عاش السقيم به وأَثْرَى الْمُقْترُ(٢)

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشُّحُّ والبُخْلُ سواء(٣)، يقال: رجل شحيح: بَيِّن الشُّحِّ والشَّحِّ والشَّحاحة(٤). قال عمرو ابن كلثوم:

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ - ٢٨٨، وفيه: صبرنا، بدل: شكرنا.

(٢) لم نقف على قائله.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٢٩.

تـرى الـلَّـحِـزَ الـشَّـحـيـحَ إذا أُمِـرَّتْ   عـلـيـه لِـمـالِـه فـيـهـا مُـهِـيـنـا[١]

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحَّ أشدَّ من البخل. وفي «الصحاح»[٢]: الشُّحُّ: البخلُ مع حِرص، تقول: شَحِحْتَ - بالكسر - تَشَحُّ. وشَحَحْتَ أيضاً تَشُحُّ وتَشِحُّ. ورجل شَحيح، وقومٌ شِحاح و أَشِحَّة.

والمراد بالآية: الشّحُّ بالزكاة وما ليس بفرض، من صلة ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك، وإن أمسك عن نفسه. ومن وَسَّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات، فلم يُوقَ شُحَّ نفسه.

وروى الأسْوَد عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أتاه فقال له: إنِّي أخاف أن أكون قد هَلكتُ؟ قال: وما ذاك؟ قال: سمعتُ الله عَزَّ وجلَّ يقول: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وأنا رجل شحيح لاأكادُ أن أُخرِجَ من يدي شيئاً. فقال ابن مسعود: ليس ذلك بالشُّحِّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن، إنَّما الشُّحُّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مالَ أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشَّيء البخل[٣]. ففرَّق ﷺ بين الشُّحِّ والبخل.

وقال طاوس: البخل: أن يبخلَ الإنسان بما في يده، والشُّحُّ: أن يَشِحَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحِلِّ والحرام، لا يقنع. ابن جبير: الشُّحُّ: منع الزكاة وادِّخار الحرام. ابن عُيَيْنَة: الشُّحُّ: الظلم. الليث: ترك الفرائض، وانتهاك المحارم. ابن عباس: من اتَّبع هواه ولم يقبل الإيمان، فذلك الشحيح[٤].

(١) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان ص٤٦ ، قال شارحه: اللَّحِز: الضَّيِّق الخُلُق. وأُمِرَّت: أُديرت عليه. والمعنى: فإذا كُرِّرت عليه الخمر اتسعَ صدره، وأنفق ماله.

(٢) مادة (شحح).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٦ -٥٠٧ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٩/٩٨ ، والطبري ٢٢/٥٢٩ - ٥٣٠ ، والحاكم ٢/٤٩٠ من طرق، عن الأسود بن هلال، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) النكت والعيون ٥/٥٠٦ - ٥٠٧ .

ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً [لشيء] نهاه الله عنه، ولم يَدْعُه الشُّحُّ [على أن يمنع شيئاً من شيء] أمره الله به، فقد وقاه الله شُحَّ نفسه[١].

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «بَرِئَ من الشُّحِّ من أدَّى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة»[٢]. وعنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بِكَ من شُحِّ نفسي وإسرافها ووساوسها»[٣].

وقال أبو الهَيَّاج الأسدي: رأيت رجلاً في الطّواف يدعو: اللهمَّ قِنِي شُحَّ نفسي. لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له؟ فقال: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزْنِ، ولم أفعل. فإذا الرجل عبد الرحمن بن عَوْف[٤].

قلت: يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «اتَّقوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قَبلكم، حملهم على أن سَفَكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». وقد بيَّنَّاه في آخر «آل عمران»[٥]. وقال كِسرى لأصحابه: أيُّ شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر. فقال كِسرى: الشُّحُّ أضرُّ من الفقر؛ لأنَّ الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣١ - ٥٣٢، وما بين حاصرتين منهما ومن (م).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠ - ٥٣١، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق، عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، عن إسماعيل بن عياش، عن مجمع بن جارية، عن عمه، عن أنس، به. ومحمد بن إسحاق هو: ابن عمرو بن عمر بن عمران أبو الحسن القرشي المؤذِّن المعروف بابن الحريص، ختن هشام بن عمار. ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٢/ ٢٦ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد توفي سنة (٢٢٨هـ).

وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٠٩٧)، وابن حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢ من طريق مجمع بن يحيى، عن عمِّه خالد بن زيد، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨: رواهما الطبراني في الكبير، وفيه: إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف. اهـ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الإصابة ٣/ ٥٨.

(٣) أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٤٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٨٣.

(٥) ٥/ ٤٤١، وسلف تخريج الحديث ثمة.

(٦) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٣٨.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة[(١)]. قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم. فاجْهَدْ ألَّا تخرج من هذه المنازل[(٢)].

وقال بعضهم: كن شَمْساً، فإن لم تستطع فكن قَمَراً، فإن لم تستطع فكن كَوْكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً، ومن جهة النور لا تَنقطِع. ومعنى هذا: كن مهاجرِيّاً. فإن قلت: لا أجد، فكن أنصارِيّاً. فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبَّهم واستغفر لهم كما أمَرَك الله. وروى مصعب بن سعد قال: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقِيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت[(٣)].

وعن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسين ﵁، أنَّه جاءه رجل فقال له: يابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الآية؟ قال: لا. قال: فواللهِ لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: «والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» الآية؟ قال: لا. قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام! وهي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وِلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٣٢١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٣ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٦/١٨٦٨ (١٠٣٠٣).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٧ .

بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. وقد قيل: إنَّ محمد بن علي بن الحسين ﷺ، روى عن أبيه: أنَّ نفراً من أهل العِراق جاؤوا إليه، فسبُّوا أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ثم عثمان ـ ﷺ ـ فأكثروا، فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأوَّلين أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفمن الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرَّأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنَّكم لستم من الذين قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا للذين آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قوموا، فعل الله بكم وفعل!! ذكره النحَّاس(١).

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبَّة الصحابة؛ لأنَّه جعل لمن بعدهم حظّاً في الفَيْء ما أقاموا على محبَّتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأنَّ مَن سبَّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرّاً أنَّه لا حقَّ له في الْفَيْء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يُبْغِض أحداً من أصحاب محمَّد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حقٌّ في فَيْء المسلمين؛ ثم قرأ: ﴿والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية(٢).

الثالثة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض، شملاً بين المسلمين أجمعين ـ كما فعل ﷺ ـ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه، لاختلاف الناس عليه، وأنَّ هذه الآية قاضية بذلك؛ لأنَّ الله تعالى أخبر عن الْفَيْء وجعله لثلاثِ طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلومون ـ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾. فهي عامَّة في جميع التابعين والآتِيْنَ بعدهم إلى يوم الدين. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحقونَ، ودِدْت أن رأيت إخواننا». قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: «بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ، وأنا فَرَطُهم على

(١) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦ ، وقول مالك أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧ .

الحَوْض». فبيَّن ﷺ أنَّ إخوانهم كلُّ من يأتي بعدهم[١]. لا كما قال السُّدِّيُّ والكَلْبيُّ: إنَّهم الذين هاجروا بعد ذلك[٢]. وعن الحسن أيضاً «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»: مَن قصد إلى النبيِّ ﷺ إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب في موضع الحال[٣]، أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أُمِروا أن يستغفروا لمن سَبَقَ هذه الأمَّة من مؤمني أهل الكتاب. قالت عائشة رضي الله عنها: فأُمِروا أن يستغفروا لهم، فسبُّوهم. الثاني: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار[٤].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمَّد ﷺ، وهو يعلم أنَّهم سَيُفْتَنُونَ. وقالت عائشة: أُمِرْتُم بالاستغفار لأصحاب محمَّد فسببتموهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمَّة حتى يلعنَ آخرُها أوَّلَها»[٥]. وقال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا: لعن الله أشَرَّكم»[٦]. وقال العوَّام بن حَوْشَب: أدركتُ صدر هذه الأمَّة يقولون: اذكروا محاسن أصحابِ رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شَجَر بينهم فتُحرِّشوا[٧] الناس عليهم[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٧ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٩٣) .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ ، وقول عائشة أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٧ (١٨٨٥٦).

(٥) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٣٢١ ، وفي الباب لقوله ﷺ: «حتى يلعن آخرها أولها» عن أويس القرني عن النبي ﷺ قال: «احفظوني في أصحابي، فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها،...» الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٨٧ .

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٦٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦ ، قال الطبراني: لم يروِ هذا الحديث عن عبيد الله إلا سيف، تفرَّد به النضر. وقال الذهبي: رواه الترمذي عن أبي بكر بن نافع، عن العتكي، وقال: هذا منكر.

(٧) في (د) و(م): فتجسَّروا. والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٥٠ ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٢١٥ بتمامه، =

وقال الشعبيُّ: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَن خيرُ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شرُّ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمَّد، أُمِروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجَّتهم. أعاذنا الله وإيَّاكم من الأهواء المضلَّة[١]. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: حِقْداً وحسداً ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

تعجُّبٌ من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنَّهم لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً. ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول، وعبد الله بن نَبْتَل، ورفاعة بن زيد. وقيل: رافعة بن تابوت، وأوْس بن قَيْظِيّ[٢]، كانوا من الأنصار ولكنَّهم نافقوا، وقالوا ليهود قُريظة والنَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. وقيل: هو من قول بني النَّضير لقُرَيْظَة[٣]. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعنون محمَّداً ﷺ، لا نطيعه في قتالكم. وفي هذا دليل على صحَّة نُبُوَّة محمَّدٍ ﷺ من جهة علم الغيب[٤]؛ لأنَّهم أُخرجوا فلم يَخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم[٥]، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

= والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٣٩٨) مختصراً. وفي إسناده: شهاب بن خراش، قال عنه ابن عدي: ولشهاب أحاديث ليست بكثيرة، وفي بعض رواياته ما ينكر عليه....

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١ ، وأخرجه عنه ابن الجوزي في الموضوعات (٤١٣) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٥ عن مجاهد، وذكر فيه: رفاعة، أو رافعة بن تابوت، ودون ذكر: رفاعة بن زيد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٩/ ٢٨٨ ، وقول مجاهد في التفسير ٢/ ٦٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٧ .

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم وفعلهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: منهزمين[1]. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ قيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» طائعين. «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» مكرهين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» لا يدومون على نصرهم. هذا على أنَّ الضميرين متفقان. وقيل: إنَّهما مختلفان، والمعنى: لئن أُخرِج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن نصر اليهودُ المنافقين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: «لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم أنَّهم لا يخرجون إن أُخرجوا. «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم ذلك. ثم قال: «لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ» فأخبر عمَّا قد أخبر أنَّه لا يكون، كيف كان يكون لو كان؟[2] وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: معنى «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن شئنا أن ينصروهم زيَّنَّا ذلك لهم. «لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ».

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشرَ المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً وخشية[3] ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني صدور بني النَّضير. وقيل: في صدور المنافقين[4].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٥، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٤) زاد المسير ٨/ ٢١٧ - ٢١٨، وعزا القول الأول للفراء، والثاني لمقاتل، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٦.

ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين، أي: يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربِّهم ذلك الخوف. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون قَدْرَ عظمة الله وقدرته[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهود[٢] ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: بالحيطان والدُّور، يظنُّون أنَّها تمنعهم منكم. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من خَلْف حيطان يستترون بها؛ لجُبْنِهم ورَهْبَتِهم.

وقراءة العامة: «جُدُرٍ» على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتِم؛ لأنَّها نظير قوله تعالى: «فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ» وذلك جمع. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثِير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو: «جِدَارٍ» على التوحيد[٣]؛ لأنَّ التوحيد يؤدِّي عن الجمع[٤]. وروي عن بعض المكِّيِّين: «جَدْر» بفتح الجيم وإسكان الدال[٥]، وهي لغة في الجدار. ويجوز أن يكون معناه: مِن وراء نخيلهم وشجرهم[٦]، يقال: أَجْدَرَ النخلُ: إذا طلعت رؤوسه في أوَّل الربيع. والجَدْر: نبتٌ، واحدته: جَدْرة[٧]. وقُرِئ: «جُدْر» بضمِّ الجيم وإسكان الدال[٨]، جمع الجدار. ويجوز أن تكون الألف في الواحد، كألف كِتاب، وفي الجمع، كألف ظِراف. ومثله: ناقة هِجَانٌ، ونُوقٌ هجان؛ لأنَّك تقوله في التثنية:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٣) السبعة ص٦٣٢، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن ابن كثير في رواية.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤.

(٨) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحتسب ٢/ ٣١٦، وما بعده منه أيضاً.

هجانان، فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ، مختلفين في المعنى، قاله ابن جِنّيٍّ[١].

قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض. وقال مجاهد: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: بالكلام والوعيد لنفعلنَّ كذا. وقال السُّدِّيُّ: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتّفقوا على أمر واحد[٢]. وقيل: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: إذا لم يلقَوْا عدوّاً نسبوا أنفسهم إلى الشِّدَّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوَّ انهزموا. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني اليهود والمنافقين، قاله مجاهد. وعنه أيضاً: يعني المنافقين. الثوريُّ: هم المشركون وأهل الكتاب. وقال قتادة: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً» أي: مجتمعين على أمر ورأي. «وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» متفرِّقة. فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهلِ الحقِّ. وعن مجاهد أيضاً: أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود[٣]. وهذا ليقوّيَ أنفس المؤمنين عليهم. وقال الشاعر:

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقَّت العَصَا ... هي اليوم شَتَّى وهي أمس جُمَّعُ[٤]

وفي قراءة ابن مسعود: «وقلوبهم أشَتّ»[٥] يعني أشدَّ تشتيتاً، أي: أشدَّ اختلافاً[٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ذلك التشتيت والكفر بأنَّهم لا عقلَ لهم يعقلون به أمر الله[٧].

---

(١) في الخصائص ٢/ ١٠١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٨ .

(٤) القائل: قيس بن الملوّح، وهو في ديوانه ص١٩١ ، والنِّيَّة والنوى جميعاً: البُعد. اللسان (نوي).

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٥٠٨ .

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦ .

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥﴾

قال ابن عباس: يعني به قَيْنُقَاع، أمكن الله منهم قبل بني النَّضير[١]. وقال قتادة: يعني بني النَّضِير، أمكن الله منهم قبل قُرَيظة. مجاهد: يعني كفَّار قريش يوم بدر[٢]. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ من انتقم منه على كفره قبل بني النَّضِير من نوح إلى محمد ﷺ[٣]. ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ جزاءَ كفرهم. ومن قال: هم بنو قُرَيظة، جعل «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقَتْل المقاتلة وسَبْيِ الذُّرِّيَّة. وهو قول الضحَّاك[٤]. ومن قال: المراد بنو النَّضِير قال: «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» الجلاء والنفي. وكان بين النّضير وقُرَيظة سنتان[٥]. وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النَّضير بستَّة أشهر؛ فلذلك قال: «قَرِيباً» وقد قال قوم: غزوة بني النَّضير بعد وقعة أحد[٦]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ هذا ضرب مثلٍ للمنافقين واليهود في تخاذلهم، وعدم الوفاء في نُصْرتهم[٧]. وحَذَف حرف العطف، ولم يقل: وكمثل الشيطان؛ لأنَّ حذف حرف العطف كثير، كما تقول: أنت عاقل، أنت كريم، أنت عالم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٠.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠ بنحوه.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩، وخبر تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، وهو عند أحمد (١١١٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.
(٦) سلف الكلام عليها ص٣٤٠-٣٤١ من هذا الجزء.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: أنَّ الإنسان الذي قال له الشيطان: اكفر، راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها، فزيَّن له الشيطان، فوطئها فحملت، ثم قتلها؛ خوفاً أن يفتضح، فدلَّ الشيطانُ قومَها على موضعها، فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنَّه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرَّأ منه، فأسلمه. ذكره القاضي إسماعيل وعليُّ بنُ المدِيني عن سفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيِّ، عن النبيِّ ﷺ[(١)].

وذكر خبره مطوَّلاً ابنُ عباس ووهب بن مُنَبِّه. ولفظهما مختلف. قال ابن عباس في قوله تعالى: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ»: كان راهب في الفَتْرة يقال له: برصيصا، قد تعبَّد في صَوْمعته سبعين سنة، لم يعصِ الله فيها طَرْفةَ عين، حتى أَعيا إبليسَ، فجمع إبليس مردةَ الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض ـ وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبيَّ ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ـ فقال: أنا أكْفِيكَه. فانطلق فتزيّا بزِيِّ الرهبان، وحَلَق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصِيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ عشرة أيام يوماً، ولا يُفطر إلا في كلِّ عشرة أيام، وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيضُ أنَّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صَوْمعته، فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيضَ قائماً يصلِّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكونَ معك، فأتأدَّب بأدبك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة. فقال: إنِّي في

---

(١) التعريف والإعلام ص١٦٧ ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٦١)، وابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ وفي تلبيس إبليس ص٢٦ من طريق عبد الرحمن بن يونس، عن سفيان بن عيينة، به. ورواية عبيد بن رفاعة عن النبي ﷺ مرسلة. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ عن وهب ابن منبِّه مطوَّلاً، وسيأتي.

شغل عنك. ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة، فلما رأى برصيصا شدَّة اجتهاده وعبادته قال له: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فأرتفعَ إليك. فأَذِنَ له، فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يُفطر إلا في كلِّ أربعين يوماً يوماً واحداً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ أربعين يوماً، وربما مدَّ إلى الثمانين، فلما رأى برصيصا اجتهاده، تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يَشْفِي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون. فعلَّمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم تعرَّض لرجل فخنقه، ثم قال لأهله ـ وقد تصوَّر في صورة الآدميين ـ: إنَّ بصاحبكم جنوناً أفأطِبّه؟ قالوا: نعم. فقال: لا أقوى على جِنِّيَّته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإنَّ عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، فجاؤوه، فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان. ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك، ويرشدهم إلى برصيصا فيعافَوْن. فانطلق إلى جارية من بناتِ الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه، وكان عمُّها مَلِكاً في بني إسرائيل، فعذَّبها وخنقها، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبِّب ليعالجها فقال: إنَّ شيطانها مارد لا يطاق، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت. فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا. قال: فابْنُوا صومعةً في جانب صومعته، ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك، فأبى، فبنَوْا صومعةً، ووضعوا فيها الجارية، فلما انفتل من صلاته عاينَ الجاريةَ وما بها من الجمال، فَأسْقِط في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكان يكشف عنها ويتعرَّض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: وَيْحَكَ! واقِعْها، فما تجد مثلَها ثم تتوب بعد ذلك. فلم يزل به حتى واقعها، فحملت وظهر حَمْلها. فقال له الشيطان: ويحكَ! قد افتُضحتَ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوبَ؛ فلا تفتضح، فإن جاؤوك، سألوك فقل: جاءها شيطانها، فذهب بها. فقتلها برصيصا ودفنها ليلاً، فأخذ الشيطان طَرف ثوبها

حتى بقي خارجاً من التراب، ورجع برصيصا إلى صلاته. ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال: إنَّ برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلها ودفنها في جبل كذا وكذا، فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها. فصدَّقوه وانصرفوا. ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنَّها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإنَّ طرف ردائها خارج من التراب، فانطلَقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه، فأَمَرَ بقتله. فلما صُلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال: لا والله! قال: أنا صاحبك الذي علَّمتك الدعوات، أما اتقيتَ الله، أما استحييتَ وأنت أعبد بني إسرائيل! ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحتَ نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس! فإن متَّ على هذه الحالة، لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم، وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال: تسجد لي سجدةً واحدة، فقال: أنا أفعل. فسجد له من دون الله. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربِّك، إنِّي بريء منك، إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين(١).

وقال وهب بن منَبِّه. إنَّ عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبدِ أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بِكراً، ليست لهم أخت غيرها، فخرج البعثُ على ثلاثتهم، فلم يَدْروا عند من يخلِّفون أختهم، ولا عند من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال: فاجتمع رأيهم على أن يخلِّفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقةً في أنفسهم، فأَتَوْه فسألوه أن يخلِّفوها عنده، فتكون في كَنَفه وجواره إلى أن يقفلوا من غَزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوَّذ بالله منهم ومن أختهم. قال: فلم يزالوا به

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣٢٢ - ٣٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٤٨ (١٨٨٦٠)، وأخرجه الطبري ٢٢/٥٤٣ عن محمد بن سعد، عن أبيه، عن عمِّه، عن أبيه، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والراوي عن ابن عباس عطية بن سعد العوفي ومن قبله من رجال الإسناد ضعفاء، وأخرجه أيضاً الخرائطي في اعتلال القلوب ص١١٥ - ١١٦ بإسناد آخر عن ابن عباس، وبنحوه مختصراً.

حتى أطاعهم[1] فقال: أنزلوها في بيتٍ حِذاءَ صَوْمعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً، يُنزِل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يُغلِق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطَّف له الشيطان فلم يزل يرغِّبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوِّفه أن يراها أحد فيعلقها. قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظمَ لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، وقال: لو كنتَ تكلِّمها وتحدِّثها فتأنس بحديثك، فإنَّها قد استوحشت وحشةً شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زماناً، يطَّلع عليها من فوق صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنتَ تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدِّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدِّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدِّثها، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدَّثان، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريباً من باب بيتها، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير، وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوتَ من باب بيتها فحدَّثتها ولم تَخرج من بيتها. ففعل، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدِّثها. فلبثا بذلك حيناً،

(١) في النسخ: أطعمهم. والمثبت من المنتظم لابن الجوزي ٢/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام منه بإسناده عن وهب بن منبِّه.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٥، والطبري ٢٢/ ٥٤١، والحاكم ٢/ ٤٨٢ عن علي بن أبي طالب بنحوه مختصراً، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٥٤٢ عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مختصراً.

ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلتَ البيت معها تحدِّثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد، كان أحسنَ بك. فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يُحدِّثها نهارَه كلَّه، فإذا أمسى صعد في صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزيِّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقَبَّلها. فلم يزل به إبليس يحسِّنها في عينه، ويسوِّل له حتى وقع عليها، فأحبلها، فولدت له غلاماً. فجاءه إبليس فقال له: أرأيتَ إن جاء إخوة هذه الجارية وقد وَلدتْ منك! كيف تصنعُ؟! لا آمنُ عليك أن تُفتضَح أو يفضحوك! فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه؛ فإنَّها ستكتم عليكَ؛ مخافةَ إخوتها أن يطَّلعوا على ما صنعتَ بها، ففعل. فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحَفِيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرةً عظيمة، وسوَّى عليها التراب، وصعد في صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها، فنعاها لهم وترحَّم عليها، وبكى لهم وقال: كانت خيرَ أمَة، وهذا قبرها فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحَّموا عليها، وأقاموا على قبرها أيَّاماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، أتاهم الشيطان في النوم في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذَّبه الشيطان وقال: لم يَصْدُقْكم أمْرَ أختكم، إنَّه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه؛ فزعاً منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خَلْفَ الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانْطَلِقوا فادخلوا البيتَ الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنَّكم ستجدونهما هنالك جميعاً كما أخبرتكم. قال: وأتى الأوسطَ في منامه، وقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرَهم فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم، استيقظوا متعجِّبين لما رأى كلُّ واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض، يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى. قال أكبرهم: هذا حُلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودَعُوا هذا. قال أصغرهم: لا

أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنه العابد، فصدَّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستعدَوْا عليه مَلِكَهم، فأُنزِل من صومعته فقدَّموه لِيُصْلَب، فلما أَوثقوه[1] على الخشبة أتَاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنِّي صاحبك الذي فتنتُك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها، فإن أنتَ أطعتني اليوم، وكفرتَ بالله الذي خلقك، خلَّصتك مما أنتَ فيه. قال: فكفر العابد بالله، فلما كفر، خلَّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ» إلى قوله: «جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

قال ابن عباس: فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود. وذلك أن الله تعالى أمر نبيَّه عليه السلام أن يُجْلي بني النَّضِير من المدينة، فَدَسَّ إليهم المنافقون ألَّا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنَّا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبيَّ ﷺ، فخذلهم المنافقون، وتبرَّؤوا منهم كما تبرَّأ الشيطان من بَرْصِيصَا العابد. فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتَّقِيَّة والكتمان. وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرموهم بالبُهتان والقبيح، حتى كان أمر جُريج الراهب، وبرَّأه الله، فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس[2].

وقيل: المعنى: مَثَلُ المنافقين في غدرهم[3] لبني النَّضِير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[4] الآية [٤٨ من

---

(١) في (م): أوقفوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٥ ، واتقيت الشيء تقيَّة: حذرته. اللسان (وقي)، وخبر جريج سلف تخريجه ٥/ ١٣٩ .

(٣) في (د): وعدهم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٨ .

سورة الأنفال]. وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إيَّاهم(١).

ومعنى قوله تعالى: «إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ» أي: أغواه حتى قال: إنِّي كافر. وليس قول الشيطان: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» حقيقة، إنَّما هو على وجه التبرُّؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ».

وفتح الياء من «إنِّي» نافع وابن كثير وأبو عمرو. وأسكن الباقون(٢). ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَآ﴾ نصب على الحال. والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان. ومن جعلها في الجنس، فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين. ونصب «عَاقِبَتَهُمَا» على أنَّه خبر «كان»، والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ»، وقرأ الحسن: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا» بالرفع(٣)، على الضدِّ من ذلك. وقرأ الأعمش: «خَالِدَانِ فِيهَا» بالرفع(٤)، وذلك خلاف المرسوم. ورفعه على أنَّه خبر «أنَّ» والظرف ملغى(٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: يوم القيامة(٦). والعرب تكني عن المستقبل بالغدِ. وقيل: ذِكْر الغدِ؛ تنبيهاً على أنَّ الساعة قريبة، كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٢) السبعة ص٦٣٢، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠١، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٥) المشكل لمكي ٢/ ٧٢٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٢.

وإنَّ غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب[١]

وقال الحسن وقتادة: قرَّب الساعة حتى جعلها كغَدٍ. ولا شكَّ أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ[٢]، والموت لا محالة آتٍ. ومعنى «ما قَدَّمت» يعني: من خير أو شرٍّ[٣]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا؛ تكريراً، كقولك: اعجل اعجل، إرْم إرْم. وقيل: التقوى الأولى: التوبة فيما مضى من الذنوب. والثانية: اتِّقاء المعاصي في المستقبل. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي: بما يكون منكم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيراً، قاله ابن حبَّان. وقيل: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقَّ أنفسهم، قاله سفيان. وقيل: «نَسُوا اللهَ» بترك شكره وتعظيمه. «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً، حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله: «نَسُوا اللهَ» عند الذنوب «فَأَنْسَاهُم أَنفُسَهُمْ» عند التوبة[٥].

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في «أَنْسَاهُمْ» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه. وقيل: معناه: وجدهم تاركين أمره ونهيه، كقولك: أحمدت الرجل: إذا وجدته محموداً. وقيل: «نَسُوا اللهَ» في الرخاء «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» في الشدائد.

---

(١) هذا عجز بيت أورده ابن حبان في روضة العقلاء ص٢٧، ولم ينسبه، وصدره هكذا:

ألـم تَـرَ أن الـيـوم أسـرع ذاهـب

والبيت ذكره ضمن أبيات لم ينسبها، وهي لأبي العتاهية في ديوانه ص٢١، دون ذكر البيت الآنف الذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١١، وقول سفيان أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٤٨.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون. وقال ابن زيد: الكاذبون[١]. وأصل الفسق: الخروج، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ أي: في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: المقرَّبون المكرَّمون. وقيل: الناجون من النار[٢]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «المائدة»[٣] عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية:١٠٠] وفي سورة «السجدة»[٤] عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [الآية:١٨] وفي سورة «صۤ»[٥]: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [الآية:٢٨] فلا معنى للإعادة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حثٌّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنَّه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدِّعةً، أي: متشقِّقةً من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدِّع: المتشقِّق[٦]. وقيل: «خَاشِعاً» لله بما كلَّفه من طاعته. «مُتَصَدِّعاً» من خشية الله أن يعصيَه فيعاقبه. وقيل:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٣) ٨/ ٢٢٥ -٢٢٦ .

(٤) ١٧/ ٣٧ .

(٥) ١٨/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .

هو على وجه المَثَل للكفار[١].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: إنَّه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لخشع لوعده، وتصدَّع لوعيده، وأنتم أيُّها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده؟! وقيل: الخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمَّد على جبل لما ثبت، وتصدَّع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبَّتْناك له، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبَّته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنَّه خطاب للأمَّة، وأنَّ الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدَّعت من خشية الله. والإنسان أقلّ قوَّة وأكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقِّه إن أطاع، ويقدر على ردِّه إن عصى؛ لأنَّه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قال ابن عباس: عالم السِّرِّ والعلانية. وقيل: ما كان وما يكون. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا[٣]. وقيل: «الْغَيْبِ» ما لم يَعْلَم العباد ولا عاينوه. «وَالشَّهَادَةِ» ما عَلموا وشاهدوا[٤]. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزَّه عن كلِّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٢.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٢.
(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.
(٥) ١/ ١٥٩ - ١٦٠.

نقص، والطاهر عن كلِّ عيب. والقَدَس ـ بالتحريك ـ: السَّطْل، بلغة أهل الحجاز؛ لأنَّه يتطهَّر به. ومنه القادوس: لواحد الأواني التي يُستخرج بها الماء من البئر بالسانِية(١). وكان سِيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح، بفتح أوَّلهما. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنَّه سمع عند الكسائيِّ أعرابيّاً فصيحاً يُكْنَى أبا الدينار يقرأ: «القَدُّوس» بفتح القاف(٢). قال ثعلب: كلُّ اسم على فَعُّول، فهو مفتوح الأوَّل، مثل سَفُّود وكَلُّوب وتَنُّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبُّوح والقُدُّوس فإنَّ الضمَّ فيهما أكثر، وقد يفتحان. وكذلك الذُّرُّوح ـ بالضمِّ ـ وقد يفتح(٣).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيِّ: اتَّفق العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ على أنَّ معنى قولنا في الله «السَّلَامُ»: النسبة، تقديره: ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأوَّل: معناه الذي سلِم من كلِّ عيب، وبَرِئ من كلِّ نقص. الثاني: معناه ذو السلام، أي: المسلِّم على عباده في الجنَّة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. الثالث: أنَّ معناه الذي سلم الخَلْقُ من ظلمه(٤).

قلت: وهذا قول الخطابي، وعليه ـ والذي قبله ـ يكون صفةَ فعل. وعلى أنَّه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه: المسلِّم لعباده(٥).

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدِّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدِّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب(٦). وقيل: «المؤمن»

---

(١) الأسنى ص٢٢٩، وما بعده منه أيضاً، والسانية: الناضحة، وهي الناقة التي يُستقى عليها. اللسان (سنا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٤ بنحوه.

(٣) الأسنى ص٢٢٩، والسَّفُّود: حديدة يشوى به اللحم. والكلُّوب بمعناه. والسَّمُّور: دابة معروفة تسوَّى من جلودها فِراء غالية الأثمان. والشبُّوط: ضرب من السمك. والذرُّوح: دُوَيْبَّة أعظم من الذباب شيئاً. اللسان (سفد) و(كلب) و(سمر) و(شبط) و(ذرح) على الترتيب.

(٤) الأسنى ص٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) الأسنى ص٢١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٦.

الذي يؤمِّن أولياءه من عذابه[١]، ويؤمِّن عباده من ظلمه[٢]، يقال: آمنه، من الأمان الذي هو ضدُّ الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤] فهو مؤمن، قال النابغة:

والمُؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّنَدِ[٣]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وَحَّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [آل عمران:١٨]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأوَّل من يخرج من وافق اسمُه اسمَ نبيٍّ، حتى إذا لم يَبْقَ فيها من يوافق اسمه اسمَ نبيٍّ، قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيُخرجهم من النار؛ ببركة هذين الاسمين[٥]. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقدَّم الكلام في المهيمن في «المائدة»[٦]، وفي «العزيز» في غير موضع[٧]. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس: هو العظيم. وجبروت الله: عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات[٨]، من قولهم: نخلة جَبَّارة. قال امرؤ القيس:

سوامق جبَّار أثِيثٍ فروعُه وعالَيْنَ قِنْواناً من البُسْر أحْمرا[٩]

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) ديوان النابغة ص٣٥، إلا أنه ورد فيه: والسعد، بدل: والسند. قال في زهر الأكم لليوسي ١/ ٨٠: وأراد بالعائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة. أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغيل والسعد: أَجَمتان بين مكة والمدينة. والمعنى: أي: أقسم بالله تعالى الذي أمَّن الطير العائذات أن تصاد أو أن تؤخذ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ دون نسبة.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ٨/ ٣٥.

(٧) ٢/ ٤٠٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٩) الأسنى ص٣٧٦ - ٣٧٧، والبيت في شرح ديوان امرئ القيس ص٥٧، قال شارحه: والسوامق: النخل المرتفعات الطوال. والجبَّار: الذي قد فات اليدَ لطوله. والأثيث: الغزير. وعالين قنواناً: أي =

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ.

فكان هذا الاسم يدلُّ على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث. وقيل: هو من الجَبْر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبَر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعَّال من جبر، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير[١]. وقال الفرَّاء: هو من أَجبره على الأمر، أي: قهره. قال: ولم أسمع فعَّالاً من أفعل إلا في جبَّار، ودرَّاك من أدرك. وقيل: الجبَّار لذي لا تُطاق سطوته.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ الذي تكبَّر بربوبيَّته فلا شيء مثله. وقيل: المتكبِّر عن كلِّ سوء، المتعظِّم عمَّا لا يليق به من صفات الحدث والذَّمِّ. وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلَّة الانقياد[٢]. وقال حميد بن ثور:

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأَصبحتْ ... بها كبرياءُ الصَّعْبِ وهي ذلولُ[٣]

والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمٌّ[٤]. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما، قصمته، ثم قذفته في النار»[٥]. وقيل: المتكبِّر، معناه: العالي. وقيل: معناه: الكبير؛ لأنَّه أَجَلُّ من أن

= قد أدرك هذا النخل وأينع فتمايلت عروقه، وإنما قصد تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من ألوان.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي ص٥٨، إلا أنه ورد فيه: الطليح، بدل: الفصيل.وركوب، بدل: ذلول. وعفت الأرض: غطَّاها النبات.وعفا البعير: سمن وكثر شعر ظهره وطال حتى غطى دبره. والطليح: البعير المهزول المعيي. القاموس المحيط (عفا) و(طلح).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٤.

(٥) أخرجه أحمد (٩٣٥٩) دون ذكر لفظة: قصمته. وهي عند الحاكم ١/ ٦١ بلفظ: الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما أخرجه مسلم [٢٦٢٠] من طريق الأغر، عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ. وقال الذهبي: أخرجه مسلم من حديث الأغر، عن أبي هريرة [وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني، عَذَّبته] بنحو منه. اهـ.

يتكلَّف كبراً. وقد يقال: تظلَّم بمعنى ظلم، وتشتَّم بمعنى شتم[١]، واستقرَّ بمعنى قرَّ. كذلك المتكبِّر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق، إذا وصف بتفعَّل إذا نسب إلى ما لم يكن منه.

ثم نزَّه نفسه فقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لجلالته وعظمته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ «الْخَالِقُ» هنا المقدِّر. و«الْبَارِئُ» المنشئ المخترع[٢]. و«الْمُصَوِّرُ» مصوِّر الصور ومركِّبها على هيئات مختلفة[٣]. فالتصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لهما. ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويتميَّز عن غيره بِسمتها. فتبارك الله أحسن الخالقين[٤]. وقال النابغة[٥]:

الخالق البارئ المصوِّر في الـ أَرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخَلْق بمعنى التصوير[٦]، وليس كذلك، وإنَّما التصوير آخِراً، والتقدير أوّلاً، والبراية بينهما. ومنه قوله الحقّ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال زُهير:

ولأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْري[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٧٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٤.
(٣) الأسنى ص٣٤٩.
(٤) الأسنى ص٣٥٠.
(٥) وهو: الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٣٣.
(٦) وهما ابن العربي وابن الحصار كما ذكر ذلك القرطبي في الأسنى ص٣٣٦، والكلام منه.
(٧) سلف ١/ ٣٤١.

يقول: تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه، أي: تُمضيه على وَفْق تقديرك، وغيرك يقدِّر ما لا يتمُّ له ولا يقع فيه مراده؛ إمَّا لقصوره في تصوُّر تقديره، أو لعجزه عن تمام مراده. وقد أتينا على هذا كلِّه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(١)] والحمد لله.

وعن حاطب بن أبي بَلْتَعَة أنَّه قرأ: «البارئ المصوَّرَ» بفتح الواو ونصب الراء، أي: الذي يُبرِئُ المصوَّر، أي: يميِّز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات. ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[(٢)].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم الكلام فيه[(٣)].

وعن أبي هريرة قال: سألتُ خليلي أبا القاسم رسولَ الله ﷺ عن اسم اللهِ الأعظم فقال: «يا أبا هريرة، عليك بآخرِ سورة الحشر فأَكْثِر قراءَتها» فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ[(٤)]. وقال جابر بن زيد: إنَّ اسم الله الأعظم هو الله؛ لمكان هذه الآية[(٥)]. وعن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[(٦)]. وعن أبي أُمامة قال: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار، فقبضه اللهُ في تلك الليلة أو ذلك اليوم، فقد أَوجب الله له الجنَّة»[(٧)].

---

(١) ص٣٣٦ وما بعدها.

(٢) في الكشاف ٤/ ٨٧ - ٨٨ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ عن اليماني.

(٣) ١/ ٤٢٨ و٢/ ٤٠٣ و١٣/ ٨٩ .

(٤) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٧ من رواية علي بن رزيق، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، به، وعلي بن رزيق: ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٤/ ٥٣ وقال: المقرئ المصري، يروي عن ابن لهيعة، روى عنه حرملة بن يحيى. اهـ. وهشام ابن سعد هو أبو عباد المدني، صدوق له أوهام. التهذيب.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٠٩ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣ ، والطبري ٢٢/ ٥٥٥ .

(٦) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٧ من رواية يزيد بن أبان، عن أنس، به، ويزيد بن أبان هو: أبو عمرو الرَّقَاشي القاصُّ، زاهد ضعيف. التهذيب.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠١)، والقزويني في التدوين ٤/ ٢٦ من طريق محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، به.

قال البيهقي: تفرَّد به سليم بن عثمان هذا عن محمد بن زياد. اهـ. قلنا: وسُلَيْم بن عثمان هو: الفوزي الحمصي، متَّهم واهٍ. المغني في الضعفاء ١/ ٢٨٤ .

سُورَةُ الحَشْرِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها أربعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ صالحَ بني النَّضيرِ على أَنْ لا يكونوا له ولا عليهِ، فلَمَّا ظهرَ يومَ بَدرٍ قالوا: إنَّه النَّبيُّ المَنعوتُ في التَّوراةِ بالنُّصرةِ، فلمَّا هُزِمَ المُسلمونَ يومَ أحدٍ ارتابوا ونكثوا وخرجَ كعبُ بنُ الأشرفِ في أربعينَ راكبًا إلى مكَّةَ وحالَفُوا أبا سُفيانَ، فأمرَ رسولُ اللهِ أخا كعبٍ مِن الرَّضاعةِ فقتلَهُ غِيلةً ثمَّ صبَّحَهُم بالكتائبِ وحاصرَهُم حتى صالَحُوه على الجَلاءِ، فجَلَا[1] أكثرُهُم إلى الشَّامِ ولَحِقَت طائفةٌ بخيبرَ والحِيرةِ فأنزلَ اللهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

(٢) ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أوَّلِ حشرِهم من جزيرةِ العربِ؛ إذ لم يُصِبْهم هذا الذلُّ قبلَ ذلك.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فجلوا».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٦/ ١٧٩)، وانظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص: ٣١٧)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (١/ ٢١٤).

أو في أولِ حشرِهم للقتالِ أو الجَلاءِ إلى الشَّام، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ إيَّاهم من خيبرَ إليه[(١)].

أو في أوَّلِ حشرِ النَّاسِ إلى الشَّامِ وآخرِ حَشرِهم؛ فإنَّهُم يُحشَرونَ إليه عندَ قيامِ السَّاعةِ فيدركُهُم هناك، أو أنَّ نارًا تخرجُ مِن المشرقِ فتَحشُرُهم إلى المغربِ.

والحشرُ: إخراجُ جمعٍ مِن مَكانٍ إلى آخرَ.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشِدَّةِ بَأسِهم ومَنَعتِهم.

﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ حُصونَهُم تمنَعُهم مِن بأسِ اللهِ، وتغييرُ النَّظمِ وتَقديمُ الخبرِ وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِ (هم) للدَّلالةِ على فرطِ وُثوقِهم بحَصانَتِها واعتِقادِهم في أنفُسِهم أنَّهم في عزَّةٍ ومَنعةٍ بسببِها، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿حُصُونُهُم﴾ فاعلًا لـ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: عذابُه، وهو الرُّعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ.

وقيل: الضَّميرُ للمُؤمنينَ؛ أي: فأتاهُم نصرُ اللهِ.

وقُرِئَ: (فآتاهم)[(٢)] أي: العذابَ أو النَّصرَ.

﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوَّةِ وُثوقِهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وأثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعِبُها؛ أي: يملؤُها.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًّا بها على المسلمينَ وإخراجًا لِمَا استحسَنُوا مِن آلاتِها.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّهُم أيضًا كانوا يُخربونَ ظواهِرَها نكايةً وتوسيعًا لِمَجالِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ١٨٦) عن مرة الهمداني

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٣٨)، و«الكشاف» (٩/ ٤٠).

القتالِ، وعطفُها على (أيديهم) مِن حيثُ إنَّ تخريبَ المؤمنينَ مُسبَّبٌ عَن نقضِهم، فكأنَّهُم استعملوهُم فيه، والجملةُ حالٌ أو تفسيرٌ لـ﴿ٱلرُّعْبَ﴾.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿يخرِّبونَ﴾ بالتَّشديدِ[1]، وهو أبلَغُ لِمَا فيه مِن التَّكثيرِ.

وقيل: الإخرابُ: التَّعطيلُ أو تركُ الشَّيءِ خَرابًا، والتَّخريبُ الهَدمُ.

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فاتَّعِظُوا بحالهم فلا تَغدُروا ولا تعتَمِدُوا على[2] غيرِ اللهِ، واستُدِلَّ به على أنَّ القِياسَ حُجَّةٌ مِن حيثُ إنَّه أمرٌ بالمجاوزةِ مِن حالٍ إلى حالٍ، وحملِها[3] عليها في حُكمٍ لِمَا بينَهُما مِن المشاركةِ المُقتضيَةِ له على ما قرَّرْناهُ في الكتبِ الأُصوليَّةِ.

(٣) - ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ الخروجَ مِن أوطانِهم ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتلِ والسَّبي كما فُعل ببَنِي قُرَيظةَ.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئنافٌ معناه: أنَّهُم إن نَجوا مِن عذابِ الدُّنيا لم يَنْجوا مِن عذابِ الآخرةِ.

(٤) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكرَ مما حاقَ بهم، وما كانوا بصَددِهِ، وما هو مُعَدٌّ لهم، أو إلى الأخيرِ.

(٥) - ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أيَّ شيءٍ قَطَعتُم مِن نخلةٍ، فِعْلَةٌ مِن اللونِ، ويُجمعُ على ألوانٍ.

وقيل: من اللِّينِ، ومعناها: النَّخلةُ الكريمةُ، وجمعها أَلْيَان.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «شيء».

(٣) قوله: «وحملها» بالجر عطف على «بالمجاوزة»، والضمير لـ(حال) الثانية، وقوله: «عليها» الضمير لـ(حال) الأولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضَّميرُ لـ(ما)، وتأنيثُها لأنَّها مُفسَّرةٌ باللِّينةِ.

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وقُرِئَ: (أُصُلِها) اكتفاءً بالضمَّةِ عن الواوِ[١]، أو على أنَّه كـ﴿رُهُنٌ﴾.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمرِه ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عِلَّةٌ لِمَحذوفٍ؛ أي: وفعلْتُم، أو وأَذِنَ لكم في القطعِ ليُخزِيَهُم على فسقِهِم بما غاظَهُم منه.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا أمرَ بقَطعِ نَخيلِهِم قالوا: يا محمَّدُ! قد كنتَ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ، فما بالُ قطعِ النَّخلِ وتَحريقِها؟ فنزلَتْ[٢].

واستُدلَّ به على جوازِ هدمِ ديارِ الكفَّارِ وقطعِ أشجارِهِم زيادةً لغيظِهِم.

(٦) ـ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وما أعادَهُ عليه، بمَعنى: صيَّرَه له أو ردَّهُ عليه، فإنَّه كانَ حقيقًا بأن يكونَ له لأنَّه تعالى خلقَ النَّاسَ لِعبادَتِه وخلقَ ما خلقَ لَهُم ليتوسَّلُوا به إلى طاعَتِه، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمُطيعينَ.

﴿مِنْهُمْ﴾ مِن بني النَّضيرِ أو مِن الكفرةِ.

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فما أجريتُمْ على تحصيلِه، مِن الوَجيفِ، وهو سرعةُ السَّيرِ.

﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يُركبُ مِن الإبلِ، غلبَ فيه كما غلبَ الراكبُ على راكبِه، وذلك إن كانَ المرادُ فيءَ بني النَّضيرِ فلأنَّ قُراهُم كانَتْ على مِيلَيْنِ مِن المدينةِ

(١) انظر: «الكشاف» (٩/ ٤٢)، و«البحر» (٢٠/ ٢٦٩) دون نسبة.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٩١)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥١٠)، وانظر: «تخريج الأحاديث والآثار» للزيلعي (٢/ ٤٢٨)، وفيه: ورواه ابن مردويه في «تفسيره» من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره. وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص: ٤٧٩) عن الكلبي: متهم بالكذب.

فمَشَوا إليها رجالًا غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّه ركبَ جَمَلًا أو حِمَارًا، ولم يجرِ مزيدُ قتالٍ، ولذلك لم يُعطِ الأنصارَ مِنه شيئًا إلا ثلاثةً كانَتْ بهم حاجةٌ[١].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بقذفِ الرُّعبِ في قُلوبِهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يريدُ تارةً بالوسائطِ الظَّاهرةِ وتارةً بغيرِها.

(٧) - ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيانٌ للأوَّلِ، ولذلك لم يُعطَف عليهِ.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ اختُلِفَ في قسمِ الفيءِ فقيل: يُسدَّسُ لظاهرِ الآيةِ ويُصرَف سهمُ اللهِ في عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجدِ.

وقيل: يخمّسُ لأنَّ ذكرَ اللهِ تَعالى للتَّعظيمِ، ويُصرَفُ الآنَ سهمُ الرَّسولِ إلى الإمامِ على قولٍ، وإلى العساكرِ والثغورِ على قولٍ، وإلى مَصالحِ المسلمينَ على قولٍ.

وقيل: يخمَّسُ خمسُهُ كالغنيمةِ فإنَّه عليهِ السَّلامُ كان يقسمُ الخمسَ كذلك، ويَصرفُ الأخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ، والآن على الخلافِ المذكورِ.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيءُ الذي حقُّهُ أن يكونَ للفُقراءِ.

﴿دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ الدُّولةُ: ما يَتداوَلُه الأغنياءُ ويَدورُ بينَهُم كما كانَ في الجاهليَّةِ.

وقُرِئَ: (دَوْلَةً)[٢]، بمعنى: كيلا يكونَ الفيءُ ذا تَداوُلٍ بينَهُم، أو أَخْذُهُ غَلَبَةً تكونُ بينَهُم، و﴿دُولةٌ﴾[٣] بالرَّفعِ على كانَ التَّامَّةِ؛ أي: كيلا يقعَ دولةٌ جاهليَّةٌ.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وما أعطاكُم مِن الفيءِ أو من الأمرِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٢٠٢)، والثلاثة هم: أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة، انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٥/ ٥٠٣).

(٢) وهي قراءة علي والسلمي وابن عامر في غير المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٤).

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٦).

﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنَّه حلالٌ لَكُم، أو فتمسَّكُوا به لأنه واجبُ الطَّاعةِ.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذِه منه أو عن إتيانِه.

﴿فَانتَهُوا﴾ عنه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مُخالفةِ رسولِه.

﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَن خالفَ.

(٨) ـ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدلٌ مِن ﴿لذي الْقُرْبَىٰ﴾ وما عُطِفَ عليه، فإنَّ الرَّسولَ لا يُسمَّى فقيرًا، ومَن أعطى أغنياءَ ذوي القُربى خصَّصَ الإبدالَ بما بعدَهُ، أو الفيءَ بفيءِ بني النَّضيرِ.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ فإنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أخرجُوهم وأَخذوا أموالَهُم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ حالٌ مُقيِّدةٌ لإخراجِهم بما يوجِبُ تفخيمَ شأنِهم.

﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأنفُسِهم وأموالِهم.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين ظهرَ صِدقُهُم في إيمانِهم.

(٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ عطفٌ على ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾، والمرادُ بهم الأنصارُ فإنَّهم لَزِموا المدينةَ والإيمانَ وتمكَّنوا فيهما.

وقيل: المعنى: تبوَّؤا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ، فحُذِفَ المضافُ مِن الثَّاني والمضافُ إليه مِن الأوَّلِ وعُوِّضَ عنه اللامُ، أو تبوَّؤا الدَّارَ وأخلَصُوا الإيمانَ كقولِه:

علفتُــه تبنًــا ومــاءً بــاردًا[1]

---

(١) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دبير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤) و(٣/ ١٢٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حتَّـى شَـتَتْ هَمَّالَـةً عَيْناهَـا

وقد تقدم غير مرة.

وقيل: سمَّى المدينةَ بالإيمانِ؛ لأنَّها مَظهَرُه ومَصِيرُه.

﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من قبلِ هجرةِ المهاجرينَ، وقيل: تقديرُ الكلامِ: والذين تبوَّؤا الدَّارَ مِن قبلِهم والإيمانَ.

﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ ولا يثقلُ عليهِم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ﴾ في أنفُسِهم ﴿حَاجَةٗ﴾ ما تحملُ عليه الحاجةُ، كالطَّلبِ والحزازةِ والحسدِ والغيظِ.

﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ مما أُعطِيَ المهاجرونَ من الفيءِ وغيرِه.

﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ويقدمونَ المُهاجرينَ على أنفُسِهم، حتى إنَّ مَن كانَ عندَهُ امرأتانِ نزلَ عَن واحدةٍ وزوَّجَها مِن أَحدِهِم.

﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ حاجةٌ؛ مِن خَصَاص البناءِ، وهي فُروجُه.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ حتَّى يُخالِفَها فيما يغلبُ عليها مِن حبِّ المالِ وبُغضِ الإنفاقِ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزونَ بالثَّناءِ العاجلِ والثَّوابِ الآجلِ.

(١٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم الذين هاجروا بعدُ حينَ قَوِيَ الإسلامُ، أو التَّابعون بإحسانٍ وهم المؤمنونَ بعدَ الفَريقينِ إلى يومِ القيامةِ، ولذلك قيل: إنَّ الآيةَ قد استوعبَتْ جميعَ المؤمنينَ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: لإخوانِنا في الدِّينِ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حِقدًا لهم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ فحقيقٌ بأن تُجيبَ دُعاءَنا.

(١١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريدُ الذينَ بينَهُم وبينَهُم أخوَّةُ الكفرِ أو الصَّداقةُ والموالاةُ.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ مِن ديارِكُم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالِكُم أو خِذلانكُم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: مِن رسولِ اللهِ والمُسلمينَ[1].

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ لنُعاونَنَّكُم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لعلمِهِ بأَنَّهُم لا يفعلونَ ذلك كما قال:

(١٢) ـ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك، فإنَّ ابنَ أُبيٍّ وأصحابَه راسلوا بني النَّضيرِ بذلك ثمَّ أخلَفُوهم، وفيه دليلٌ على صحَّةِ النبوَّةِ وإعجازِ القُرآنِ.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرضِ والتَّقديرِ ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ انهزامًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بعدُ، بل يخذلُهم ولا يَنفعُهم نصرةُ المنافقينَ أو نفاقُهُم؛ إذ ضميرُ الفعلينِ يحتملُ أن يكونَ لليهودِ وأن يكونَ للمُنافقينَ.

(١٣) ـ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مَرهوبيَّةً، مصدرٌ للفعلِ المبني للمَفعولِ.

﴿فِى صُدُورِهِم﴾ فإنَّهُم كانوا يُضمرونَ مَخافتَهُم مِن المؤمنين.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على ما يُظهرونَه نفاقًا، فإنَّ استبطانَ رهبَتِكُم سببٌ لإظهارِ رهبةِ اللهِ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمونَ عظمةَ اللهِ حتَّى يَخشَوْنَهُ حقَّ خشيتِه ويعلمون أنَّه الحقيقُ بأَنْ يُخشى.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والمؤمنين».

(١٤) ـ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ اليهودُ والمنافقونَ ﴿جَمِيعًا﴾ مُجتمعين ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدُّروبِ والخَنادقِ ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ لفرطِ رَهبَتِهم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ﴿جدار﴾ وأمالَ أبو عمرٍو فتحةَ الدَّالِ[1].

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: وليسَ ذلك لضَعفِهم وجُبنِهم، فإنَّه يشتدُّ بأسُهُم إذا حاربَ بعضُهُم بعضًا، بل لقذفِ اللهِ الرُّعبَ في قلوبِهم، ولأنَّ الشُّجاعَ يَجبُنُ والعزيزَ يَذِلُّ إذا حاربَ اللهَ ورسولَه.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعينَ مُتَّفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقةٌ لافتراقِ عَقائدِهم واختلافِ مَقاصِدِهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحُهُم وأنَّ تَشتُّتَ القلوبِ يُوهِنُ قُواهُم.

(١٥) ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مَثَلُ اليَهودِ كمثَلِ أهلِ بدرٍ أو بني قَينُقاع إن صحَّ أنَّهُم أُخرجوا قبلَ النَّضيرِ، أو المهلَكينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

﴿قَرِيبًا﴾ في زمانٍ قريبٍ، وانتصابُه بـ(مَثَلِ) إذ التَّقديرُ كوجودِ مَثَلٍ.

﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبةِ كفرِهم في الدُّنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

(١٦) ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مَثَلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهودِ على القتالِ كمَثَلِ الشَّيطانِ.

﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراهُ على الكفرِ إغراءَ الآمرِ المأمورَ.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ تبرَّأَ عنه مخافةَ أن يُشارِكَه في العذابِ ولم ينفعْه ذلك كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٩).

(١٧) ـ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمرادُ مِن الإنسانِ الجنسُ.

وقيل: أبو جهلٍ، قال له إبليسُ يومَ بدرٍ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

وقيل: راهبٌ حملَهُ على الفجورِ والارتدادِ.

وقُرِئَ: (عاقبَتُهما)[١]، و(خالدانِ)[٢] على أنَّهما الخبرانِ لـ(كان) و(أنَّ)، و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لغوٌ.

(١٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليومِ القيامةِ، سمَّاه به لدُنوِّه، أو لأنَّ الدُّنيا كيومٍ والآخرةُ غدُه، وتنكيرُه للتَّعظيمِ، وأما تنكيرُ النَّفسِ فلاستقلالِ الأنفُسِ النَّواظرِ فيما قدَّمْنَ للآخرةِ كأنَّه قال: فلتنظُرْ نفسٌ واحدةٌ في ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مكررٌ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ في أداءِ الواجباتِ لأنَّه مَقرونٌ بالعملِ، والثَّاني في تركِ المحارمِ؛ لاقترانِه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيدِ على المعاصي.

(١٩) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ نسُوا حقَّه.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلَهُم ناسينَ لها حتَّى لم يسمَعُوا ما ينفَعُها ولم يفعَلُوا ما يخلِّصُها، أو أراهم يومَ القيامةِ مِن الهولِ ما أنسَاهُم أنفُسَهُم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملونَ في الفسوقِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، عن الحسن وسليمان بن أرقم.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥) عن الأعمش، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩) عن ابن مسعود والأعمش، وزاد في «البحر» (٢٠/ ٢٨١) نسبتها لزيد بن علي وابن أبي عبلة.

(٢٠) ـ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين استكمَلُوا نفوسَهُم فاستأهَلُوا الجنَّةَ والذين استَمْهَنُوها فاستحقُّوا النَّارَ، واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ المسلمَ لا يُقتَلُ بالكافرِ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنَّعيم المقيم.

(٢١) ـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تمثيلٌ وتخييلٌ كما مرَّ في قولِه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولذلك عقَّبَه بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ الإشارةَ إليه وإلى أمثالِه، والمرادُ توبيخُ الإنسانِ على عدمِ تَخشُّعِه عندَ تلاوةِ القرآنِ لقَساوةِ قلبِه وقلَّةِ تَدبُّرِه، والتَّصدُّعُ: التَّشقُّقُ.

وقُرِئَ: (مُصَّدِّعًا)[1] على الإدغام.

(٢٢) ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ما غابَ عن الحسِّ مِن الجواهرِ القدسيَّةِ وأحوالِها وما حضرَ لهُ مِن الأجرامِ وأعراضِها، وتقدمُ الغيبِ لتَقدُّمِه في الوجودِ وتعلُّقِ العلمِ[2] القديمِ به، أو المعدومِ والموجودِ، أو السرِّ والعلانيةِ.

(٢٣) ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغُ[3] في النَّزاهةِ عمَّا يوجبُ نقصانًا.

وقُرِئَ بالفَتحِ[4]، وهو لغةٌ فيه.

---

(١) وهي قراءة طلحة بن مصرف، انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩).

(٢) قوله: «وتعلق العلم» بالجر عطفٌ على «الوجود». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «البالغ».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٧)، وعزاها ابن خالويه لأبي السمال، ثم قال: قال أعرابي: حضرت الكسائي فقرأ كذلك، بينما نقل ابن جني عن ابن مجاهد وأبي حاتم عن يعقوب قال: سمعت أعرابياً يكنى أبا الدينار عند الكسائي يقرأ (القدوس).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السَّلامةِ مِن كلِّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمُبالغةِ.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ واهبُ الأمنِ، وقُرِئَ بالفتحِ[(١)] بمَعنى المؤمَنِ به على حذفِ الجارِّ.

﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الرَّقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ، مُفَيْعِلٌ مِن الأمنِ، قُلِبَتْ همزَتُه هاءً.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ﴾ الذي جبرَ خلقَهُ على ما أرادَ، أو جَبرَ حالَهم بمعنى أصلَحَه.

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّرَ عن كلِّ ما يوجِبُ حاجةً أو نقصانًا.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إذ لا يُشارِكُه في شيءٍ مِن ذلك.

(٢٤) ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدرُ للأشياءِ على مُقتَضى حكمتِه.

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ الموجِدُ لها بريئًا مِن التَّفاوُتِ.

﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ الموجِدُ لصُوَرِها وكيفيَّاتِها كما أراد، ومَن أرادَ الإطنابَ في شرحِ هذه الأسماءِ وأخواتها فعليهِ بكتابي المُسمَّى بـ«منتهى المُنى»[(٢)].

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لأنَّها دالَّةٌ على محاسنِ المَعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتنزُّهِه عَن النَّقائصِ كلِّها.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الجامعُ للكمالاتِ بأَسرِهَا، فإنَّها راجعةٌ إلى الكمالِ في القدرةِ والعلمِ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الحشرِ غفرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِه وما تأخَّرَ»[(٣)].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٥)، و«البحر» (٢٠/ ٢٨٧) عن أبي جعفر محمد بن علي، أو أبي جعفر المدني.

(٢) تقدم التعريف به في مقدمة تحقيق هذا الكتاب، وكذا أفاض المصنف في شرح الأسماء الحسنى على وجوه ومعان لم نقف عليها عند غيره في كتابه «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للبغوي» فلتنظر ثمة.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٢٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه محمَّد بن يونس الكديمي ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما ضعيفان كما في «التقريب».

(٥٩) سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون

(وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير)

روى البخاري، عن سعيد بن جبير قال، قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير .

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات والأرض يسبّح له ويمجّده، ويقدّسه ويوحّده كقوله تعالى: ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وهو العزيز ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ في قدره وشرعه، وقوله تعالى: ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأجلاهم النبي ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ظنوا أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيّرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى (أذرعات) من أعالي الشام، وهي أرض المحشر

والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى (خيبر) وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم ، روى أبو داود ، عن عبدالرحمن ابن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفّار قريش كتبوا إلى (ابن أبيّ) ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر إنكم أدنيتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك (عبدالله بن أبيّ) ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود، إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء ، وهو الخلاخيل، فلمّا بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقي بمكان النصف، وليسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: « إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » ، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ نقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة .

وقوله تعالى : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الآية الأُخْرَى ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، وقوله تعالى : ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل، وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها، ثم حصنوها ودربوها، يقول الله تعالى: ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ، وقوله: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا﴾ أي لولا أن الله كتب عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند

الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: «ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام، قال: والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض - إلى قوله - وليخزي الفاسقين﴾[1]، قال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد، وقال الضحّاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء فهذا الجلاء، وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرِعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أُخْرَى. وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، ثم قال: ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾، وقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد، قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة، قال ابن جرير: هو جميع النخل، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرعاباً لقلوبهم، فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة. اي ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم. روى الإمام أحمد، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرّق[2]. ولفظ البخاري، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط (عبد الله بن سلام) ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة[3]. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[4]. ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بنحوه.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه الشيخان.

قال أبو إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أُحُد وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾

الفيء كل مال أخذ من الكفّار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح، التي ذكرها الله عزّ وجلّ في هذه الآيات فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ أي من بني النضير، ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ يعني الإبل، ﴿ولكنّ الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء، ثم قال تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح في سبيل الله عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ، قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف، فما وجدت فيه الذي تقول، قال: فما وجدتِ فيه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلك، قال: فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت، ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: ﴿وما أريد

أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ؟[1] . وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله عزّ وجلّ . قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ، قالت: بلى ؟ قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه ، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا[2] .وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[3] . وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ ، أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ، قال عمر : « وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم »[4] . وقوله تعالى : ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، روى الإمام أحمد ، عن أنس قال، قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد .
(٣) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة .
(٤) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية .

المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[1]. ودعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة»[2]. وقال البخاري، عن أبي هريرة قال، قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا، ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة، قال الحسن البصري ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعني الحسد ﴿مما أوتوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أعطي إخوانهم، وقال عبدالرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ يعني مما أوتوا: المهاجرون، قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ قال، وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»، فقالوا: نعم يا رسول الله، وقوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني حاجة، أي يقدموا المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل»، ومن هذا المقام تصدق الصدّيق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وقال البخاري، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله»، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عزّ وجلّ - أو ضحك - من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[3]. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، عن جابر ابن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك

(١) أخرجه أحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري، ورواه مسلم والترمذي والنسائي بنحوه.

من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[1]. وعن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[2]. وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبدالله فقال: يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبدالله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبدالله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل[3]، وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه[4]. وفي الحديث: « بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة »[5].

وقوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون﴾ أي قائلين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾، وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وقال ابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآية[6]، وقال ابن جرير: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿عليم حكيم﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ حتى بلغ ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه[7].

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه ابن أبي حاتم.
(٤) رواه ابن جرير.
(٥) أخرجه ابن جرير عن أنس مرفوعاً.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٧) أخرجه ابن جرير.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير، يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم﴾، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي لا يقاتلون معهم، ﴿ولئن نصروهم﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون﴾، وهذه بشارة مستقلة بنفسها. ثم قال تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾، ثم قال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة، ثم قال تعالى: ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾، ثم قال تعالى: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾، قال مجاهد والسدي: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع، وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾. روى ابن جرير، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها

أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجَر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأُختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: بل قصها علينا، قال، فقصها؛ فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله قد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء. قال، فانطلقوا، فاستَعْدُوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به، فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال، فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو (برصيصا) فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جزاء كل ظالم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال، فجاءه قوم حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، قال، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن، وأقام الصلاة فصلّى، ثم خطب فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ - إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر - ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ - تصدق رجل من ديناره من درهمه، من ثوبه، من صاع بر، من صاع تمره - حتى قال - ولو بشق تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١)، فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد ثان ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير، وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم، فإن الجزاء من جنس العمل،

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ .

خطب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل، وهو في عمل الله عزّ وجلّ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عزّ وجلّ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عزّ وجلّ أن تكونوا أمثالهم ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ ، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم »[1] . وقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾، وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار﴾ ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ أي الناجون المسلّمون من عذاب الله عزّ وجلّ.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عزّ وجلّ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم، وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ إلى آخرها، يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ،

---

(١) أخرجه الحافظ الطبراني ، قال ابن كثير : اسناده جيد ورجاله كلهم ثقات .

ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾، وقال الحسن البصري: إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ الآية، وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن، ثم قال تعالى: ﴿هو الله لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إلّه إلا هو، فلا رب غيره ولا إلّه للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات، وقوله تعالى: ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، وقال تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ وقال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، ثم قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو الملك﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

وقوله تعالى: ﴿القدوس﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر، وقال مجاهد وقتادة: أي المبارك، وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام، ﴿السلام﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿المؤمن﴾ قال ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد: صدّق عباده المؤمنين في إيمانهم به، وقوله تعالى: ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾، وقوله: ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، وقوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿العزيز﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿الجبار المتكبر﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته»، وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء، وقال ابن جرير: الجبار المصلح أُمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء، ثم قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾. وقوله تعالى: ﴿هو الله الخالق الباريء المصور﴾ الخلق: التقدير، والبرء: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتّبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عزّ وجلّ. قال الشاعر يمدح آخر

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي أنت تنفذ ما خلقت، أي قدرت بخلاف غيرك، فإنه لا يستطيع ما يريده فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ، ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فرى، أي قطع على ما قدره بحسب ما يريده، وقوله تعالى: ﴿الخالق البارئ المصور﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، ولهذا قال المصور أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: ﴿له الأسماء الحسنى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، ونذكر الحديث المروي

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباريء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبديء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[1]. وقوله تعالى: ﴿يسبّح له ما في السماوات والأرض﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾، وقوله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ أي فلا يرام جنابه، ﴿الحكيم﴾ في شرعه وقدره، عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[2].

[آخر تفسير سورة الحشر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرج بعضه الشيخان واللفظ للترمذي.

(٢) رواه الترمذي والإمام أحمد.

تفسير سورة الحشر

[وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير] (١) . وهى مدنية .

قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال : أنزلت فى بنى النضير .

ورواه البخارى ومسلم من وجه آخر ، عن هُشَيْم ، به (٢) . ورواه البخارى من حديث أبى عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قُل : سورة النَّضير (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلى له ويوحده (٤) ، كقوله : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ]** (٥) ﴾ [الإسراء:٤٤] . وقوله : ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ فى قَدره وشرعه .

وقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٣) .

(٤) فى م : « وحده » .

(٥) زيادة من م .

عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا مَرَدَّ [١] له ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصَدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ**﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد [معه] [٢] الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مُقَاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال :« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء ــ وهى الخلاخيل ــ فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ [بالكتائب] [٣] فحصرهم ، فقال لهم: « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغَد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى

(١) فى م : « لا يرد » .
(٢ ، ٣) زيادة من سنن أبى داود .

منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة [١] .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله [٢] ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ،وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتل [٣] عمرو بن أمية الضمرى ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُومان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن [٤] تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ــ فَمَن [٥] رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصَعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، رضى الله عنهم . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ،وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه: أن يا محمد،قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه،فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى [ابن] [٦] سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل [٧] ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخَلّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة

(١) سنن أبى داود برقم (٣٠٠٤) .

(٢) فى م : « أصحاب النبى » . (٣) فى م : « قتلهما » . (٤) فى م : « لم » .

(٥) فى أ : « فمر » . (٦) زيادة من م ، أ . (٧) فى أ : « نوفل » .

يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَة ذكرا فَقْرًا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ .

قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَير (١) بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأنى » . فجعل يامين بن عُمَير (٢) لرجل جُعلِ على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها (٣) .

وهكذا روى يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق ، بنحو ما تقدم (٤) .

فقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعنى : بنى النضير ﴿ **مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ــ يعنى الشام فَلْيَتْل (٥) هذه الآية : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : «اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف ، عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ، قال : « هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر » .

ورواه ابن جرير ، عن بُنْدَار ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، به (٦) .

وقوله : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النحل: ٢٦] .

وقوله : ﴿ **وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ أى : الخوف والهَلَع والجَزَع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١ ، ٢) فى م : « بن عمرو » .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٠ـ١٩٢) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٢١) .

(٤) فى م : « مما تقدم » . (٥) فى م ، أ : « فليقرأ » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٠) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٤٢) عن هوذة بن خليفة ، عن عوف ، عن الحسن به وهو مرسل .

وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض [١] ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ، وتَحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .

وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان [٢] اليهود إذا عَلَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ أى: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عُرْوَة ، والسُّدِّى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنىَ النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أَقَلَّت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قِبَل الشام . قال : والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .

وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد .

وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضى ، حدثنا محمد بن سعيد [٣] العوفى ، حدثنى أبى ، عن عمى ، حدثنى أبى عن جدى ، عن ابن عباس قال : كان النبى [٤] ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مَبْلَغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ، والجلاء إخراجهم من أرضهم [٥] إلى أرض أخرى [٦] .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد

(١) فى أ : « بعض » . (٢) فى م : « وكانت » . (٣) فى أ : « سعد » .
(٤) فى م : « كان رسول الله » . (٥) فى م : « أرض » .
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٥٩) وإسناده مسلسل بالضعفاء .

ابن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بنى النضير، وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاث ليال [(١)] [(٢)] .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: إنما فعلَ الله بهم ذلك وسلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين فى [(٣)] البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين: نوع من التمر ، وهو جيد .

قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبَرْنِىّ من التمر .

وقال كثيرون [(٤)] من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة .

قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البُوَيرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم [(٥)] إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : [فبعث بنو النضير] [(٦)] يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته [(٧)] ورضاه ، وفيه نكاية العدو [(٨)] ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل[(٩)] القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه .

وقد روى نحو هذا مرفوعاً ، فقال النسائى : أخبرنا الحسن بن محمد ، عن [(١٠)] عفان ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله ﷺ : هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ [(١١)] .

---

(١) فى م : « أيام » .
(٢) دلائل النبوة (٣/ ٣٦٠) .
(٣) فى م : « من » . (٤) فى م : « كثير » . (٥) فى م : « نخلهم » .
(٦) فى هـ بياض ، وفى م : « بنو قريظة » وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى . ومستفادا من هامش ط. الشعب .
(٧) فى م : « وقدره » . (٨) فى م : « للعدو » . (٩) فى م : « فأنزل » .
(١٠) فى م : « بن » .
(١١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا سفيان بن وَكِيع ، حدثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن سليمان بن موسى ، عن جابر ـ وعن أبى الزبير ، عن جابر ـ قال : رخص لهم فى قطع النخل، ثم شدد عليهم ، فأتوا [١] النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، علينا إثم فيما قطعنا ؟ أو علينا وزر فيما تركنا ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرّق .

وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة ، بنحوه [٣] ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : حاربت[٤] النضيرُ وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم[٥] نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمَّنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ،ويهود بنى حارثة ،وكلّ يهود بالمدينة .

ولهما أيضا عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع ـ وهى البُوَيرةُ ـ فأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [٦] .

وللبخارى ، رحمه الله ، من رواية جُوَيْرية بن أسماء عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير [٧] . ولها يقول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

وَهَانَ عَلَى سَراة بنى لُؤىّ ... حَريق بالبُوَيرة مُستَطيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدَام اللهُ ذلكَ من صَنِيع ... وَحرّق فى نَواحيها السَّعير
سَتَعلم أيُّنا منها بِنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أىّ أرْضينَا نَضِيرُ

---

(١) فى م : « فسألوا » .
(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٥) وفيه سفيان بن وكيع ، وهو ضعيف .
تنبيه : رواية سليمان بن موسى عن جابر لم أجدها فى مسند أبى يعلى المطبوع فلعلها سقطت .
(٣) المسند (٢/ ٧) وصحيح البخارى برقم (٢٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦)
(٤) فى م : « حارب » . (٥) فى م : « فقتل من رجالهم وسبى وقسم » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦) .
(٧) فى هـ ، أ : « نخل بنى النضير ، وقطع البويرة » ، وقوله : « وقطع البويرة » غير ثابت فى البخارى ، ويبدو أنه سهو من الناسخ . مستفاداً من هامش ط ـ الشعب .

كذا رواه البخارى [١] ، ولم يذكره ابن إسحاق .

وقال محمد بن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير وقتل ابن الأشرف :

لَقَد خزيت[٢] بغَدْرَتها الحُبُور ... كَذَاكَ الدهرُ ذو صَرْف يَدُورُ
وَذَلك أنَّهم كفَرُوا بِرَبّ ... عَظيم أمرُهُ أمرٌ كَبِيرُ
وقَد أوتوا معاً فَهماً وعلما ... وَجَاءهُمُ من الله النَّذيرُ
نَذير صَادق أدّى[٣] كتابا ... وآيات مُبَيَّنَةً تُنيرُ
فقال[٤] : ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جَديرُ
فَقَال : بَلى لَقد أديتُ حقاً ... يُصَدّقنى به الفَهم الخَبيرُ
فَمن يَتْبعه يُهدَ لِكُل رُشْد ... وَمَن يَكفُر به يُجزَ الكَفُورُ
فَلَمَّا أشربُوا غَدْراً وكُفْراً ... وَجَدّ بهم عن الحَقّ النّفورُ
أرَى الله النبىّ برأى صدْق ... وكانَ الله يَحكُم لا يَجُورُ
فَأيَّدَهُ وَسَلَّطَه عَلَيهم ... وكَانَ نَصيرهُ نعْمَ النَّصيرُ
فَغُودرَ منْهمُو كَعب صريعاً ... فَذلَّتْ بعدَ مَصْرَعه النَّضيرُ
عَلى الكَفَّين ثمَّ وقَدْ عَلَتْهُ ... بأيدينا مُشَهَّرة ذكُورُ
بأمْر مُحَمَّد إذ دَس لَيلا ... إلى كَعب أخَا كَعب يَسيرُ
فَمَا كَرَه فَأنزلَه بِمكْر ... وَمحمودُ أخُو ثقَة جَسُورُ
فَتلْك بَنُو النَّضير بدار سَوء ... أبَارَهُمُ بما اجترموا المُبيرُ
غَداة أتاهُمُ فى الزَحْف رَهواً ... رَسُولُ الله وَهْوبهم بَصيرُ
وَغَسَّانُ الحماةُ مُوازرُوه ... عَلَى الأعداء وهولهم وَزيرُ
فَقَالَ: السِّلْم ويحكمُ فَصَدّوا ... وَحَالفَ أمْرَهَم كَذبٌ وَزُورُ
فَذَاقُوا غبّ أمْرهمُ دَبَالا ... لكُلّ ثَلاثَة منهُم بَعيرُ
وَأجلوا عَامدين لقَينُقَاع ... وَغُودرَ منهُم نَخل ودُورُ [٥]

قال : وكان مما [٦] قيل من الأشعار فى بنى النضير قولُ ابن لُقَيم العَبْسىّ ـ ويقال : قالها قيس

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣٢) .
(٢) فى أ : « خربت » .
(٣) فى م : « أوتى » .
(٤) فى م: « فقالوا » .
(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٩٩) .
(٦) فى م : « ومما كان » .

ابن بحر بن طريف ، قال ابن هشام الأشجعى :

أهلى فداءٌ لامرئ غير هالك أحَلّ (١) اليهودَ بالحَسى(٢) المُزَنَّم
يَقيلُونَ فى جَمْر الغَضاة وبُدّلوا أهَيضبَ عودا بالودى المُكَمَّم
فإن يَكُ ظَنى صادقاً بمُحمد يَروا خيلَه بينَ الصّلا ويَرمْرَم(٣)
يَؤمّ بها عَمرو بنُ بُهثَةَ إنّهُمْ عَدُو وما حَىّ صَديق كمُجرم
عَلَيهنّ أبطالُ مَساعيرُ فى الوَغَى يَهُزّونَ أطرافَ الوَشيج المُقوّم
وكُلّ رَقيق الشَّفرتَين مُهَنَّد تُورثْنَ من أزمان عاد وَجُرْهُم
فَمَن مُبلغٌ عَنى قُرَيشاً رسالة فَهَلْ بَعدَهُم فى المجْد من مُتكرّم
بأنّ أخاكمُ فاعلَمنّ مُحَمَّداً تَليدُ النَّدى بينَ الحَجُون وزَمْزَم
فَدينُوا له بالحقّ تَجْسُمْ أمُوركم وتَسْمُوا منَ الدنْيا إلى كُل مُعْظَم
نبى تلافَته منَ الله رَحمَةٌ ولا تَسْألُوهُ أمْرَ غَيب مُرَجَّم
فَقَدْ كانَ فى بَدْر لَعَمْرى عبرَةٌ لكُم يا قُرَيش والقَليب المُلَمَّم
غَدَاة أتَى فى الخَزْرَجيَّة عامداً إليكُم مُطيعاً للعَظيم المُكَرّم
مُعَاناً برُوح القُدْس يَنْكى عَدوه رَسُولاً منَ الرَحمن حقّا بمَعْلم
رَسُولاً منَ الرّحمن يَتْلُو كتابَهُ فَلَمّا أنارَ الحَقّ لم يَتَلعثَم
أرَى أمْرَهُ يَزْدَادُ فى كُلّ مَوْطن عُلُوّا لأمرْ حَمَّه اللهُ مُحْكَم(٤)

وقد أورد ابن إسحاق ، رحمه الله ، هاهنا أشعاراً كثيرة ، فيها آداب ومواعظ وحكم ، وتفاصيل للقصة ، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر (٥) .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⟨٦⟩ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

(١) فى أ : « أجلى » . (٢) فى م ، أ : « بالحس » . (٣) فى أ : « بين الصفا وبزمزم » .
(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٥) .
(٥) صحيح البخارى (٣٢٩/٧) « فتح » .

الأَغْنيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً لمال الفيء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء: كلّ مال أخذ من الكفار بغير (١) قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه (٢) بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ**﴾ أى : من بنى النضير ﴿ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ أى: جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفيء ووجوهه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ومَعْمَر ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان ، عن عمر ، رضى الله عنه ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة (٣) ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته (٤) ــ وقال مرّة : قوت (٥) سنته ــ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل .

هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم ــ إلا ابن ماجة ــ من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به (٦) . وقد رويناه مطولاً ، فقال أبو داود ، رحمه الله :

حدثنا الحسن بن على ومحمد بن يحيى بن فارس ــ المعنى واحد ــ قالا : حدثنا بشر بن عُمَر الزهرانى ، حدثنى مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىَّ عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مالِ ، إنه قد دَفّ أهل أبيات (٧) من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرتَ غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه (٨) يرفا ، فقال : يا أمير

(١) فى م : « من غير » . (٢) فى م : « عليه المسلمون » . (٣) فى م : « خاصة » .
(٤) فى م : « سنة » . (٥) فى أ : « مسيرة » .
(٦) المسند (١/ ٢٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن أبى داود برقم (٢٩٦٥) وسنن الترمذى برقم (١٧١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٥) .
(٧) فى أ : « أهل بنات » . (٨) فى م : « فجاء » .

المؤمنين، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ــ يعنى : علياً ــ فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس: خُيِّل إلىَّ أنهما قَدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر ، رضى الله عنه : اتئدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة» . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم،فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة ــ أو : نفقته ونفقة أهله سنة ــ ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل علىٌّ أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىٍّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله ﷺ وولىّ أبى بكر ، فَوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتما جَميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عَجَزْتُما عنها فَرُدَّاها إلى .

أخرجوه من حديث الزهرى ، به[1] . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عارم وعفان قالا : حدثنا معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا أنس بن مالك ، عن نبىّ الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ،حتى فُتحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول :

---

(١) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٣) وصحيح البخارى برقم (٣٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن النسائى (٧/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (١٦١٠) .

كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .

رواه البخارى ومسلم من طُرُق عن معتمر ، به (١) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد (٢) .

وقوله : ﴿ كَىْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى: جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا سعيد ، عن قتادة، عن الحسن العوفى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشىء وجدته فى كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، شىء وجدته فى كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت : والله لقد تصفحتُ ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول ! . قال : فما وجدت فيه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة . قالت : فلعله فى بعض أهلك . قال : فادخلى فانظرى . فدخلت فَنَظرت ثم خرجَت ، قالت : ما رأيتُ بأسا . فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، [عن إبراهيم] (٣) ، عن علقمة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات، والمُتفَلّجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله ،عز وجل. قال: فبلغ امرأة فى البيت يقال لها: « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ . قال : ما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت : [إنى] (٤) لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبى فانظرى .

---

(١) المسند (٣/٢١٩) وصحيح البخارى برقم (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٧١) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » .

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

فذهَبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سفيان الثورى (١) .

وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هُرَيرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (٢) .

وقال النسائى : أخبرنا أحمد بن سعيد ، حدثنا يزيد ، حدثنا منصور بن حيان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عُمَر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفىء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صَدَقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر : وأوصى الخليفة [من] (٤) بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ،

(١) المسند (١/ ٤٣٣) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٢٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٨) .

(٤) زيادة من أ .

وأن يعفو [١] عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا [٢] .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين [٣] ويواسونهم بأموالهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا حميد ، عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَونا المَؤنة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم » [٤] .

لم أره فى الكتب من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] [٥] أثرة » .

تفرد به البخارى من هذا الوجه [٦] .

وقال البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنَةَ ونَشركُكُم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم [٧] .

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة .

قال الحسن البصرى : ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد .

﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ : قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تَنطُف[٨] لحيته من وضوئه ، قد تَعلّق[٩] نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته [١٠] أيضاً ، فطلع

(١) فى م : « وأن يعفى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٨) .
(٣) فى أ : « يحبون من هاجر إليهم » .
(٤) المسند (٣ / ٢٠٠) .
(٥) زيادة من صحيح البخارى .
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٤) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٢٥) .
(٨) فى م : « ينفض » .
(٩) فى م : « قد علق » .
(١٠) فى م : «مثل حاله » .

ذلك الرجل على مثل حاله الأولى [(١)] . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى [(٢)] إليك حتى تمضى فعلتُ . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى [(٣)] ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعارّ وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر [(٤)] ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار [(٥)] : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار [(٦)] ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملكَ فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير [(٧)] عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لأحد من المسلمين غشّا ، ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تطاق [(٨)] .

ورواه النسائى فى اليوم والليلة ، عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن معمر به[(٩)]. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين،لكن رواه عقيل وغيره عن الزهرى ،عن رجل،عن أنس [(١٠)]. فالله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله :﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى: ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ : المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم [(١١)] الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله [(١٢)] .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [(١٣)] ﴾ يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ » . وهذا المقام

---

(١) فى م : « الأول » . (٢) فى أ : « أن تورينى » . (٣) فى م : « الليالى الثلاث » .
(٤) فى م ، أ : « ولا هجرة » . (٥) فى م : « مرات » . (٦) فى م : « المرات » .
(٧) فى م : « كبير » . (٨) فى م : « لا نطيق » ، وفى أ : « لا تطيق » .
(٩) المسند (٣/١٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٩٩) .
(١٠) انظر : تحفة الأشراف للمزى (١/ ٣٩٥) وكلام الحافظ ابن حجر فى النكت الظراف بهامشه .
(١١) فى م : « ويقاسمونكم » .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/٢٨) .
(١٣) ذكر فى « م » بقية الآية .

أعلى من حال الذين وَصَف اللهُ بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّه (١) ﴾ [الإنسان:٨] . وقوله : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق ، رضى الله عنه ، بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . وهذا (٢) الماء الذى عُرِض (٣) على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثلث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فُضيل بن غَزوان، حدثنا أبو حازم الأشجعى ، عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله ، عز وجل ــ أو : ضحك ــ من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٤) .

وكذا رواه البخارى فى موضع آخر ، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه (٥) . وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه .

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى :من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا داود بن قيس الفراء ، عن عُبَيد الله بن مِقْسَم ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلّم ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُحَّ ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم » .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه عن القَعْنَبِىّ ، عن داود بن قيس ، به (٦) .

وقال الأعمش وشعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زهير بن الأقمر ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظُّلْم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفُحْش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّشَ ، وإياكم والشُّحَّ ؛ فإنه أهلكَ من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

---

(١) فى أ : « حبه مسكيناً » . (٢) فى م : « وهكذا » . (٣) فى م : « اعرضوه » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٩) .
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٢) .
(٦) المسند (٣/ ٣٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) .

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة ، والنسائى من طريق الأعمش ، كلاهما عن عمرو بن مُرّة ، به [١] .

وقال الليث ، عن يزيد [بن الهاد] [٢] ، عن سُهَيل بن أبى صالح ، عن صفوان بن أبى يزيد ، عن القعقاع بن اللجلاج [٣] ، عن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » [٤] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا المسعودى، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وأنا رجل شحيح ، لا أكاد أن أخرج من يدى شيئاً ! فقال عبد الله : ليس ذلك [٥] بالشح الذى ذكر فى القرآن ، إنما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك [٦] البخل ، وبئس الشىء البخل » [٧] .

وقال سفيان الثورى ، عن طارق بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول :« اللهم قنى شح نفسى » . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل » ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه . ورواه ابن جرير [٨] .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسحاق ، حدثنا سلميان بن عبد الرحمن الدمشقى ، حدثنا إسماعيل بن عيّاش ، حدثنا مُجمع بن جارية الأنصارى ، عن عمه يزيد بن جارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « بَرئ من الشح مَن أدى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى فى النائبة » [٩] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون بإحسان ، كما قال فى آية براءة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان

---

(١) المسند (٢/١٥٩) وسنن أبى داود برقم (١٦٩٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٣) .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) فى م : « الجلاح » .
(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/١٣) .
(٥) فى م : « ليس ذاك » .
(٦) فى م : « ذاك » .
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/٢٩) من طريق جامع به .
(٨) تفسير الطبرى (٢٨/٢٩) .
(٩) تفسير الطبرى (٢٨/٢٩) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق به، وروى مرسلاً ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/١٨٨) من طريق عمرو بن يحيى وإبراهيم بن إسماعيل ، وابن حبان فى الثقات (٤/٢٠٢) من طريق ابن المبارك ، كلهم عن مجمع بن يحيى ، عن عمه مرسلاً .

هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى: قائلين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أى: بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ،عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم ! ثم قرأت هذه الآية :﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ الآية .

وقال إسماعيل بن عُلَيّة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . ورواه البغوى [(١)] .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن الزهرى قال : قال عمر ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ قال الزهرى : قال عمر : هذه لرسول الله ﷺ خاصة ، قُرى [عربية : فَدَك وكذا] [(٢)] وكذا ، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وللفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق ـــ قال أيوب: أو قال: حظ ـــ إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع [(٣)] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] ، ثم قال هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ [وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ] [(٤)] ﴾ [الأنفال: ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ،

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٨٠) وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٣٠٢٢) عن عروة قال : قالت لى عائشة : « يا بن أختى ، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى ﷺ فسبوهم » .

(٢) زيادة من م ، أ ، وسنن أبى داود .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٦) .

(٤) زيادة من م .

وليس أحد إلا له فيها حق [١] ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى ـ وهو بَسرو حِمير ـ نصيبه فيها، لم يعرق فيها جبينه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبى وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يَعدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم [٢] قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم [٣] لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ [٤] ﴾ يعنى : أنهم من جُبنهم وهلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة [٥] ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر [٦] محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

---

(١) فى أ : « فيها جزء » . (٢،٣) فى م : « إما لأنهم » . (٤) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .
(٥) فى م : « والمقاتلة » . (٦) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .

ثم قال : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي : عداوتهم [فيما][1] بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

قال إبراهيم النخعى : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : [يعنى][2] : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد ابن إسحاق .

وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ[3] سول للإنسان ــ والعياذ بالله ــ الكفر ، فإذا دخل فيما سوله[4] تبرأ منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هى منه مع غيرها من الوقائع المشاكله لها ، فقال ابن جرير :

حدثنا خَلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شُمَيْل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهِيك قال : سمعت علياً ، رضى الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة ، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال : فجاؤوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال: إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [5] .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : كانت

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى م : « إذا » .
(٤) فى م ، أ : « سوله له » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

امرأة ترعى الغنم ، وكان لها أربعة أخوة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب . قال : فنزل الراهب ففجَر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مُصدَّق يسمع قولك. فقتلها ثم دفتها. قال : فأتى الشيطانُ إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ، بل قصها علينا . قال: فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقالوا : فوالله ما هذا إلا لشىء . قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى، فاسجد لى سجدة واحدةً وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به مَلكهم تبَرأ منه ، وأُخِذَ فقتل (١) .

وكذا روى عن ابن عباس ، وطاوس ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك .واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا ، والله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جُرَيج العابد ، فإن جريجاً اتهمته امرأة بَغى بنفسها ، وادعت أن حَملها منه ، ورفعت أمره إلى ولى الأمر ، فأمر به فأنزل من صومعته وخُربت صومعته وهو يقول : ما لكم ؟ ما لكم ؟ فقالوا : يا عدو الله ، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا . فقال جريج : اصبروا . ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : يا غلام ، من أبوك؟ قال (٢) :أبى الراعى ــ وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه ــ فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب. قال: لا،بل أعيدوها من طين،كما كانت.

وقوله : ﴿ **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا** ﴾ أى :فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما (٣) إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيْفة ، عن المنذر ابن جرير ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابى النمار ــ أو : العبَاء ــ مُتَقَلِّدى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء:١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

(٢) فى م : « فقال » .

(٣) فى م : « ومصيرهما » .

تَصَدَّق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صاع تمره ـ حتى قال ـ : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن يَنقُص من أجورهم شىء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وِزرُها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة ، بإسناد مثله [١] .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أمر بتقواه ، وهى تشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر .

وقوله : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم [٢] ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقال [٣] : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى :حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ،حدثنا [أبو] [٤] المغيرة ، حدثنا حَريز بن عثمان ، عن نعيم بن نَمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، [واتضحوا بسنائه وبيانه] [٥] إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

---

(١) المسند (٣٥٨/٤) وصحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

(٢) فى م : « وخفيها » .

(٣) فى م : « وقوله » .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى .

(٥) زيادة من م ، والمعجم الكبير .

[الأنبياء: ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم [١] .

هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَريز بن عثمان ، وهو نعيم بن نمحة ، لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستانى قد حكم بأن شيوخ حَريز كلهم ثقات . وقد روى لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى [٢] : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ ﴾ الآية [غافر:٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله ، سبحانه ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى : فإن كان الجبل فى غلظته وقساوته ،لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ،لخشع وتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ [لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا] [٣] ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه ، لتصدع [٤] وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم

(١) المعجم الكبير (١/ ٦٠) .

(٢) بياض فى م . (٣) زيادة من م . (٤) فى م : « لصدع » .

قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .

وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع وجعل [(١)] يئن كما يئن الصبى الذى يُسكَّن [(٢)]، لما كان يُسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع » [(٣)] . وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته [(٤)] ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ الآية [الرعد:٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب [(٥)] والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات .

وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] .

وقال [(٦)] : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أى: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة .

وقوله : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك: وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام .

---

(١) حديث حنين الجذع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر ، وبرقم (٣٥٨٤، ٣٥٨٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « يسكت » .

(٣) رواه أبو القاسم البغوى كما فى البداية والنهاية للمؤلف (٦/ ١٣٢) من طريق شيبان بن فروخ ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن أنس فى قصة الجذع ، ثم زاد : فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : « يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله شوقاً إليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه » .

(٤) فى م : « من خشية الله » . (٥) فى م : « بالغيب » . (٦) فى م : « ثم قال » .

﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ بكماله [(١)] فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس: [أى] [(٢)] أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمَّن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صَدّق عبادَه المؤمنين فى إيمانهم به .

وقوله : ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : أى [(٣)] : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد:٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عزّ كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجَبْرِيّة إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما تقدم فى الصحيح : « العَظَمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبته » .

وقال قتادة : الجبار : الذى جَبَر خلقه على ما يشاء .

وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .

وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [(٤)] ﴾ .

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ : الخلق : التقدير ، والبَراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر [(٥)] :

ولأنت تَفرى ما خَلَقت وبعـ ـضُ القوم يَخلُق ثم لا يَفْرى

أى : أنت تنفذ ما خلقت ، أى : قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد . فالخلق : التقدير . والفرى : التنفيذ . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فَرَى ، أى : قطع عل ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار:٨] ولهذا قال : ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

---

(١) فى م : « لكماله » . (٢) زيادة من م . (٣) فى م : « إنه » .

(٤) فى م : « يصفون » وهو خطأ .

(٥) هو زهير بن أبى سلمى يمدح به هرم بن سنان ، والبيت فى ديوانه (ص٩٤) أ . هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب .

وقوله : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » ـ واللفظ للترمذى ـ : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ،الظاهر ، الباطن، الولى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (١) (٢) .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جَنَابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا خالد ـ يعنى : ابن طَهْمَان ، أبو العلاء الخَفَّاف ـ حدثنا نافع ابن أبى نافع ، عن مَعْقِل بن يسار ، عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وَكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » .

ورواه الترمذى عن محمود بن غَيْلان ، عن أبى أحمد الزبيرى ، به (٣)، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

---

(١) فى م : « ها هنا » .
(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٨٠ من سورة الأعراف .
(٣) المسند (٥/٢٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٢) .

سورة الحشر

مدنيّة، وهي أربع وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام في صدر سورة الحديد، وقد كُرِّر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلّ مِن الفريقين بالتسبيح.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قدم المدينة صالَحَ بني النضير، وهم رهط مِن اليهود مِن ذرّيّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا لبعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعاهدهم ألّا يكونوا له ولا عليه، فلمّا ظهر عليه السلام يوم بدر قالوا: «هو النبيّ الذي نعتُه في التوراة لا تُرَدّ له رايةٌ»، فلمّا كان يومُ أُحُد ما كان ارتابوا ونكثوا.

فخرج كعبُ بن الأشرف في الأربعين راكبًا إلى مكّةَ فحالفوا قريشًا عند الكعبة على قتاله عليه السلام، فأمر عليه السلام محمّد بن مسلمةَ الأنصاريَّ[1]

---

[1] محمّد بن مسلمة بن خالد الأنصاري الأوسي، أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله (ت. ٤٣هـ/٦٦٣م). حليف لبني الأشهل، كان مِن فُضلاء الصحابة، شهد بدرًا والمشاهد كلّها، وعاش ومات بالمدينة. استخلفه النبيّ عليه الصلاة والسلام على المدينة في إحدى غزواته، كان ممّن اعتزل الفتنة ولا حضر الجَمَل ولا صِفّين، بل اتّخذ سيفًا مِن خشب، وتحوّل إلى الرَّبذة فأقام بها مُديدة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٧٧/٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٩/٢.

فقتل كعبًا غِيلةً وكان أخاه مِن الرضاعة، ثمّ صبّحهم بالكتائب، فقال لهم: «اخرجوا مِن المدينة»، فاستمهلوه عليه السلام عشرةَ أيّام ليتجهّزوا للخروج.

فدسّ عبدُ الله بنُ أبيّ المنافقُ وأصحابه إليهم لا تخرجوا مِن الحِصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم، فدَرَّبوا على الأزِقّة وحصّنوها، فحاصرهم النبيّ عليه السلام إحدى وعشرين ليلةً.

فلمّا قذفَ الله في قلوبهم الرعب وأيِسُوا مِن نصر المنافقين طلبوا الصلحَ [١٨٠و] / فأبى عليهم إلّا الجلاءَ على أن يحمل كلُّ ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا مِن متاعهم، فجَلَوا إلى الشام إلى أريحا وأذرِعات إلّا أهلَ بيتين منهم: آلَ أبي الحقيق وآلَ حُيَيّ بن أخطبَ،[١] فإنّهم لحِقوا بخيبرَ،[٢] ولحقت طائفة بالحِيرة، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ بيان لبعض آثار عزّته تعالى وأحكام حكمته إثرَ وصفه تعالى بالعزّة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق. والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إمّا بناءً على كمال ظهور اتّصافه تعالى بهما مع مساعدة تامّة مِن المقام، أو على جعلِه مستعارًا لاسم الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام، ٤٦/٦]، أي: بذلك، وعليه قول رؤبة بن العجّاج:

كأنّه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[٤]

---

[١] هو حُييّ بن أخطب النضري (ت. ٥هـ/٦٢٦م)، أبو صفيّة أمّ المؤمنين. سيّد اليهود، كان يُنعت بسيّد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثمّ قتلوه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨٤/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٢/٢.

[٢] خيبر: هو الموضع المذكور في غزوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي ناحية على ثمانية بُرد مِن المدينة. ولفظ خيبر بلسان اليهود يعني الحصن. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٠٩/٢.

[٣] الحشر، ٥٩/١-٦. | والخبر بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٦٧/٨-٦٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٧٥/٤.

[٤] في ديوانه، ص ١٠٤؛ وهو له في الصحاح للجوهري، «بهق»، وفيه «البهق: بياض يعتري الجلد يخالف لونه، ليس مِن البرص». والشاهد فيه أنّه قال: «كأنّه»، بضمير المفرد المذكّر، وكان قال قبله:

كما هو المشهور، كأنّه قيل: ذلك المنعوت بالعزّة والحكمة الذي أخرج... إلخ، ففيه إشعارٌ بأنّ في الإخراج حكمةً باهرةً.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أوّل حشرهم إلى الشام، وكانوا مِن سِبْطٍ[١] لم يُصبهم جلاءٌ قطّ، وهم أوّل مَن أُخرج مِن جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله عنه إيّاهم مِن خيبر إلى الشام. وقيل: آخرُ حشرِهم حشرُ يوم القيامة؛ لأنّ المَحشَر يكون بالشام.[٢]

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ مِن ديارهم بهذا الذلّ والهَوان لشدّة بأسهم وقوّة مَنَعتِهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنُّوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتُهم مِن بأس الله.

وتغييرُ النظم بتقديم الخبرِ وإسنادِ الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم، واعتقادِهم في أنفسهم أنّهم في عزّةٍ ومَنَعة لا يُبالى معها بأحد يتعرَّض لهم أو يطمع في مُعازّتهم. ويجوز أن يكون ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾ خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾ و﴿حُصُونُهُم﴾ مرتفعًا على الفاعليّة.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُ الله تعالى / وقدَرُه المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتلُ رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنّه ممّا أضعفَ قوّتهم وفلّ شوكتَهم وسَلَب قلوبهم الأمن والطُّمأنينة. وقيل: الضمير في ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ و﴿لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ للمؤمنين، أي: فأتاهم نصر الله. وقُرئ: "فَآتَاهُمْ"،[٣] أي: فآتاهم الله العذابَ أو النصرَ. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: أثبت فيها الخوفَ الذي يَرْعبُها، أي: يملؤها. [١٨٠ظ]

فيها خطوط مِن سواد وبَلَق
ولهذا راجعه فيه أبو عبيدة في خبر نقله في مجاز القرآن، ١/٤٤ (البقرة، ٢/٦٨)، فقال: «قال أبو عبيدة فقلتُ لرؤبة: إن كانت خطوطٌ فقل: "كأنّها"، وإن كانت سودٌ وبُلقٌ فقل: "كأنّهما"، فقال: كأنّ ذلك ويلك توليعُ البهَق».

---

١ السِّبط مِن اليهود: كالقبيلة في العرب. لسان العرب لابن منظور، «سبط».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٥.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأحمد بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدّوا بما نَقَضوا منها مِن الخشب والحجارةِ أفواهَ الأزِقّة، ولئلّا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمين، ولينقلوا معهم بعضَ آلاتها المرغوبِ فيها ممّا يقبل النقلَ. ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يُخرّبونها إزالةً لمتحصِّنهم ومتمنَّعهم وتوسيعًا لمجال القتالِ ونكايةً لهم. وإسنادُ هذا إليهم لِما أنّهم السبب فيه، فكأنّهم كلّفوهم إيّاه وأمروهم به. قيل: الجملة حال، أو تفسير لـ﴿الرُّعْبَ﴾.[١] وقُرئ: "يُخَرِّبُونَ"[٢] بالتشديد للتكثير. وقيل: الإخرابُ: التعطيل، أو تركُ الشيء خرابًا، والتخريب: النقض والهدم.[٣]

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فاتَّعِظوا بما جرى عليهم مِن الأمور الهائلة على وجه لا يكاد يهتدي إليه الأفكار واتَّقوا مباشرة ما أدّاهم إليه مِن الكفر والمعاصي، أو انتقلوا مِن حال الفريقين إلى حال أنفسكم، فلا تعوِّلوا على تعاضد الأسباب؛ بل توكّلوا على الله عزّ وجلّ، وقد استُدلّ به على حجّيّة القياس، كما فُصِّل في موقعه.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤﴾

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي: الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي كما فُعل ببني قريظةَ، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ استئناف غيرُ متعلِّق بجواب ﴿لَوْلَا﴾، جيء به لبيان أنّهم إن نجَوا مِن عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاةَ لهم مِن عذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما حاق بهم وما سيحيق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وفعلوا ما فعلوا ممّا حُكي عنهم مِن القبائح. ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ وقُرئ: "يُشَاقِقِ اللهَ"[٤] كما في الأنفال.[٥] والاقتصار على ذِكر مُشاقّته تعالى لتضمُّنها لمُشاقّته عليه السلام، / وليُوافق قولَه تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهو إمّا نفس الجزاء [١٨١و]

---

[١] الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٨.
[٢] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.
[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٨.
[٤] قراءة شاذة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.
[٥] الأنفال، ٨/١٣.

قد حُذف منه العائد إلى ﴿مَن﴾ عند مَن يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف، أي: يعاقبه الله، فإنّ الله شديدُ العقاب.

وأيًا ما كان فالشرطيّة تكملة لِما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببيّة بالطريق البرهاني، كأنّه قيل: ذلك الذي حاق بهم مِن العقاب العاجل والآجل بسبب مُشاقّتهم لله تعالى ورسوله، وكلّ[1] مَن يشاقِ الله كائنًا مَن كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديد، فإذن لهم عقابٌ شديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: أيُّ شيء قطعتم مِن نخلة، وهي فِعْلة مِن "اللون"، وياؤها مقلوبة مِن واوٍ لكسرةِ ما قبلها كـ"دِيمة" وتُجمَع على "ألوان". وقيل: مِن "اللِّين" وتُجمَع على "لِيَن" وهي النخلة الكريمة. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لـ﴿مَا﴾، وتأنيثُه لتفسيره باللِّينة كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر، ٢/٣٥]. ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت مِن غير أن تتعرَّضوا لها بشيء ما. وقُرئ: "عَلَى أُصُلِهَا"[2] إمّا على الاكتفاء مِن "الواو" بالضمّ، أو على أنّه جمع كـ"رُهُن". وقُرئ: "قَائِمًا"[3] على أصوله ذهابًا إلى لفظ ﴿مَا﴾. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فذاك، أي: قطعُها وتركُها بأمر الله تعالى.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وليُذِلّ اليهود ويَغيظهم أذِن في قطعها وتركِها؛ لأنّهم إذا رأوا المؤمنين يتحكّمون في أموالهم كيف أحبُّوا، ويتصرَّفون فيها حسبما شاءوا مِن القَطْع والتركِ يزدادون غيظًا ويتضاعفون حسرةً.[4] واستُدلّ به على جواز هدمِ ديار الكفَرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم زيادةً لغيظهم. وتخصيص اللِّينة بالقطع إن كانت مِن الألوان لاستبقاء العَجوة والبَرنيّة اللتين هما كِرامُ النخيل، وإن كانت هي الكِرام ليكون غيظهم أشدَّ.

---

[1] س - كلّ.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[4] وفي هامش م: لأنّ الترك أيضًا لمصلحة المؤمنين. «منه».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ شروع في بيان حالِ ما أُخِذ مِن أموالهم بعد بيان ما حلّ بأنفسهم مِن العذاب العاجل والآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم مِن التخريب والقطع، أي: ما أعاده إليه مِن مالهم. وفيه إشعارٌ بأنّه كان حقيقًا بأن يكون له عليه السلام، وإنّما وقع في أيديهم بغير حقّ فرجعه الله تعالى إلى مستحقّه؛ لأنّه تعالى خَلَق الناس لعبادته وخَلَق ما خَلَق ليتوسَّلوا به إلى طاعته، فهو جدير / بأن يكون للمطيعين. ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: مِن بني النَّضير. [١٨١ظ]

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: فما أجريتم على تحصيله وتغنُّمه مِن الوجيف: وهو سرعة السَّير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هي ما يُركَب مِن الإبل خاصّة، كما أنّ الراكب عندهم راكبُها لا غيرُ، وأمّا راكب الفرس فإنّما يسمُّونه فارسًا، ولا واحدَ لها مِن لفظها، وإنّما الواحدة منها "راحلة"، والمعنى: ما قطعتُم لها شُقّةً بعيدةً ولا لقيتُم مشقّةً شديدةً ولا قتالًا شديدًا؛ وذلك لأنّه كانت قراهم على مِيلين مِن المدينة فمشَوا إليها مشيًا، وما كان فيهم راكب إلّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فافتتحها صُلحًا مِن غير أن تجري بينهم مسايفةٌ، كأنّه قيل: وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصَّلتموه بكدّ اليمين وعرقِ الجبين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: سنّته تعالى جارية على أن يسلّطهم على مَن يشاء مِن أعدائهم تسليطًا خاصًّا، وقد سلّط النبيَّ عليه السلام على هؤلاء تسليطًا غيرَ معتاد مِن غير أن تقتحموا مضايقَ الخطوب وتُقاسُوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارةً على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان لمصارف الفيء بعد بيانِ إفاءته عليه عليه السلام مِن غير أن يكون للمقاتِلة فيه حقٌّ. وإعادةُ عين العبارة الأولى لزيادة التقرير، ووضعُ أهل القرى موضعَ ضميرهم للإشعار بشمول ما لعقاراتهم أيضًا.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «اختُلف في قسمة الفيء، قيل: تُسدَّس لظاهر الآية ويُصرَف سهم الله إلى عِمارة الكعبة وسائر المساجد. وقيل: تُخمَّس؛ لأنّ ذِكر الله للتعظيم، ويُصرَف الآن سهمُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الإمام على قول، وإلى العساكر والثغور على قول، وإلى مصالح المسلمين على قول. وقيل: / يُخمَّس خُمُسه كالغنيمة، فإنّه [١٨٢و] صلّى الله عليه وسلّم كان يقسِّم الخُمُس كذلك، ويصرِف الأخماس الأربعةَ كما يشاء، والآن على الخلاف المذكور».[1]

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيءُ الذي حقُّه أن يكون للفقراء يعيشون به ﴿دُولَةًۢ﴾ بضمّ "الدال"، وقُرئ بفتحها،[2] وهي ما يَدُول للإنسان، أي: يدور مِن الغنى والجَدّ والغَلَبة. وقيل: "الدَّولة" بالفتح مِن "المُلك" بالضمّ، وبالضمّ مِن "المِلك" بكسرها، أو بالضمّ في المال، وبالفتح في النُّصرة،[3] أي: كيلا يكون جَدًّا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولةً جاهليّةً بينكم؛ فإنّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون: «مَن عزّ بزّ».[4] وقيل: الدُّولة بالضمّ: ما يُتداول كالغُرفة: اسم ما يُغترَف، فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئًا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراءَ. والدَّولة بالفتح: بمعنى التداول، فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم، أو كيلا يكون إمساكه تداولًا بينهم لا يُخرِجونه إلى الفقراء.[5] وقُرئ: "دَوْلَةٌ"[6] بالرفع على أنّ "كان" تامّة، أي: كيلا يقع دولة، على ما فُصِّل مِن المعاني.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٩.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والسُّلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٧٩.
٤ المستقصى للزمخشري، ٢/٣٥٧.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٨.
٦ قرأ بها أبو جعفر وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكموه مِن الفيء أو مِن الأمر ﴿فَخُذُوهُ﴾ فإنّه حقّكم أو فتمسّكوا به، فإنّه واجب عليكم. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه أو عن تعاطيه ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته عليه السلام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيُعاقب مَن يُخالف أمرَه ونهيَه.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بدل مِن لـ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عُطف عليه، فإنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يُسمّى فقيرًا. ومَن[1] أعطى أغنياء ذوي القربى خصّ الإبدال بما بعده، وأمّا تخصيصُ اعتبار الفقر بفيء بني النضير[2] فتعسفٌ ظاهر.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرّهم كفّار مكّة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رزقًا في الدنيا ومرضاة في الآخرة، وُصفوا أوّلًا بما يدلّ على استحقاقهم للفيء مِن الإخراج مِن الدّيار والأموال. وقُيِّد ذلك ثانيًا بما يُوجِب تفخيمَ شأنهم ويؤكّده.

[١٨٢ظ] ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ / عطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، فهي حال مقدّرة، أي: ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارِنةٌ، فإنّ خروجهم مِن بين الكفّار مراغِمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرةٌ وأيُّ نصرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل مِن الصفات الحميدة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الراسخون في الصِّدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورًا بيّنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

---

١ وفي هامش م: كالشافعي وأحمدَ رحمهما الله تعالى. «منه».

٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ كلام مستأنَف مسوقٌ لمدح الأنصار بخصال حميدة، مِن جملتها محبّتُهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسنَ رضا وأكمَلَه. ومعنى تبوُّئهم الدار أنّهم اتّخذوا المدينة والإيمان مباءةً وتمكّنوا فيهما أشدّ تمكُّن، على تنزيل الحالِ منزلةَ المكان. وقيل: ضُمِّن التبوّء معنى اللزوم.[١] وقيل: تبوّءوا الدار وأخلصوا الإيمان،[٢] كقول مَن قال:

علفتُها تِبنًا وماءً باردًا[٣]

وقيل: المعنى تبوّءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحُذف المضاف مِن الثاني، والمضاف إليه مِن الأوّل، وعُوِّض منه "اللام". وقيل: سمّى المدينة بالإيمان لكونها مَظهره ومنشأه.[٤]

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قبل هجرة المهاجرين، على المعاني الأُوَل؛ ومِن قبل تبوُّء المهاجرين، على الأخيرين. ويجوز أن يُجعَل اتّخاذ الإيمان مَباءةً ولزومَه وإخلاصَه على المعاني الأُوَل عبارةً عن إقامة كافّة حقوقه التي مِن جملتها إظهارُ عامّة شعائره وأحكامِه، ولا ريبَ في تقدّم الأنصار في ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلبًا واعتقادًا؛ إذ لا يتصوَّر تقدُّمهم عليهم في ذلك.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ خبر للموصول، أي: يحبُّونهم مِن حيث مهاجرتُهم إليهم لمحبّتهم الإيمانَ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ أي: في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي: شيئًا محتاجًا إليه، يقال: "خُذْ منه حاجتَك"، أي: ما تحتاج إليه. وقيل: أثرَ حاجةٍ كالطلب والحَزازة والحسد والغيظ.[٥] ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ممّا أوتيَ المهاجرون مِن الفيء وغيره.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يقدِّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كلّ شيء مِن أسباب المعاش حتّى إنّ مَن كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوِّجها واحدًا منهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وخَلّة، وأصلُها خَصاص البيت: وهي فروجه. والجملة في حيِّز الحال، وقد عرفتَ وجهَه مرارًا.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٨٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٩.
٣ لا يُعلَم قائله. ومضى تخريجه في تفسير الذاريات ٥١/٣٨.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قسَّم أموال بني النَّضير على المهاجرين
[١٨٣و] ولم يُعطِ الأنصار إلّا ثلاثةَ نفر محتاجين: أبا دُجانةَ سِماكَ بن خَرَشةَ / وسهلَ بن حُنَيف والحارثَ بن الصِّمّة،[1] وقال لهم:[2] «إن شئتم قسمتم للمهاجرين مِن أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يُقسَم لكم شيء مِن الغنيمة»، فقالت الأنصار: «بل نقسم لهم مِن أموالنا وديارنا ونُؤثِرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها»، فنزلت.[3] وهذا صريح في أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾... إلخ مستأنَف غير معطوف على ﴿ٱلْفُقَرَآءِ﴾ أو ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾. نعم، يجوز عطفه على ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فإنّ ذلك إنّما يستدعي شركةَ الأنصار للمهاجرين في الصِّدق دون الفيء، فيكون قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ وما عُطف عليه استئنافًا مقرِّرًا لصدقهم، أو حالًا مِن ضمير ﴿تَبَوَّءُو﴾.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ بالضمّ والكسر -وقد قُرئ به أيضًا-[4] اللؤمُ، وإضافتُه إلى النفس لأنّه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل، أي: ومَن يُوقَ بتوفيق الله تعالى شحَّها حتّى يُخالفها فيما يغلب عليها مِن حبّ المال وبُغضِ الإنفاق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار معناها العامّ المنتظِم للمذكورين انتظامًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب الناجون عن كلّ مكروه. والجملة اعتراض واردٌ لمدح الأنصار والثناءِ عليهم. وقُرئ: "يُوَقَّ"[5] بالتشديد.

---

[1] هو الحارث بن الصمّة بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن عامر أبو سعيد. صحب النبيّ عليه الصلاة والسلام وروى عنه. آخى النبيّ بينه وبين صُهيب بن سنان. ذُكر في أهل بدر، وشهد أحدًا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وثبت حين انكشف الناس، وبايعه على الموت. وشهد بئر معونة واستشهد فيها. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٧١/٣؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٩٢/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٧٨/١.

[2] وفي هامش م: أي: للأنصار. «منه».

[3] بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٧/٨؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾

﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلامُ، أو التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل: إنّ الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. وأيًّا ما كان فالموصولُ مبتدأ خبرُه ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ، والجملةُ مسوقة لمدحهم بمحبّتهم لمَن تقدّمهم مِن المؤمنين ومراعاتِهم لحقوق الأخوّة في الدِّين والسَّبق بالإيمان، كما أنّ ما عُطفت عليه مِن الجملة السابقة لمدح الأنصار، أي: يدعون لهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ أي: في الدِّين الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهم مِن النسب. ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصفوهم بذلك اعترافًا بفضلهم. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ وقُرئ: "غِمْرًا"،[1] وهما الحقد. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإطلاق. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغٌ في الرأفة والرحمة، فحقيقٌ بأن تُجيب دعاءنا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ حكايةٌ لِما جرى بين الكفرة والمنافقين مِن الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة، وتعجيبٌ منها بعد حكاية محاسنِ أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم. / والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، [١٨٣ظ] أو لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ استئنافٌ لبيان المتعجَّب منه. وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتبليغ. والمراد بأخوّتهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم وابن غزوان عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

إمّا توافقُهم في الكفر أو صداقتُهم وموالاتُهم. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي: مِن دياركم قسرًا، موطِّئة للقسم. وقوله تعالى: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم، أي: والله لئن أُخرِجتم لنخرجنّ معكم البتّةَ ونذهبنَّ في صحبتكم أينما ذهبتُم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعُنا مِن الخروج معكم ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان.

وقيل: لا نُطيع في قتالكم أو خذلانِكم.[١] وليس بذاك؛ لأنّ تقدير القتال مترقَّب بعد، ولأنّ وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرّدَ عدم طاعتهم لمَن يدعوهم إلى قتالهم؛ بل نصرتهم عليه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لنعاوننّكم على عدوّكم، على أنّ دعوتهم إلى خذلان اليهودِ ممّا لا يمكن صدوره عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين حتّى يدّعوا عدم طاعتهم فيها، ضرورةَ أنّها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنُصرتهم وإظهارِ كفرهم، ولا ريبَ في أنّ ما يفعله عليه السلام عند ذلك قتلُهم لا دعوتُهم إلى ترك نُصرتِهم، وأمّا الخروج معهم فليس بهذه المرتبة مِن إظهار الكفر لجواز أن يدَّعوا أنّ خروجهم معهم لِما بينهم مِن الصداقة الدنيويّة، لا للموافقة في الدين.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾... إلخ تكذيبٌ لهم في كلّ واحد مِن أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكلّ على الإجمال. ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإنّ ابن أُبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النَّضير ذلك سرًّا ثمّ أخلفوهم. وفيه حُجّة بيّنة لصحّة النبوّة وإعجازِ القرآن.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفَرْض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فِرارًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: المنافقون بعد ذلك، أي: يُهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقُهم لظهور كفرهم، أو لينهزمَنّ اليهودُ ثم لا ينفعهم نُصرة المنافقين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مرهوبيّةً، على أنّها مصدر مِن المبنيّ للمفعول. ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رهبتُهم منكم في السرّ أشدُّ ممّا يُظهرونه لكم مِن رهبة الله، فإنّهم كانوا يدَّعون عندهم رهبةً عظيمةً مِن الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن كون رهبتهم منكم أشدَّ مِن رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: شيئًا حتّى يعلموا عظمةَ الله تعالى / فيخشَوه حقَّ خشيته. [١٨٤و]

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهودُ والمنافقون، بمعنى لا يقدِرون على قتالكم ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين متّفقين في موطِن مِن المواطن ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يُصحِرُوا لكم ويُبارزوكم، لفرط رهبتهم. وقُرئ: "جُدْرٍ"[١] بالتخفيف، وقُرئ: "جِدَارٍ"،[٢] وبإمالة فتحة "الدال"،[٣] و"جَدْرٍ"،[٤] و"جَدَرٍ"،[٥] وهما الجِدار.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئناف سِيق لبيان أنّ ما ذُكر مِن رهبتهم ليس لضعفهم وجُبنهم في أنفسهم، فإنّ بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديدٌ، وإنّما ضعفهم وجبنُهم بالنسبة إليكم بما قذف الله عزّ وجلّ في قلوبهم مِن الرعب. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متّفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرِّقة لا ألفةَ بينها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد واليماني، وهارون عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة، وابن جُبير عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن تشتّت قلوبهم بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا حتّى يعرفوا الحقّ ويتّبعوه وتطمئنّ به قلوبهم وتتّحد كلمتهم ويَرمُوا عن قوس واحدة، فيقعون في تِيه الضلال وتتشتّت قلوبهم حسب تشتُّت طرقه وتفرُّق فنونه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: لا يعقلون أنّ تشتّت القلوب ممّا يُوهِن قواهم،[1] فبمَعزِل مِن السَّداد.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف تقديرُه "مَثلُهم"، أي: مَثلُ المذكورين مِن اليهود والمنافقين كمَثل أهل بدر، أو بني قينُقاع على ما قيل: إنّهم أُخرِجوا قبل بني النَّضير.[2] ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابُه بـ(مَثَلِ)؛ إذ التقديرُ كوقوع مَثل... إلخ.

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: سوءَ عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قَدْرُه. والمعنى أنّ حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة، لكن لا على أنّ حال كلّهم كحالهم؛ بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك.

وأمّا حالُ المنافقين فهي ما نطق به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فإنّه خبر ثانٍ للمبتدأ المقدّر مبيِّن لحالهم متضمِّن لحال أخرى لليهود، وهي اغترارهم بمقالة المنافقين أوّلًا وخيبتُهم آخرًا، وقد أُجمِل في النظم الكريم، حيث أُسنِد كلّ مِن الخبرين إلى المقدَّر المضاف إلى ضمير الفريقين مِن غير تعيين ما أُسنِد إليه بخصوصه ثقةً بأنّ السامع يردّ كلًّا مِن المَثلين إلى ما يُماثله. كأنّه قيل: مَثلُ اليهود في حلول العذاب بهم كمَثل الذين مِن قبلهم... إلخ، ومَثل المنافقين في إغرائهم إيّاهم على القتال حسبما نقل عنهم كمَثل الشيطان.

﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: أغراه على الكفر إغراءَ الآمر المأمور على المأمور به، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ وقُرِئ:" أَنَا بَرِيءٌ مِنْكَ".[3] إن أُريدَ

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤-٣٨٢.
[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٣.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

بالإنسان الجنسُ فهذا التبرُّء مِن الشيطان يكون يومَ القيامة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[١] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وإن أريدَ به أبو جهل، فقوله تعالى: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ عبارةٌ عن قول إبليسَ يومَ بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال، ٤٨/٨]، وتبرؤه قولُه يومئذ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ الآية [الأنفال، ٤٨/٨].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها. ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ وقُرئ بالعكس،[٢] وقد مرّ أنّه / أوضحُ. ﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ وقُرئ: "خَالِدَانِ فِيهَا"[٣] على أنّه خبر ﴿أَنَّ﴾ و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لغوٌ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلودُ في النار جزاءُ الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصّة. [١٨٤ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أي: أيَّ شيء قدَّمت ليوم القيامة. عُبِّر عنه بذلك لدنوِّه، أو لأنّ الدنيا كيومٍ والآخرة غدُه. وتنكيره لتفخيمه وتهويله، كأنّه قيل: لغدٍ لا يُعرَف كنهه لغاية عِظَمه، وأمّا تنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل، كأنّه قيل: ولتنظُر نفسٌ واحدة في ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأوّل في أداء الواجبات، كما يُشعِر به ما بعده مِن الأمر بالعمل، وهذا في ترك المحارم، كما يؤذِن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: مِن المعاصي.

---

١ م – تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وزيد بن عليّ والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسُوا حقوقه تعالى وما قدَروه حقَّ قدره، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حقَّ رعايتها، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها حتّى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلّصها، أو أراهم يوم القيامة ما أنساهم أنفسَهم. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسُوا الله تعالى فاستحقُّوا الخلودَ في النار ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين اتّقوا الله فاستحقُّوا الخلودَ في الجنّة. ولعلّ تقديمَ ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذِّكر للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ القصور الذي يُنبِئ عنه عدمُ الاستواء مِن جهتهم لا مِن جهة مقابليهم، فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتَين زيادةً ونقصانًا وإن جاز اعتبارُه بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتبارُه بحسب نُقصانِ الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، إلى غير ذلك مِن المواقع. وأمّا قوله تعالى: / ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، فلعلّ تقديمَ [١٨٥و] الفاضل فيه لأنّ صلته مَلَكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها.

ولا دلالةَ في الآية الكريمة على أنّ المسلم لا يُقتصّ بالكافر وأنّ الكفّار لا يملكون أموالَ المسلمين بالقهر؛[1] لأنّ المراد عدم الاستواء في الأحوال الأخرويّة، كما يُنبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبيّة النار وصاحبيّةِ الجنّة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فإنّه استئناف مبيّن لكيفيّة عدم الاستواءِ بين الفريقين، أي: هم الفائزون بكلّ مطلوب، الناجُون عن كلّ مكروه.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطوي على فنون القوارع ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٣/٤.

مِن الجبال ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه عَلَمًا في القسوة وعدمِ التأثّر ممّا يُصادمه ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقِّقًا منها. وقُرئ: "مُصَّدِعًا"[1] بالإدغام. وهذا تمثيل وتخييل لعُلوّ شأن القرآن وقوّةِ تأثير ما فيه مِن المواعظ، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أريدَ به توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه وعدمِ تخشّعه عند تلاوته وقلّةِ تدبّره فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الحسّ مِن الجواهر القدسيّة وأحوالها وما حضَر له مِن الأجرام وأعراضِها، وتقديمُ الغيب على الشهادة لتقدّمه في الوجود وتعلّق العِلمِ القديم به، أو المعدومِ[2] والموجودِ، أو السرِّ والعلانيةِ.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُرِّر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغ في النزاهة عمّا يُوجِب نقصانًا ما. وقُرئ بالفتح،[3] وهي لغة فيه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة مِن كلّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِف به للمبالغة. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمن. وقُرئ بالفتح[4] بمعنى المؤمَن به على حذف الجارّ. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلّ شيء "مُفَيْعِل" مِن الأمن بقلب همزته هاءً. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَر خلقَه على ما أراد، أو جَبَر أحوالهم، أي: أصلحها. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبّر عن كلّ ما يُوجِب حاجةً أو نقصانًا،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠.

٢ السياق: ما غاب... أو المعدوم...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدّينار والأعرابي وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة وأبي السّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٥.

أو البليغُ الكبرياء والعظمة. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عمّا
يشركونه به تعالى، أو عن إشراكهم به تعالى / إثرَ تعداد صفاته التي لا يمكن أن [١٨٥ظ]
يُشاركه تعالى في شيء منها شيءٌ ما أصلًا.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ المُوجِد لها بريئًا مِن التفاوت. وقيل: المميِّز بعضها مِن بعض بالأشكال المختلفة.[١] ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفيّاتها كما أراد. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينطق بتنزّهه عن جميع النقائص تنزّهًا ظاهرًا. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كافّةً فإنّها مع تكثّرها وتشعّبها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعِلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر».[٢]

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٨٨.

٢ بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٢٦ (الحشر، ٥٩/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٩/٤ (الحشر، ٥٩/١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥٩

سورة الحشر

مدنية، أربع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبَّحَ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: نَزَّهَه ـ فاللام مزيدة، وفي الإتيان بـ «ما» تغليبٌ للأكثر ـ ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في مُلكه وصُنعه. ٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أخرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ﴾ هم بنو النَّضير من اليهود ﴿مِن دِيارِهِم﴾: مساكنهم بالمدينة، ﴿لِأَوَّلِ الحَشرِ﴾ هو حشرهم إلى الشام. وآخرُه أن جلاهم عُمر في خلافته إلى خَيبر، ﴿ما ظَنَنتُم﴾ ـ أيها المُؤمنون ـ............

سورة الحشر

قولُهُ: (فِي مُلْكِهِ) رويَ أنَّه ﷺ لمَّا قدمَ المدينةَ صالحَ بني النَّضيرِ على أن لا يَكونوا له ولا عليه، فلمَّا غلبَ النبيُّ ﷺ قالوا: إنَّه النبيُّ المنعوتُ في التَّوراةِ بالنُّصرةِ، فلمَّا هُزِمَ المسلمونَ يومَ أحدٍ ارتابوا ونكثُوا، وخرجَ كعبُ بنُ الأشرفِ في أربعينَ راكباً إلى مكَّةَ وحالَفوا أبا سفيانَ، فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ محمَّدَ بنَ مسلمةَ أخا كعبٍ من الرَّضاعةِ، فقتلَهُ خديعة ثمَّ صبَّحَهُم بالعسكرِ وحاصرَهُم حتَّى صالَحُوهُ على الجلاءِ، فجلا أكثرُهُم إلى الشَّامِ، ولحقَتْ طائفَةٌ بخيبرَ والحيرةِ، فأنزلَ اللهُ: ﴿سَبَّحَ للهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُهُ: (إِلَى حنين[1]) موضعٌ بينَ مكَّةَ والطَّائفِ، وحُنيناءُ بالشَّامِ، كذا في «القاموسِ»[2]، والثَّاني هو المناسبُ الموافقُ للمَنقولِ.

قولُهُ: (أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ) لشدَّةِ بأسِهِم ومنعَتِهِم.

---

(١) كذا في الأصول، وفي (الجلالين): «إلى خيبر».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٩٢).

﴿أن يَخرُجُوا، وظَنُّوا أَنَّهم مانِعَتُهُم﴾: خبرُ «أنّ» ﴿حُصُونُهُم﴾: فاعلُه تمَّ به الخبر ﴿مِنَ اللهِ﴾: من عذابه، ﴿فأتاهُمُ اللهُ﴾: أمرُه وعذابه ﴿مِن حَيثُ لَم يَحتَسِبُوا﴾: لم يَخطر ببالهم من جِهة المُؤمنين، ﴿وقَذَفَ﴾: ألقى ﴿في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، بسكون العين وضمّها: الخوفَ بقتل سيّدهم كعب بن الأشرف، ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ - بالتشديد، والتخفيف من: أخرَبَ - ﴿بُيُوتَهُم﴾ لينقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره ﴿بِأيدِيهِم وأيدِي المُؤمِنِينَ. فاعتَبِرُوا، يا أُولِي الأبصارِ﴾.

٣ - ٤ - ﴿ولَولا أن كَتَبَ اللهُ﴾: قضى ﴿علَيهِمِ الجَلاءَ﴾ بالخُروج من الوطن ﴿لَعَذَّبَهُم في الدُّنيا﴾ بالقتل والسبي كما فعل بقُريظة من اليهود. ﴿ولَهُم في الآخِرةِ عَذابُ النّارِ. ذلِكَ بِأَنَّهُم شاقُّوا﴾: خالفوا ﴿اللهَ ورَسُولَهُ، ومَن يُشاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾ له.

٥ - ﴿ما قَطَعتُم﴾ ....

قولُهُ: (خَبَرُ: ﴿أَنَّ﴾) وقيل: هو خبرٌ مقدَّمٌ.

قولُهُ: (وعَذَابُهُ) وهو الرُّعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ.

قولُهُ: (لَمْ يَخطُرْ بِبَالِهِم) لقوَّةِ وثوقِهِم.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) لشاميٍّ والكسائيِّ[1].

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) بصريٌّ[2].

قولُهُ: (لِيَنقُلُوا) وبُخلاً بها على المسلمينَ، وقولُهُ تعالى: (﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾) فإنَّهُم أيضاً كانوا يخرِّبونَ ظواهِرَها نِكايةً وتوسيعاً لمجالِ القتالِ، وعطفَها على: ﴿أَيْدِيهِم﴾ من حيثُ إنَّ تخريبَ المؤمنينَ مسبَّبٌ عن بُغضِهِم، فكأنَّهُم استعملوهُم فيه.

قولُهُ: (كمَا فَعَلَ بِقُرَيظَةَ) قالَ ابن[3] إسحاقَ: كانَ إجلاءُ بني النَّضيرِ بعدَ مرجعِ النَّبيِّ ﷺ من أُحدٍ، وفتحُ قريظةَ عندَ مرجعِهِ من الأحزابِ، وبينَهُما سنتانِ[4].

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَهُمْ في الآخِرَةِ﴾) استئنافٌ معناهُ: أنَّهُم إن نجَوا من عذابِ الدُّنيا لم ينجوا من عذابِ الآخرةِ، ويمكنُ أن يكونَ معناهُ: ولهم معَ ذلك.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) في الأصول: «أبو»، والصواب ما أثبته.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٦/ ١٨٥)، و«التفسير البسيط» (٢١/ ٣٦٣).

يا مسلمين ـ ﴿مِن لِينَةٍ﴾: نخلة ﴿أو تَرَكتُمُوها قائمةً عَلَى أُصُولِها فبِإذنِ اللهِ﴾ أي: خيَّركم في ذلك، ﴿ولِيُخزِيَ﴾ بالإذن في القطع ﴿الفاسِقِينَ﴾: اليهود في اعتراضهم بأنّ قطع الشجر المُثمر فسادٌ، ٦ ـ ﴿وما أفاءَ﴾: ردّه ﴿اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنهُم فما أوجَفتُم﴾: أسرعتم ـ يا مسلمين ـ ﴿علَيهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿خَيلٍ ولا رِكابٍ﴾: إبلٍ، أي: لم تُقاسوا فيه مشقّة، ﴿ولكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشاءُ. واللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾. فلا حقّ لكم فيه، ويختصّ به النبيُّ ﷺ ومَن ذُكر معه في الآية الثانية من الأصناف الأربعة، على ما كان يقسمه من أنّ لكُلّ منهم خُمْسَ الخُمسِ، وله ﷺ الباقي يفعل فيه ما يشاء. فأعطى منه المهاجرين وثلاثةً من الأنصار لفقرهم.

٧ ـ ﴿ما أفاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِن أهلِ القُرَى﴾ كالصفراء ووادي القُرى..........

قولُهُ: (يَا مُسلِمُونَ[1]) أي: أيُّ شيءٍ قطعتُم وضميرُ (﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾) لـ﴿ما﴾ وتأنيثُه؛ لأنَّهُ مفسَّرٌ باللِّينةِ.

قولُهُ: (خَيَّرَكُم) بأمرِهِ لرسولِهِ، أو بإرادتِهِ.

قولُهُ: (بالإذنِ) علّةٌ لمحذوفٍ؛ أي: وفعلتُم، أو أذنَ لكم في القطعِ ليخزيَهُم على فسقِهِم بما غاظَهُم منه.

قولُهُ: (فَسَادٌ) رويَ: أنّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أمرَهُم بقطعِ نخيلِهِم، قالوا: يا محمَّدُ؛ قد كنْتَ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ، فما بالُ قطعِ النَّخلِ وتحريقِها؟ فنزلَتْ[2]، واستدلَّ بها على جوازِ هدمِ ديارِ الكفَّارِ وقطعِ أشجارِهِم زيادةً لغيظِهِم.

قولُهُ تعالى: (﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾) أي: جعلَهُ فيئاً له خاصَّةً، أو أعادَهُ عليه؛ بمعنى: صيَّرَهُ له، أو ردَّهُ عليهِ؛ فإنَّهُ كانَ حقيقاً بأن يكونَ له؛ لأنّه تعالى خلقَ النَّاسَ لعبادتِهِ، وخلقَ ما خلقَ لهم ليتوسَّلوا به إلى طاعتِهِ، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعينَ، وهو رئيسُهُم، وقولُهُ: (﴿منهُم﴾) مِن بني النَّضيرِ، أو من الكفرةِ.

قولُهُ: (أَسْرَعْتُم) على تحصيلِهِ.

قولُهُ: (إبلٍ) أي: ما يركَبُو من الإبلِ، غلبَ فيه كما غلبَ الرَّاكبُ على راكبِهِ، وذلك لأنَّ قرى بني النَّضيرِ كانَتْ قريبةً مِن المدينةِ، فمشوا إليها رجالاً غيرَ النَّبيِّ ﷺ فإنَّهُ ركبَ جملاً أو حماراً، ولم يجرِ مزيدُ قتالٍ.

قولُهُ: (لِفَقرِهِم) أي: الثَّلاثةِ.

قولُهُ: (كالصَّفرَاءِ) في «المدارِكِ»[3]: وإنَّما لم يُدخِلِ العاطفَ على هذه الجملةِ؛ لأنَّها بيانٌ للأولى، فهي

---

(١) في بعض الأصول: «يا مسلمين».

(٢) رواه أبو داود في «المراسيل» (٣٤٦) عن المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبي بكر مرسلًا.
ورواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٧١) عن يزيد بن رومان مرسلاً.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٥٧).

ويَنبُعَ ﴿فـلِلهِ﴾ يأمر فيه بما يشاء، ﴿وللرَّسُولِ ولِذِي﴾: صاحبِ ﴿القُربَى﴾: قرابةِ النبيّ من بني هاشم وبني المُطّلب، ﴿واليَتامَى﴾: أطفالِ المُسلمين الذين هلَكت آباؤهم وهم فُقراء، ﴿والمَساكِينِ﴾: ذوي الحاجة من المسلمين، ﴿وابنِ السَّبِيلِ﴾: المُنقطع في سفره من المُسلمين، أي: يستحقّه النبيّ والأصنافُ الأربعة على ما كان يقسمه، من أنّ لكُلّ من الأربعة خُمسَ الخُمس وله الباقي، ﴿كَيلا﴾ ـ كي: بمعنى اللام، «وأن» مُقدّرة بعدها ـ ﴿يَكُونَ﴾: عِلّةٌ لقَسْمه كذلك ﴿دُولَةً﴾: مُتداوَلاً ﴿بَينَ الأغنياءِ مِنكُم، وما آتاكُمُ﴾: أعطاكم ﴿الرَّسُولُ﴾ من الفيء وغيره ﴿فخُذُوهُ، وما نَهاكُم عَنهُ فانتَهُوا. واتَّقُوا اللهَ. إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

منها غيرُ أجنبيَّةٍ عنها، بيَّنَ لرسولِ اللهِ ﷺ ما يصنعُ بما أفاءَ اللهُ عليه، وأمرُهُ أن يضعَهُ حيثُ يضعُ الخمسَ مِن الغنائمِ مقسوماً على الأقسامِ الخمسةِ، وزيَّفَ هذا القولَ بعضُ المفسِّرينَ وقالَ: الآيةُ الأولى نزلَتْ في أموالِ بني النَّضيرِ، وقد جَعلَها اللهُ لرسولِهِ خاصَّةً، وهذه في غنائمِ كلِّ قريةٍ تُؤخَذُ بقوَّةِ الغزاةِ، وفي الآيةِ بيانُ مصرفِها، فهي مبتدأةٌ، لا معطوفةٌ ولا بيانيَّةٌ، وتقدَّمَ في «الأنفالِ»[١] أنَّ سهمَهُ ﷺ الآنَ ساقطٌ، وكذا سهمُ ذوي القربى، وإنَّما يعطَونَ لفقرِهِم.

وقالَ القاضي[٢]: واختُلِفَ في قسمِ الفيءِ فقيل: يُسدَّسُ لظاهرِ الآيةِ، ويُصرَفُ سهمُ اللهِ في عمارةِ الكعبةِ والمساجِدِ، وقيل: يُخمَّسُ لأنَّ ذكرَ اللهِ للتَّعظيمِ، ويُصرَفُ الآنَ سهمُ الرَّسولِ إلى الإمامِ على قولٍ، وإلى العساكرِ والثُّغورِ على قولٍ، وإلى مصالحِ المسلمينَ على قولٍ.

وقالَ البغويُّ[٣]: للشَّافعيِّ قولانِ: أحدُهُما هو للمقاتلةِ، والثَّاني لمصالحِ المسلمينَ، وذهبَ الأكثرونَ إلى أنَّه لا يُخَمَّسُ بل مصرِفُ جميعِهِ واحدٌ ولجميعِ المسلمينَ فيهِ حقٌّ، قرأَ عمرُ بنُ الخطَّابِ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى﴾ حتَّى بلغَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِهِم﴾ ثمَّ قالَ: هذهِ استوعَبَتِ المسلمينَ عامَّةً، وقالَ: ما على وجهِ الأرضِ مسلمٌ إلَّا له في هذا الفيءِ حقٌّ إلَّا ما ملكَت أيمانُكُم، انتهى.

قلتُ: وإلَّا الرَّافضةُ فإنَّهم جاؤوا بعدَهُم، وما استغفَروا لهم بل سبُّوهُم.

قولُهُ: (ويَنْبُعَ) وقيل: قريظةُ والنَّضيرُ وخيبرُ.

قولُهُ: (مُتَدَاوَلاً) أي: كي لا يكونَ الفيءُ الَّذي حقُّهُ أن يكونَ للفقراءِ ﴿دُولَةً﴾ يتداولُهُ الأغنياءُ ويدورُ بينهُم كما كانَ في الجاهليَّةِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من الأمرِ.

---

(١) في الآية رقم: (٤١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩٩).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٥٦).

٨ ـ ﴿لِلفُقَراءِ﴾: مُتعلّقٌ بمحذوف ـ أي: اعجَبوا ـ ﴿المُهاجِرينَ الّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم وأموالِهِم، يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ ورِضواناً، ويَنصُرُونَ اللهَ ورَسُولَهُ! أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، ٩ ـ ١٠ ـ ﴿والّذِينَ تَبَوَّؤوا الدّارَ﴾ أي: المدينةَ ﴿والإيمانَ﴾ أي: أَلِفوه ـ وهم الأنصار ـ ﴿مِن قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ إلَيهِم، ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حاجةً﴾: حسدًا ﴿مِمّا أُوتُوا﴾ أي: آتى النبيُّ ﷺ المُهاجرين من أموالِ بني النَّضير المختصّةِ به، ﴿ويُؤثِرُونَ علَى أنفُسِهِم، ولَو كانَ بِهِم خَصاصةٌ﴾: حاجة إلى ما يُؤثَرون به ـ ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ﴾: حِرصَها على المال........

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ) الصَّحيحُ الَّذي عليه المفسِّرونَ كالبغويِّ[١] والقاضي[٢] وصاحبِ «المدارِكِ»[٣] أنَّه بدلٌ مِن: ﴿لِذِي القُرْبَى﴾، و﴿ما﴾: عطفٌ عليه؛ فإنَّ الرَّسولَ لا يُسَمَّى فقيراً.

قولُهُ: (أي: المَدِينَةَ) في «القاموسِ»[٤]: الدَّارُ: المحلُّ والبلدُ، ومدينةُ النَّبيِّ ﷺ، وهو عطفٌ على: ﴿المهاجرينَ﴾.

قولُهُ: (أي: أَلِفُوهُ) أي: نزَلوا المدينةَ، وأَلِفوا الإيمانَ، أو قبِلوهُ، أو أخلصوهُ، فيكونُ من بابِ:

علفتُهَا تِبْناً وماءً بارداً

وقيل: المعنى تبوَّؤا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ، فحذفَ المضافَ من الثَّاني والمضافَ إليهِ من الأوَّلِ، وعوَّضَ عنه اللَّامَ، وقيل: المعنى: لزِمُوا المدينةَ والإيمانَ وتمكَّنوا فيهما، وهو الأحسنُ، وقولُهُ تعالى: (﴿مِنْ قَبْلِهِم﴾) أي: قبلَ هجرةِ المهاجرينَ.

قولُهُ: (حَسَداً) أي: ما يحملُ عليه الحاجةُ كالطَّلبِ وضِيْقِ النَّفسِ والحسدِ والغَيظِ.

قولُهُ: (أي: آتى) يعني: من أجلِ ما أُعطيَ المهاجرونَ من الفيءِ وغيرِهِ.

قولُهُ: (حَاجَةٌ) أي: يقدمونَ المهاجرينَ خصُوصاً على أنفسِهِم، حتَّى إنَّ من كانَ عندَهُ امرأتانِ نزلَ عن واحدةٍ ـ هي أحسنُ ـ وزوَّجَها مِن أحدِهِم، وكذا من كانَ عندَهُ دارانِ أو بُستانانِ.

قولُهُ: (حِرْصَهَا) حتَّى يخالفَهَا فيما يغلبُ عليها مِن حبِّ المالِ وبُغضِ الإنفاقِ.

---

(١) ولم يصرح البغوي بأنه بدل. انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٥٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٥٨).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٩٣).

﴿فأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ ـ والَّذِينَ جاؤُوا مِن بَعدِهِم﴾: من بعد المُهاجرين والأنصارِ إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ: رَبَّنا، اغفِرْ لَنا ولِإخوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ، ولا تَجعَلْ في قُلُوبِنا غِلًّا﴾: حقدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنا، إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

١١ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إلَى الَّذِينَ نافَقُوا؟ يَقُولُونَ لِإخوانِهِم الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكِتابِ﴾، وهم بنو النَّضير وإخوانهم في الكُفر: ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسَمٍ في الأربعة ـ ﴿أُخرِجتُم﴾ من المدينة ﴿لَنَخرُجَنَّ مَعَكُم، ولا نُطِيعُ فِيكُم﴾: في خِذلانكم ﴿أَحَدًا أبَدًا، وإن قُوتِلتُم﴾ ـ حُذفت منه اللام المُوطّئة ـ ﴿لَنَنصُرَنَّكُم. واللهُ يَشهَدُ إنَّهُم لَكاذِبُونَ﴾. ١٢ ـ ﴿لَئِنْ أُخرِجُوا لا يَخرُجُونَ مَعَهُم، ولَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُم، ولَئِنْ نَصَرُوهُم﴾ أي: جاؤوا لنصرهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ﴾ ـ واستُغنِيَ بجواب القسمِ المُقدّرِ عن جواب الشرط في المواضع الخمسة ـ ﴿ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ أي: اليهودُ. ١٣ ـ ﴿لَأَنتُم أَشَدُّ رَهبَةً﴾: خوفًا ﴿في صُدُورِهِم﴾ أي: المُنافقين ﴿مِنَ اللهِ﴾ لتأخير عذابه. ﴿ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يَفقَهُونَ﴾.

قولُهُ: (فِي الكُفرِ) أو الصَّداقةِ أو الموالاةِ.

قولُهُ: (لامُ قَسَمٍ) الصَّحيحُ: أنَّها موطِّئةٌ للقسمِ، كما تقدَّمَ[1].

قولُهُ: (مِنَ المَدِينَةِ) أو مِن ديارِكُم.

قولُهُ: (في خِذلانِكُم) أو قتالِكُم.

قولُهُ: (حُذِفَتْ) الظَّاهرُ: أنَّه معطوفٌ على الشَّرطِ السَّابقِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لَا يَنْصُرُونَهُم﴾) وكانَ كذلك، فإنَّ ابنَ أُبيٍّ وأصحابَهُ راسَلوا بني النَّضيرِ بذلكَ، ثمَّ أخلفوهُم، وفيهِ دليلٌ على صحَّةِ النُّبوَّةِ وإعجازِ القرآنِ.

قولُهُ: (جَاؤُوا لِنَصرِهِم) على الفرضِ والتَّقديرِ.

قولُهُ: (أي: اليَهُودُ) أو المنافقونَ.

قولُهُ: (خَوفاً) مصدرٌ من المبنيِّ للمفعولِ؛ أي: مرهوبيَّةً.

قولُهُ: (أي: المُنَافِقِينَ) لأنَّهُم كانوا يُضْمِرونَ مخافتَهُم من المؤمنينَ.

قولُهُ: (لِتَأخِيرِ عَذَابِهِ) أو على ما يظهِرونَهُ نفاقاً؛ فإنَّ استبطانَ رهبتِكُم سببٌ لإظهارِ رهبةِ اللهِ.

---

(١) انظر الآية رقم: (٨١) من سورة آل عمران.

١٤ ـ ﴿لا يُقاتِلُونكم﴾ أي: اليهودُ ﴿جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ ﴿إلاّ في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو مِن وَراءِ جِدارٍ﴾: سُور. وفي قِراءة: «جُدُرٍ». ﴿بأسُهم﴾: حربهم ﴿بَينَهُم شَدِيدٌ. تَحسِبُهُم جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ، ﴿وقُلُوبُهُم شَتَّى﴾: مُتفرِّقةٌ خِلافَ الحِسبان. ﴿ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يَعقِلُونَ﴾. مَثَلُهم في ترك الإيمان ١٥ ـ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم قَرِيبًا﴾: بزمن قريب، وهم أهل بدر من المُشركين. ﴿ذاقُوا وَبالَ أمرِهِم﴾: عُقوبتَه في الدنيا من القتل وغيره، ﴿ولَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم في الآخرة. مَثَلُهم أيضًا، في سماعهم من المُنافقين وتخلّفهم عنهم، ١٦ ـ ﴿كَمَثَلِ الشَّيطانِ، إذ قالَ لِلإنسانِ: اكفُرْ. فلَمّا كَفَرَ قالَ: إنِّي بَرِيءٌ مِنكَ، إنِّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ﴾. كذبٌ منه ورياء. ١٧ ـ ﴿فكانَ عاقِبَتَهُما﴾ أي: الغاوي والمُغوِي ـ وقُرِئ بالرفع ـ ﴿أنَّهُما في النّارِ خالِدَينِ فِيها. وذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللهَ، ولْتَنظُرْ نَفسٌ ما قَدَّمَت لِغَدٍ﴾: ليوم القِيامة،.......

قولُهُ: (أي: اليَهودُ) أو المنافقونَ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وكوفيٍّ[1].

قولُهُ: (مُتَفَرِّقَةٌ) لافتراقِ عقائدِهِم واختلافِ مقاصدِهِم.

قولُهُ: (مثلُهُم) أي: مثلُ اليهودِ.

قولُهُ: (بِزَمَنٍ) أي: في زمانٍ، وانتصابُهُ بـ﴿مثل﴾؛ إذ التَّقديرُ: كوجودِ مثلِ.

قولُهُ: (عُقُوبَتَهُ) أي: سوءَ عاقبةِ كفرِهِم.

قولُهُ: (مُؤلِمٌ) في العُقبى.

قولُهُ: (مثلُهُم أيضاً) أو مثلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهودِ على القتالِ.

قولُهُ تعالى: (﴿لِلإِنْسَانِ﴾) قيل: هو برصيصا العابدُ[2]، حملَ على الفجورِ والارتدادِ، وقيل: أبو جهلٍ، قالَ له إبليسُ يومَ بدرٍ: لا غالبَ لكُم اليومَ، والظَّاهرُ أنَّ المرادَ: الجنسُ.

قولُـهُ: (بالرَّفـعِ) على أنَّهما الخبـرُ لـ﴿كانَ﴾، و﴿خَالِدِيْنَ﴾ حالٌ، وقُـرِئَ: (خَالِدَانِ)[3] علـى أنَّه الخبرُ لـ﴿أنَّ﴾، و﴿في النَّارِ﴾ لغوٌ.

قولُهُ: (لِيَومِ القِيَامَةِ) سمَّاهُ به لدنوِّهِ، أو لأنَّ الدُّنيا كيومٍ والآخرةَ غدُهُ، وكرَّرَ: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ للمأموراتِ، والثَّاني للمنهيَّاتِ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود والأعمش وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٧٠).

﴿واتَّقُوا اللهَ ـ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعمَلُونَ ـ ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللهَ﴾: تركوا طاعته، ﴿فأنساهُم أنفُسَهُم﴾، أن يُقدّموا لها خيرًا. ﴿أُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ. لا يَستَوِي أصحابُ النّارِ وأصحابُ الجَنّةِ. أصحابُ الجَنّةِ هُمُ الفائزُونَ﴾.

٢١ ـ ﴿لَو أنزَلْنا هذا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾، وجُعل فيه تمييز كالإنسان، ﴿لَرَأَيتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾: مُتشقّقًا ﴿مِن خَشيَةِ اللهِ. وتِلكَ الأمثالُ﴾ المذكورة ﴿نَضرِبُها لِلنّاسِ، لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيُؤمنون. ٢٢ ـ ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: السرّ والعلانية. ﴿هُوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٣ ـ ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ، المَلِكُ القُدُّوسُ﴾: الطاهر عمّا لا يليق به، ﴿السَّلامُ﴾: ذُو السلامة من النقائص، ﴿المُؤمِنُ﴾: المُصدّق رسلَه بخلق المعجزة لهم، ﴿المُهَيمِنُ﴾ ـ مِن: هَيمَنَ يُهَيمِنُ، إذا كان رقيبًا على الشيء ـ أي: الشهيدُ على عِباده بأعمالهم، ﴿العَزِيزُ﴾: القويّ، ﴿الجَبّارُ﴾ جَبرَ خلقَه على ما أراد، ﴿المُتكَبِّرُ﴾ عمّا لا يليق به. ﴿سُبحانَ اللهِ﴾ نَزَّهَ نفسَه ﴿عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به! ٢٤ ـ ﴿هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِئُ﴾: المُنشئ من العدم، ﴿المُصَوِّرُ، لَهُ الأسماءُ الحُسنَى﴾ التسعةُ والتسعون الواردُ بها الحديثُ ـ والحسنى: مُؤنّث الأحسن ـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّماواتِ والأرضِ، وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ تقدّمَ أوّلَها.

قولُهُ: (أنْ يُقَدِّمُوا) أو أراهُم يومَ القيامةِ من الهولِ ما أنساهُم أنفسَهُم.

قولُهُ: (فَيُؤمِنُونَ) أو فيعمَلونَ به، والمرادُ: توبيخُ الإنسانِ على عدمِ تخشُّعِهِ عند تلاوةِ القرآنِ وسماعِهِ؛ لقساوةِ قلبِهِ، وقلّةِ تدبُّرِهِ.

قولُهُ: (السِّرِّ والعَلانِيةِ) أو المعدومِ والموجودِ.

قولُهُ: (ذُو السَّلامَةِ) أو مصدرٌ وُصفَ به للمُبالغةِ.

قولُهُ: (المُصَدِّقُ) أو واهبُ الأمنِ.

قولُهُ: (جَبرَ خلقَهُ) أو جبرَ حالَهُم؛ بمعنى: أصلحَهُ.

قولُهُ: (عَمّا لا يَلِيقُ) أو عن كلِّ ما يوجِبُ حاجةً.

قولُهُ: (نَزَّهَ) يحتملُ الماضي والأمرَ.

قولُهُ: (بِهِ) إذ لا يشاركُهُ أحدٌ في شيءٍ من ذلكَ.

قولُهُ: (المُنشِئُ) أو (﴿الخالقُ﴾) المقدّرُ للأشياءِ على مُقتَضى حكمتِهِ (﴿البارئُ﴾) الموجدُ لها بريئًا من التّفاوتِ، (﴿المصوِّرُ﴾) الموجدُ لصورِها وكيفيّاتِها كما أرادَ.

قولُهُ: (تَقَدَّمَ أوّلَها) أي: في أوّلِ السُّورةِ، وحاصلُهُ هنا: أنّه يسبّحُ لتنزُّهِهِ عنِ النّقائصِ كُلِّها، وهو الجامعُ للكمالاتِ بأسرِها؛ فإنّها راجعةٌ إلى الكمالِ في القدرةِ والعلمِ، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

سورة الحشر

قال البقاعيُّ: وتسمَّى سورة: بني النضير[1]. وأخرج البخاريُّ[2] وغيره عن ابن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر. قال: قلْ: سورة بني النضير. قال ابن حجر: كأنه كَرِهَ تسميتها بالحشر؛ لئلّا يظنَّ أنَّ المراد به يوم القيامة[3]. وإنما المراد هاهنا إخراج بني النضير.

وهي مدنيَّةٌ، وآيُها أربعٌ وعشرون بلا خلاف.

ومناسبتها لما قبلها أنَّ في آخر تلك: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ وفي أول هذه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وفي آخر تلك ذِكْرُ مَنْ حادَّ الله ورسوله، وفي أول هذه ذِكْرُ مَنْ شاقَّ الله ورسوله، وأنَّ في الأولى ذِكْرُ حال المنافقين واليهود وتَوَلّي بعضهم بعضاً، وفي هذه ذِكْرُ ما حَلَّ باليهود، وعدمُ إغناء تَوَلّي المنافقين إياهم شيئاً، فقد روي أنَّ بني النضير كانوا قد صالحوا رسولَ الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظَهَرَ يومَ بدر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِتَ في التوراة، لا تُرَدُّ له راية. فلما هُزِمَ المسلمونَ يومَ أُحدٍ، ارتابوا ونكثوا، فخرج كعبُ بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأخبر جبريلُ عليه السلام الرسولَ ﷺ بذلك، فأمر بقتل كعبٍ، فقتله محمدُ بن مسلمة غِيلةً وهو عروسٌ، بعد أن أخذ بفَوْد[4] رأسه أخوه رضاعاً أبو نائلةَ سِلْكان بن سلامة أحدُ بني عبد الأشهل، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطَّلع منهم

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور ١٩/ ٤٠٢.
(٢) برقم (٤٨٨٣).
(٣) فتح الباري ٧/ ٣٣٢.
(٤) الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. القاموس المحيط (فود).

على خيانةٍ حين أتاهم يستعينهم في ديةِ المسْلِمَين من بني عامر[١] اللَّذَين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري عند منصرفه من بئر معونة، فهمُّوا بطَرْح الحجر عليه ﷺ، فعَصَمُه الله تعالى.

وبعد أن قُتِلَ كعبٌ بأشهرٍ على الصحيح لا على الأثر كما قيل، أَمَرَ ﷺ بالتهيُّؤ لحربهم والسير إليهم، وكان ذلك سنةَ أربعٍ في شهر ربيعٍ الأول، وكانوا بقريةٍ يقال لها: الزهرة، فسار المسلمون معه عليه الصلاة والسلام وهو على حمارٍ مخطومٍ بليف، وقيل: على جملٍ، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، حتى إذا نزل ﷺ بهم وجدهم ينوحون على كعبٍ، وقالوا: ذَرْنا نبكي شجوناً، ثم ائتمرْ أمرك، فقال: «اخرجوا من المدينة» فقالوا: الموتُ أقربُ لنا من ذلك، فتنادَوا بالحرب، وقيل: استمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرةَ أيامٍ ليتجهَّزوا للخروج، ودَسَّ المنافقونَ عبدُ الله بن أبيٍّ وأضرابه إليهم أن لا يخرجوا من الحِصْن، فإن قاتلوكم فنحن معكم، ولننصرنَّكم، وإن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم، فَدُرِّبوا على الأَزِقَّة وحصَّنوها، ثم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فقالوا: اخرجْ في ثلاثينَ من أصحابك، ويخرجُ منَّا ثلاثون ليسمعوا منك، فإن صدَّقوك آمنَّا كلّنا، ففعل، فقالوا: كيف نفهمُ ونحن ستُّون، اخرجْ في ثلاثةٍ، ويخرجُ إليك ثلاثةٌ من علمائنا، ففعل عليه الصلاة والسلام، فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك، فأرسلتِ امرأةٌ منهم ناصحةً إلى أخيها وكان مسلماً، فأخبرته بما أرادوا فأسرعَ إلى الرسول ﷺ فسارَّه بخبرهم قبل أن يصلَ إليهم، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم ـ على ما قال ابن هشام في «سيرته»[٢] ـ ستَّ ليالٍ، وقيل: إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعبَ وأَيسوا من نَصْر المنافقين، فطلبوا الصُّلحَ، فأبى عليه الصلاة والسلام عليهم إلا الجلاء، على أن يحملَ كلُّ ثلاثةٍ أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من المتاع، فَجَلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات، إلا أهل بيتين منهم: آل سلام بن أبي الحقيق وآل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وآل حُيَي بن أخطب، فلحقوا

(١) في هامش الأصل: وكان بينهم وبين بني النضير عقد.
(٢) ٢/ ١٩١.

بخيبر، ولحقتْ طائفةٌ بالحيرة، وقَبضَ النبيُّ ﷺ أموالهم وسلاحهم، فوجد خمسين دِرْعاً وخمسين بيضةً وثلاثَ مئةٍ وأربعين سيفاً، وكان ابن أبيٍّ قد قال لهم: معي ألفان من قومي وغيرهم أُمدُّكم بها، وتمدُّكم قريظةُ وحلفاؤكم من غَطَفان، فلما نازلهم ﷺ اعتزلتهم قريظة، وخَذَلهم ابن أبيٍّ وحلفاؤهم من غطفان، فأنزل الله تعالى قوله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾[1] وتقدَّم الكلامُ على نظير هذه الجملة في صَدْر سورة الحديد، وكُرِّرَ الموصولُ هاهنا لزيادة التقرير، والتنبيهِ على استقلال كلٍّ من الفريقين بالتسبيح.

وقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بيانٌ لبعض آثار عِزَّته تعالى، وأحكام حكمته عزَّ وجلَّ إثرَ وَصْفه تعالى بالعِزَّة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق.

والمراد بـ «الذين كفروا» بنو النضير ـ بوزن الأمير ـ وهم قبيلةٌ عظيمةٌ من يهود خيبر كبني قُريظة، ويقال للحَيَّين: الكاهنان؛ لأنهما من ولد الكاهن بن هارون كما في «البحر»[2]، ويقال: إنهم نزلوا قريباً من المدينة في فئةٍ من بني إسرائيل انتظاراً لخروج الرسول ﷺ، فكان من أمرهم ما قصَّه الله تعالى.

وقيل: إنَّ موسى عليه السلام كان قد أرسلهم إلى قتل العماليق، وقال لهم: لا تستحيوا منهم أحداً، فذهبوا ولم يفعلوا وعصوا موسى عليه السلام، فلما رجعوا

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٠ وما بعدها، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٢. وقصة قتل كعب بن الأشرف عند البخاري (٤٠٣٧).

(٢) ٨/ ٢٤٢.

إلى الشام وجدوه قد مات عليه السلام، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاةُ الله تعالى، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فانصرفوا إلى الحجاز، إلى أن كان ما كان.

وروي عن الحسن أنهم بنو قريظة. وهو وَهْمٌ كما لا يخفى.

والجارُّ الأول متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: كائنين من أهل الكتاب، والثاني متعلِّقٌ بـ «أخرج». وصحَّتْ إضافةُ الديار إليهم؛ لأنهم كانوا نزلوا بَرِّيَّةً لا عُمران فيها، فبنوا فيها وسكنوا. وضمير «هو» راجعٌ إليه تعالى بعنوان العِزَّة والحكمة؛ إما بناءً على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدةٍ تامةٍ من المقام، أو على جَعْله مستعاراً لاسم الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦] أي: بذلك، فكأنه قيل: ذلك المنعوتُ بالعِزَّةِ والحكمة الذي أخرج.. إلخ، ففيه إشعارٌ بأنَّ في الإخراج حكمة باهرة.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ متعلِّقٌ بـ «أخرج»، واللامُ لامُ التوقيت، كالتي في قولهم: كتبته لعشرٍ خلونَ، ومآلها إلى معنى «في» الظرفية، ولذا قالوا هنا، أي: في أول الحشر، لكنهم لم يقولوا: إنها بمعنى «في» إشارة إلى أنها لم تخرجْ عن أصل معناها، وأنها للاختصاص؛ لأنَّ ما وقع في وقتٍ اختصَّ به دون غيره من الأوقات.

وقيل: إنها للتعليل. وليس بذاك.

ومعنى «أول الحشر» أنَّ هذا أولُ حشرهم إلى الشام، أي: أول ما حُشروا وأُخرجوا، ونبّه بالأولية على أنهم لم يُصبهمْ جلاءٌ قبل، ولم يُجْلِهِمْ بُخْتنصَّر حين أجلى اليهود بناءً على أنهم لم يكونوا معهم إذ ذاك، وأنَّ نقلهم من بلاد الشام إلى أرض العرب كان باختيارهم، أو لم يُصبهم ذلك في الإسلام، أو على أنهم أولُ محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، ولا نظر في ذلك إلى مقابلة الأول بالآخر، وبعضهم يعتبرها، فمعنى أول الحشر أنَّ هذا أولُ حشرهم، وآخرُ حشرهم إجلاءُ عمرَ رضي الله عنه إياهم من خيبرَ إلى الشام، وقيل: آخرُ حشرهم حشرهم يوم القيامة؛ لأنَّ المحشر يكون بالشام.

وعن عكرمة: مَنْ شكَّ أنَّ المحشر هاهنا ـ يعني الشام ـ فليقرأ هذه الآية. وكأنه أخذ ذلك من أنَّ المعنى: لأول حَشْرِهم إلى الشام، فيكون لهم آخر حشرٍ إليه أيضاً ليتمَّ التقابل، وهو يوم القيامة من القبور، ولا يخفى أنه ضعيفُ الدلالة.

وفي «البحر» عن عكرمة والزهري أنهما قالا: المعنى: لأول موضع الحشر، وهو الشام، وفي الحديث أنه ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[1]. ولا يخفى ضَعْفُ هذا المعنى أيضاً.

وقيل: آخرُ حَشْرهم أنَّ ناراً تخرجُ قبل الساعة، فتحشرهم كسائر الناس من المشرق إلى المغرب.

وعن الحسن أنه أُريد حَشْرُ القيامة، أي: هذا أوله، والقيامُ من القبور آخره، وهو كما ترى.

وقيل: المعنى: أَخرجهم من ديارهم لأول جَمْعٍ حَشَرَهُ النبيُّ ﷺ، أو حَشَرَهُ الله عزَّ وجلَّ لقتالهم؛ لأنه ﷺ لم يكن قبلُ قَصَدَ قتالهم، وفيه من المناسبة لوصف العِزَّة ما لا يخفى، ولذا قيل: إنه الظاهر.

وتُعقِّبَ بأنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن جمع المسلمين لقتالهم في هذه المرة أيضاً، ولذا رَكِبَ عليه الصلاة والسلام حماراً مخطوماً بليفٍ، لعدم المبالاة بهم. وفيه نظر.

وقيل: لأول جمعهم للمقاتلة مع المسلمين؛ لأنهم لم يجتمعوا لها قبل.

والحشر: إخراجُ جَمْعٍ سواء كان من الناس لحربٍ أو لا، نعم يُشترطُ فيه كونُ المحشور جَمْعاً من ذوي الأرواح لا غير. ومشروعيةُ الإجلاء كانت في ابتداء الإسلام، وأما الآن فقد نُسختْ، ولا يجوز إلا القتل أو السَّبيُ أو ضَرْبُ الجزية.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟ۖ﴾ لشِدَّةِ بأسهم ومَنَعَتهم، ووثاقة حصونهم، وكَثْرة عَدَدهم وعُدَّتهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٤٣، والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٢٢١، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية عن ابن عباس ﵄، وفي إسناده سعيد بن المرزبان وهو ضعيف.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنُّوا أنَّ حصونهم مانعتهم، أو تمنعهم من بأس الله تعالى، فـ «حصونهم» مبتدأٌ، و«مانعتهم» خبرٌ مقدَّمٌ، والجملةُ خبرُ «أنَّ». وكان الظاهرُ لمقابلة «ما ظننتم أن يخرجوا»: وظنُّوا أن لا يخرجوا، والعدول إلى ما في النظم الجليل؛ للإشعار بتفاوت الظَّنَّين، وأنَّ ظَنَّهم قارَبَ اليقين، فناسَبَ أن يُؤتَى بما يدلُّ على فَرْطِ وُثوقهم بما هم فيه، فجيءَ بـ «مانعتهم» و«حصونهم» مقدّماً فيه الخبر على المبتدأ؛ ومدارُ الدلالة التقديمُ، لما فيه من الاختصاص، فكأنه لا حِصْنَ أمنعُ من حصونهم، وبما يدلُّ على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عِزَّةٍ ومنعةٍ لا يُبالَى معهما بأحدٍ يتعرَّضُ لهم، أو يطمعُ في معازَّتهم، فجيءَ بضمير «هم» وصُيِّرَ اسماً لـ «أنَّ» وأُخبر عنه بالجملة لما في ذلك من التقوِّي على ما في «الكشف» و«شرح الطيبيِّ». وفي كون ذلك من باب التقوِّي بحثٌ.

ومنع بعضُهم جوازَ الإعراب السابق بناءً على أنَّ تقديمَ الخبر المشتقِّ على المبتدأ المحتمِل للفاعلية لا يجوز، كتقديم الخبر إذا كان فعلاً، وصُحِّحَ الجوازُ في المشتقِّ دون الفعل، نعم اختار صاحب «الفرائد» أن يكون «حصونهم» فاعلاً لـ «مانعتهم» لاعتماده على المبتدأ.

وجوِّز كونُ «مانعتهم» مبتدأ، خبره: «حصونهم»، وتُعقِّبَ بأنَّ فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة إن كانت إضافةً مانعةً لفظيةً، وعدم كون المعنى على ذلك إن كانت معنويةً بأن قصد استمرار المنع، فتأمل.

وكانت حصونهم ـ على ما قيل ـ أربعةٌ: الكَتيبة، والوَطِيح، والسُّلالم، والنَّطاة، وزاد بعضُهم: الوَخْدة[1]، وبعضُهم: شقّا، والذي في «القاموس»[2] أنه موضعٌ بخيبر، أو وادٍ به.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): الكتيبة بالتاء المثناة والتصغير. والوطيح بفتح الواو وكسر الطاء وبالحاء المهملة. والسلالم بضم السين، وقيل: بفتحها. ويقال فيه: السلاليم. والنطاة من النَّطو: البعد. والوخدة: بفتح الواو وسكون المعجمة وبالدال مهملة اهـ منه.

(٢) مادة (شقق).

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه سبحانه، وقَدَرُه عزَّ وجلَّ المتاحُ لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطرْ ببالهم؛ وهو ـ على ما روي عن السدي وأبي صالح وابن جريج ـ قَتْلُ رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنه مما أضعفَ قوَّتهم وفلَّ شوكتهم، وسَلَبَ قلوبهم الأمنَ والطمأنينةَ.

وقيل: ضمير «أتاهم» و«لم يحتسبوا» للمؤمنين، أي: فأتاهم نَصْرُ الله من حيث لم يحتسبوا، وفيه تفكيكُ الضمائر.

وقرئ: «فآتاهم الله»[1] وهو حينئذٍ متعدٍّ لمفعولين، ثانيهما محذوف، أي: فآتاهم الله العذابَ أو النصرَ.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: الخوفَ الشديدَ، من رَعَبْتُ الحوضَ: إذا ملأتَهُ؛ لأنه يتصوَّرُ فيه أنه مِلْءُ القلب، وأصلُ القذف: الرميُ بقوةٍ أو من بعيد، والمراد به هنا ـ للعُرْف ـ إثباتُ ذلك ورَكْزُه في قلوبهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدُّوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواهَ الأزِقَّة، ولئلَّا تبقى صالحةً لسُكنى المسلمين بعد جلائهم، ولينقلوا بعضَ آلاتها المرغوب فيها مما يقبلُ النقلَ كالخشب والعُمُد والأبواب.

﴿وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يُخربونها من خارجٍ ليدخلوها عليهم، وليزيلوا تحصُّنَهم بها، وليتَّسعَ مجالُ القتال، ولتزدادَ نكايتهم، ولَمَّا كان تخريبُ أيدي المؤمنين بسببِ أمرِ أولئك اليهود، كان التخريبُ بأيدي المؤمنين كأنه صادرٌ عنهم، وبهذا الاعتبار عُطفتْ «أيدي المؤمنين» على «أيديهم» وجُعلتْ آلَةً لتخريبهم، مع أنَّ الآلةَ هي أيديهم أنفسهم، فـ «يُخربون» على هذا إما من الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو من عموم المجاز، والجملةُ إما في محلِّ نصبٍ على الحالية من ضمير «قلوبهم»، أو لا محلَّ لها من الإعراب، وهي إما مستأنفةٌ جوابٌ عن سؤالٍ تقديره: فما حالُهم بعد الرعب أو معه؟ أو تفسيرٌ للرعب بادِّعاء الاتحاد؛ لأنَّ ما فعلوه يدلُّ على رُعْبهم؛ إذ لولاه ما خربوها.

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٠.

وقرأ قتادةُ والجحدريُّ ومجاهدٌ وأبو حيوة وعيسى وأبو عمرو: «يُخرِّبون» بالتشديد[١]، وهو للتكثير في الفعل أو في المفعول، وجُوِّزَ أن يكون في الفاعل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: خَرَّبَ بمعنى: هَدَمَ وأفسدَ، وأَخْرَبَ: تَرَكَ الموضِعَ خراباً وذهبَ عنه، فالإخرابُ يكون إِثْرَ التخريب، وقيل: هما بمعنًى، عُدِّيَ خرَّبَ اللازم بالتضعيف تارةً، وبالهمزة أخرى.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ فاتَّعِظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تكادُ تهتدي إليه الأفكار، واتقوا مباشرةَ ما أدَّاهم إليه من الكفر والمعاصي، واعبروا من حالهم في غَدْرهم واعتمادهم على غير الله تعالى ـ الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، ومفارقة أوطانهم مُكرَهين ـ إلى حالِ أنفسكم، فلا تُعوِّلوا على تعاضُدِ الأسباب، وتعتمدوا على غيره عزَّ وجلَّ، بل توكَّلوا عليه سبحانه.

واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: إنه تعالى أَمَرَ فيها بالاعتبار، وهو العُبور والانتقالُ من الشيء إلى غيره، وذلك متحقِّقٌ في القياس، إذ[٢] فيه نقلُ الحكم من الأصل إلى الفرع، ولذا قال ابن عباس في الأسنان: اعتُبرَ حُكْمها بالأصابعِ في أنَّ ديتها متساوية، والأصلُ في الإطلاق الحقيقة، وإذ ثبت الأمر ـ وهو ظاهرٌ في الطَّلب الغير الخارج عن اقتضاء الوجوب أو الندب ـ ثبتتْ مشروعيةُ العمل بالقياس.

واعترض بعد تسليم ظهور الأمر في الطلب بأنَّا لا نسلِّمُ أنَّ الاعتبارَ ما ذكر، بل هو عبارةٌ عن الاتعاظ؛ لأنه المتبادرُ حيث أُطلق، ويقتضيه في الآية ترتيبهُ بالفاء على ما قبله كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]، ولأنَّ القائسَ في الفرع إذا قَدَمَ على المعاصي ولم يتفكَّرْ في أَمْرِ آخرته، يقال: إنه غيرُ مُعتبرٍ، ولو كان القياسُ

---

(١) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤.

(٢) في (م): إذا.

هو الاعتبارَ لم يصحَّ هذا السلب. سلَّمنا، لكنْ ليس في الآية صيغةُ عموم تقتضي العمل بكلِّ قياسٍ، بل هي مطلقةٌ فيكفي في العمل بها العمل بالقياس العقليِّ. سلَّمنا، لكنَّ العامَّ مخصَّصٌ بالاتفاق؛ إذ قلتم: إنه إذا قال لوكيله: أعتقْ غانماً لسواده، لا يجوز تعدِّيه ذلك إلى سالم، وإن كان أسود، وهو بعد التخصيص لا يبقى حُجَّةً فيما عدا محلِّ التخصيص. سلَّمنا، غيرَ أنَّ الخطابَ مع الموجودين وقته، فيختصُّ بهم.

وأجيب بأنه لو كان الاعتبارُ بمعنى الاتعاظ حيث أطلق، لما حَسُنَ قولهم: اعتبر فاتعظ؛ لما يلزمُ فيه حينئذٍ من ترتُّبِ الشيء على نفسه، وترتيبُه في الآية على ما قبله لا يمنعُ كونَه بمعنى الانتقال المذكور؛ لأنه متحقِّقٌ في الاتعاظ؛ إذ المتعظُ بغيره منتقلٌ من العلم بحال ذلك الغير إلى العلم بحال نفسه، فكان مأموراً به من جهة ما فيه من الانتقال، وهو القياس، والآيتان على ذلك، ولا يصحُّ غير معتبر في القائس العاصي نظراً إلى كونه قائساً، وإنما صَحَّ ذلك نظراً إلى أمرِ الآخرة، وأُطلق النفيُ نظراً إلى أنه أعظمُ المقاصد وقد أخلَّ به، والآيةُ إن دلَّتْ على العموم فذاك، وإن دلَّتْ على الإطلاق وَجَبَ الحملُ على القياس الشرعيِّ؛ لأنَّ الغالبَ من الشارع مخاطبتنا بالأمور الشرعية دون غيرها، وقد برهنَ على أنَّ العامَّ بعد التخصيص حُجَّة، وشمولُ حُكْمِ خطاب الموجودين لغيرهم إلى يوم القيامة قد انعقد الإجماعُ عليه، ولا يضرُّ الخلافُ في شمول اللفظ وعدمه، على أنه إن عَمَّ أو لم يَعُمَّ هو حُجَّةٌ على الخصوم في بعض محلِّ النزاع، ويلزمُ من ذلك الحكم في الباقي ضرورةَ أنه لا يقول بالفرق.

هذا وقال الخفاجيُّ في وجه الاستدلال: قالوا: إنَّا أُمرنا في هذه الآية بالاعتبار، وهو رَدُّ الشيء إلى نظيره بأن يُحكَمَ عليه بحكمه، وهذا يشملُ الاتعاظَ والقياسَ العقليَّ والشرعيَّ، وسَوْقُ الآية للاتعاظ، فتدلُّ عليه عبارةً وعلى القياس إشارةً[1]. وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٧٦.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: الإخراجَ ـ أو الخروجَ ـ عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل كأهل بدرٍ وغيرهم، أو كما فعل سبحانه ببني قُريظة في سنة خمسٍ؛ إذ الحكمةُ تقتضيه لو لم يكتب الجلاء عليهم.

وجاء: أجليتُ القومَ عن منازلهم، أي: أخرجتهم عنها وأبرزتهم، وجَلُوا عنها: خَرَجوا وبرزوا، ويقال أيضاً: جلاهم. وفرَّقَ بعضُهم بين الجلاء والإخراج، بأنَّ الجلاءَ ما كان مع الأهل والولد، والإخراجَ قد يكون مع بقاءِ الأهل والولد.

وقال الماورديُّ[1]: الجلاءُ لا يكون إلا لجماعة، والإخراجُ قد يكون لواحدٍ ولجماعة.

ويقال فيه: الجلأ، مهموزاً من غير ألفٍ كالنبأ، وبذلك قرأ الحسن بن صالح، وأخوه عليُّ بن صالح، وطلحة[2].

و«أنْ» مصدريةٌ، لا مخفَّفةٌ، واسمها ضميرُ شأنٍ كما تُوْهِمُه عبارة «الكشاف»[3]، وقد صرَّح بذلك الرضيُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾ استئنافٌ غيرُ متعلِّقٍ بجواب «لولا» أي: إنهم إن نجوا من عذاب الدنيا ـ وهو القتل ـ لأمرٍ أشَقّ عليهم وهو الجلاء، لم ينجوا من عذاب الآخرة، فليس تمتُّعهم أياماً قلائلَ بالحياة وتهوينُ أمر الجلاء على أنفسهم بنافع. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القتلَ أشدُّ من الجلاء، لا لذاته، بل لأنهم يَصلُون عنده إلى عذاب النار، وإنما أُوثر الجلاءُ لأنه أشقُّ عندهم، وأنهم غيرُ معتقدين لِمَا أمامهم من عذاب النار، أو معتقدون ولكن لا يُبالون به بالة، ولم تجعل حاليةً لاحتياجها للتأويل لعدم المقارَنة.

---

(١) في تفسيره النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في البحر ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ١٠/ ٢٧٩ أن الحسن وعليًا ابنا صالح قرأ: «الجلا» مقصوراً، وطلحة مهموزاً من غير ألف.

(٣) ينظر ٤/ ٨١.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما نزل بهم وما سينزل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وفعلوا ما فعلوا من القبائح ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وقرأ طلحةُ: «يشاقق»(١) بالفكِّ كما في الأنفال(٢)، والاقتصارُ على ذِكْر مشاقَّته عزَّ وجلَّ لتضمُّنها مشاقَّته عليه الصلاة والسلام، وفيه من تهويل أمرها ما فيه، وليوافق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ وهذه الجملةُ إما نفسُ الجزاء، وقد حُذف منه العائد إلى «مَنْ» عند من يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف، أي: يعاقبه الله فإنَّ الله شديد العقاب، وأيًّاما كان، فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها، وتقريرٌ لمضمونه، وتحقيقٌ للسببية بالطريق البرهانيِّ، كأنه قيل: ذلك الذي نزلَ وسينزلُ بهم من العقاب بسبب مشاقَّتهم لله تعالى ورسوله ﷺ، وكلُّ من يُشاقّ الله تعالى كائناً من كان، فله بسبب ذلك عقابٌ شديدٌ، فإذاً لهم عقاب شديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ هي النخلةُ مطلقاً على ما قال الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون والراغب(٣)، وهي فِعْلَةٌ من اللّون، وياؤها مقلوبةٌ من واوٍ لكَسْر ما قبلها، كَدِيمة، وتُجمَعُ على ألوانٍ، وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة: هي النخلةُ ما لم تكن عَجْوة. وقال أبو عبيدة وسفيان: ما تَمْرُها لُونٌ، وهو نوعٌ من التمر، قال سفيان: شديدُ الصُّفرة يَشِفُّ عن نواه فيُرى من خارج، وقال أبو عبيدة أيضاً: هي ألوانُ النخل المختلطة التي ليس فيها عَجوةٌ ولا بَرْنيٌّ(٤). وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: هي العجوةُ. وقال الأصمعيُّ: هي الدَّقَل. وقيل: هي النخلةُ القصيرةُ. وقال الثوريُّ: الكريمةُ من النخل، كأنهم اشتقُّوها من اللِّين فتجمع على لِيْنٍ، وجاء جمعها: لياناً كما في قول امرئ القيس:

وسالفة كسَحُوقِ اللِّيا نِ أَضْرَمَ فيه الغَوِيُّ السُّعُر(٥)

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.
(٢) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣].
(٣) في المفردات مادة (لين).
(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٥٦.
(٥) ديوان امرئ القيس ص١٦٥، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٩٢ و٣/ ٥٠٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٥، والبحر ٨/ ٢٤٠، واللسان (لين) و(لون). والسالفة: العنق. والسحوق: النخلة الطويلة.
=

وقيل: هي أغصانُ الأشجار للينها. وهو قولٌ شاذٌّ.

وأنشدوا على كونها بمعنى النخلة سواء كانت من اللّون أو من اللِّين قولَ ذي الرُّمَّة:

كأنَّ قتُودي فوقَها عُشُّ طائرٍ على لِينةٍ سَوْقاءَ تهفو جُنوبها[1]

ويمكن أن يقال: أراد باللِّينة النخلة الكريمة؛ لأنه يَصِفُ الناقةَ بالعراقة في الكرم، فينبغي أن يرمزَ في المشبَّه به إلى ذلك المعنى.

و«ما» شرطيةٌ منصوبةٌ بـ «قطعتم»، و«من لينة» بيانٌ لها، ولذا أنَّث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: أبقيتموها كما كانت ولم تتعرَّضوا لها بشيءٍ ما، وجوابُ الشرط قوله سبحانه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فذلك ـ أي: قَطْعُها أو تَرْكُها ـ بأمر الله تعالى الواصل إليكم بواسطة رسوله ﷺ، أو بإرادته سبحانه ومشيئته عزَّ وجلَّ.

وقرأ عبد الله والأعمشُ وزيدُ بن عليٍّ: «قُوَّماً» ـ على وزنُ فُعَّل؛ كَضُرَّبٍ ـ جَمْعَ قائم. وقرئ: «قائماً» اسم فاعل مذكَّر على لفظ «ما»، وأبقي «أصولها» على التأنيث. وقرئ: «أُصُلها» بضمَّتين[2]، وأصله: أصولها، فحذفت الواو اكتفاءً بالضمة، أو هو كـ: رُهُن بضمَّتين من غير حَذْفٍ وتخفيف.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ متعلِّقٌ بمقدَّرٍ على أنه عِلَّةٌ له، وذلك المقدَّر عطف على مقدَّرٍ آخر، أي: ليُعِزَّ المؤمنين وليخزيَ الفاسقين، أي: ليذلَّهم أذِنَ عزَّ وجلَّ في القَطْع والتَّرْك، وجُوِّزَ فيه أن يكونَ معطوفاً على قوله تعالى: «بإذن الله» وتُعطَفُ العِلَّةُ على السبب، فلا حاجةَ إلى التقدير فيه.

= وقوله: أضرم فيها الغوي السعر، أراد كما قال ابن دريد: حفيف عنق الفرس في جريها كحفيف نار في نخلة. ورواية الديوان: اللُّبان بالباء، قال ابن دريد: لا تلتفتن إلى ذلك فإن شجر اللُّبان لا يبلغ قامة الرجل، ولا يسمى سحوقاً إلا النخل.

(١) البيت في ديوانه ٢/ ٦٩٩. قال شارحه: القتود: عيدان الرحل. أراد: كأن قتودي على نخلة سوقاء، أي أن الناقة طويلة يصغر الرحل عليها.

(٢) تنظر هذه القراءات في الكشاف ٤/ ٨١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

والمراد بـ «الفاسقين» أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب، ووُضِعَ الظاهرُ موضِعَ المضمر إشعاراً بعلَّةِ الحكم، واعتبارُ القَطْع والترك في المعلَّل هو الظاهر، وإخزاؤهم بقَطْع اللِّينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي أعدائهم المسلمين، وبتَرْكها لحسرتهم على بقائها في أيدي أولئك الأعداء. كذا في «الانتصاف»(١).

قال بعضهم: وهاتان الحسرتان تتحقَّقان كيفما كانت المقطوعة والمتروكة؛ لأنَّ النخلَ مطلقاً مما يعزُّ على أصحابه، فلا تكاد تسمحُ أنفسهم بتصرُّفِ أعدائهم فيه حسبما شاؤوا، وعِزَّتُهُ على صاحبه الغارس له أعظمُ من عِزَّته على صاحبه غير الغارس له، وقد سمعتُ بعضَ الغارسين يقول: السَّعْفَةُ عندي كأُصبعٍ من أصابع يدي. وتحقُّقُ الحسرةِ على الذهاب إن كانت المقطوعةُ النخلةَ الكريمة أظهر، وكذا تحقُّقها على البقاء في أيدي أعدائهم المسلمين إن كانت هي المتروكةَ.

والذي تدلُّ عليه بعضُ الآثار أنَّ بعض الصحابة كان يقطعُ الكريمةَ، وبعضَهم يقطعُ غيرها، وأقرَّهما النبيُّ ﷺ لَمَّا أفصحَ الأولُ بأنَّ غَرَضَهُ إغاظةُ الكفار، والثاني بأنه استبقاءُ الكريمة للمسلمين، وكان ذلك أول نزول المسلمين على أولئك الكَفَرة ومحاصرتهم لهم، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام أَمَرَ في صَدْرِ الحرب بقَطْع نخيلهم، فقالوا: يا محمد، قد كنتَ تنهى عن الفساد في الأرض، فما بالُ قَطْعِ النخل وتحريقها؟! فنزلت الآية: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إلخ(٢)، ولم يتعرَّضْ فيها للتحريق؛ لأنه في معنى القطع، فاكتفى به عنه، وأما التعرُّضُ للترك مع أنه ليس بفسادٍ عندهم أيضاً، فلتقرير عدم كون القَطْعِ فساداً لنَظْمه في سلك ما ليس بفسادٍ إيذاناً بتساويهما في ذلك.

واستدلَّ بالآية على جواز هَدْمِ ديار الكَفَرة، وقَطْع أشجارهم، وإحراقِ زروعهم زيادةً لغيظهم، وحاصلُ ما ذكره الفقهاءُ في المسألة أنه إن عُلِمَ بقاءُ ذلك في أيدي الكَفَرة، فالتخريبُ والتحريقُ أولى، وإلا فالإبقاء أولى ما لم يتضمَّنْ ذلك مصلحة.

---

(١) ٤/ ٨١.

(٢) أخرج البخاري (٤٨٨٤)، ومسلم (١٧٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع، وَهيَ البويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ شروعٌ في بيان حال ما أُخذ من أموالهم، بعد بيان ما حلَّ بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع، أي: وما أعاده الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أولئك الكفرة، وهم بنو النضير، و«ما» موصولةٌ مبتدأ، والجملةُ بعدها صلة، والعائدُ محذوفٌ كما أشرنا إليه، والجملةُ المقترنةُ بالفاء بعدُ خبر. ويجوز كونها شرطية والجملةُ بعدُ جواب. والمراد بما أفاء سبحانه عليه ﷺ منهم، أموالُهم التي بقيتْ بعد جلائهم، والمراد بإعادتها عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحويلُها إليه، وهو إن لم يقتضِ سَبْقَ حصولها له ﷺ نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ظاهرٌ، وإن اقتضى سَبْقَ الحصول كان فيما ذُكر مجازاً، وفيه إشعارٌ بأنها كانت حَرِيَّة بأن تكونَ له ﷺ، وإنما وقعتْ في أيديهم بغير حَقٍّ، فأرجعها الله تعالى إلى مستحقِّها، وكذا شأنُ جميع أموال الكَفَرة التي تكونُ فيئاً للمؤمنين؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسَّلوا به إلى طاعته، فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعين، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحقُ فيها مشقة: فيءٌ، مع أنه من فاءَ الظِّلُّ إذا رجع، ونقل الراغبُ عن بعضهم أنه سُمِّيَ بذلك تشبيهاً بالفيء الذي هو الظِّلُّ، تنبيهاً على أنَّ أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظِلٍّ زائل(١).

و«أفاء» على ما في «البحر» بمعنى المضارع، أما إذا كانت «ما» شرطية فظاهر، وأما إذا كانت موصولة، فلأنها إذا كانت الفاءُ في خبرها تكونُ مشبَّهةً باسم الشرط، فإن كانت الآيةُ نازلةً قبل جلائهم كانت مخبرةً بغيب، وإن كانت نزلتْ بعد جلائهم وحصول أموالهم في يدِ الرسول ﷺ كانت بياناً لما يستقبل، وحكم الماضي [المتقدم] حكمه(٢). والذي يدلُّ عليه الأخبار أنها نزلتْ بعدُ، روي أنَّ بني النضير لما أُجْلُوا عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم، طلبَ المسلمون تخميسها كغنائم بدر، فنزل: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ إلخ، فكانت

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فيأ).
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤-٢٤٥، وما بين حاصرتين استدرك منه.

لرسول الله ﷺ خاصة، فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ[(١)] وغيرهم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ، مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفقُ على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعلُ ما بقي في السلاح والكُراع[(٢)] عُدَّةً في سبيل الله تعالى.

وقال الضحاك: كانت له ﷺ خاصة، فآثر بها المهاجرين، وقَسَمها عليهم، ولم يُعطِ الأنصارَ منها شيئاً إلا أبا دجانة سِماك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة، أعطاهم لفقرهم. وذكر نحوه ابن هشام[(٣)]، إلا أنه ذكر الأوَّلَين ولم يذكر الحارث، وكذا لم يذكره ابن سَيِّد الناس[(٤)]، وذكر أنه أعطى سعدَ بن معاذ سيفاً لابن أبي الحقيق، كان له ذِكْرٌ عندهم.

ومعنى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾: ما أَجريتم على تحصيله، من الوَجيف: وهو سرعةُ السير، وأنشد عليه أبو حيان قولَ نصيب[(٥)]:

ألا رُبَّ رَكْبٍ قد قَطَعتُ وجيفَهم إليك ولولا أنت لم تُوجفِ الرَّكْبُ

وقال ابن هشام: أوجفتم: حرَّكتم وأتعبتم في السير، وأنشد قولَ تميم بن مقبل:

مَذَاويدَ بالبِيض الحديثِ صِقالُها عن الركب أحياناً إذا الركبُ أوجفوا[(٦)]

والمآل واحد. و«من» في قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَيۡلٍ﴾ زائدةٌ في المفعول للتنصيص على الاستغراق، كأنه قيل: فما أوجفتم عليه فرداً من أفراد الخيل أصلاً ﴿وَلَا

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٥)، والترمذي (١٧١٩)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٣٢، وهو عند أحمد (١٧١).
(٢) الكُراع: اسم لجميع الخيل. النهاية (كرع).
(٣) في السيرة النبوية ٢/ ١٩٢.
(٤) ينظر عيون الأثر ٢/ ٥١.
(٥) ذكره الماوردي في تفسيره ٥/ ٥٠٣ بدون نسبة.
(٦) السيرة النبوية ٢/ ١٩٣-١٩٤، والبيت في ديوان تميم بن أبيّ بن مقبل ص٣٧٢. والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

رِكَابٍ﴾ ولا ما يُركَبُ من الإبل، غُلِّبَ فيه كما غُلِّبَ الراكبُ على راكبه، فلا يقال في الأكثر الفصيح: راكبٌ، لِمن كان على فرسٍ أو حمارٍ ونحوه، بل يقال: فارس، ونحوه، وإن كان ذلك عامًّا لغيره وَضْعاً.

وإنما لم يعملوا الخيل ولا الركاب، بل مشوا إلى حصون بني النضير رِجَالاً - إلا رسول الله ﷺ فإنه كان على حمارٍ أو على جمل كما تقدم - لأنها قريبةٌ على نحو ميلين من المدينة، فهي قريبةٌ جدًّا منها، وكأن المراد: إنَّ ما حَصَلَ لم يحصل بمشقَّةٍ عليكم وقتالٍ يُعتدُّ به منكم، ولهذا لم يُعطِ ﷺ الأنصارَ إلا مَنْ سمعتَ، وأما إعطاؤه المهاجرين فلعلَّه لكونهم غرباء، فنزِّلتْ غربتُهم منزلةَ السفر والجهاد، ولما أُشير إلى نفي كون حصول ذلك بعملهم أُشيرَ إلى عِلَّةِ حصوله بقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ولكنَّ سُنَّتَهُ عزَّ وجلَّ جاريةٌ على أن يُسلِّطَ رسله على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصًّا، وقد سلَّط رسولَهُ محمداً ﷺ على هؤلاء تسليطاً غير معتادٍ من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم، ويكون أَمرُها مفوَّضاً إليه ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ فيفعلُ ما يشاء كما يشاء، تارةً على الوجوه المعهودة، وأخرى على غيرها.

وقيل: الآيةُ في فَدَكَ؛ لأنَّ بني النضير حُوصِروا وقوتلوا دون أهل فَدَكٍ، وهو خلافُ ما صحَّتْ به الأخبار، والواقعُ من القتال شيءٌ لا يُعتدُّ به.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيانٌ لحكم ما أفاءه الله تعالى على رسوله ﷺ من قُرى الكفار على العموم، بعد بيان حُكم ما أفاءه من بني النضير كما رواه القاضي أبو يوسف في كتاب «الخراج»[1] عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويُشعر به كلامه رضي الله عنه في حديثٍ طويلٍ فيه مرافعةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والعباس

(١) ص٢٦-٢٧.

في أمر فَدَك؛ أخرجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرهم[(١)]، فالجملةُ جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ ناشئٍ مما فُهم من الكلام السابق، فكأنَّ قائلاً يقول: قد عَلِمنا حُكْمَ ما أفاءَ الله تعالى من بني النضير، فما حكم ما أفاء عزَّ وجلَّ من غيرهم؟ فقيل: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» إلخ، ولذا لم يُعطَفْ على ما تقدم، ولم يذكر في الآية قيد الإيجاف ولا عَدَمه، والذي يُفهَمُ من كتب بعض الشافعية أنَّ ما تضمَّنته حُكْمَ الفيء لا الغنيمة ولا الأعمّ، وفرَّقوا بينهما، قالوا: الفيءُ: ما حصل من الكفار بلا قتالٍ وإيجافِ خيلٍ وركابٍ، كجزيةٍ وعُشْر تجارة، وما صُولحوا عليه من غير نحو قتالٍ، وما جَلَوا عنه خوفاً قبل تقابل الجيشين أما بعده فغنيمة، وما لمرتدٍّ قُتل أو ماتَ على رِدَّته، وذمِّيٍّ أو معاهدٍ أو مستأمنٍ ماتَ بلا وارثٍ مُستغرِقٍ.

والغنيمةُ: ما حصل من كفارٍ أصليين حربيين بقتال - وفي حُكْمه تقابلُ الجيشين - أو إيجافٍ منَّا لا من ذِمِّيين، فإنه لهم لا يُخمَّسُ، وحكمها مشهور.

وصرَّحَ غيرُ واحدٍ من أصحابنا بالفرق أيضاً نقلاً عن «المُغْرِب»[(٢)] وغيره؛ فقالوا: الغنيمةُ: ما نِيلَ من الكفار عَنْوةً والحربُ قائمةٌ، وحُكمها أن تُخمَّس، وباقيها [بعد الخمس] للغانمين خاصة. والفيءُ: ما نِيلَ منهم بعد وَضْعِ الحرب أوزارها، وصيرورةِ الدار دارَ إسلام، وحُكْمه أن يكون لكافَّةِ المسلمين، ولا يُخمَّس، أي: يُصْرَفُ جميعُهُ لمصالحهم. ونَقَل هذا الحكمَ ابنُ حجرٍ عمَّن عدا الشافعيَّ رضي الله عنه من الأئمة الثلاثة، والتخميسُ عنه استدلالاً بالقياس على الغنيمة المخمَّسة بالنصِّ، بجامع أنَّ كلًّا راجعٌ إلينا من الكفار، واختلافُ السبب بالقتال وعدمه لا يؤثِّر، والذي نطقتْ به الأخبارُ الصحيحةُ أنَّ عمرَ رضي الله عنه صَنَعَ في سوادِ العراق ما تضمَّنته الآية، واعتبرها عامةً للمسلمين، محتجًّا بها على الزبير وبلال وسلمان الفارسي وغيرهم، حيث طلبوا منه قِسْمته على الغانمين بعقاره وعُلُوجه،

---

(١) البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٤)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣٤)، وهو عند أحمد (٤٢٥).

(٢) مادة (غنم) وينظر البحر الرائق ٥/ ٨٩، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

ووافقه على ما أراد عليٌّ وعثمان وطلحة والأكثرون، بل المخالفونَ أيضاً بعد أن قال خاطباً: اللهمَّ اكفني بلالاً وأصحابه[1]، مع أنَّ المشهورَ في كتب المغازي أنَّ السوادَ فُتِحَ عَنْوة، وهو يقتضي كونه غنيمة، فيقسم بين الغانمين، ولذا قال بعض الشافعية: إنَّ عمر رضي الله عنه استطابَ قلوبَ الغانمين حتى تركوا حَقَّهم، فاستردَّ السوادَ على أهله بخَراجٍ يُؤدُّونه في كلِّ سنة، فليُراجَعْ وليحقق.

وما جعله الله تعالى من ذلك لمن تضمَّنه قوله تعالى: «فلله وللرسول» إلى «ابن السبيل» هو خُمْسُ الفيء على ما نصَّ عليه بعضُ الشافعية، ويُقسَمُ هذا الخُمْسُ خمسةَ أسهم لمن ذكر الله عزَّ وجلَّ، وسهمه سبحانه وسهم رسوله واحد، وذِكْره تعالى ـ كما روي عن ابن عباس والحسن بن محمد بن الحنفية ـ افتتاحُ كلامٍ للتيمُّن والتبرُّك، فإنَّ لله ما في السماوات وما في الأرض، وفيه تعظيمٌ لشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال أبو العالية: سهمُ الله تعالى ثابتٌ يُصرَفُ إلى بناء بيته ـ وهو الكعبة المشرَّفة ـ إن كانت قريبةً، وإلا فإلى مسجدِ كلِّ بلدةٍ ثبت فيها الخمس.

ويلزمه أنَّ السهامَ كانت ستَّة، وهو خلافُ المعروف عن السلف في تفسير ذلك.

وسهمُ الرسول ﷺ قد كان له في حياته بالإجماع، وهو خُمْسُ الخمس، وكان يُنفق منه على نفسه وعياله، ويدَّخرُ منه مؤنة سنة، أي: لبعض زوجاته، ويصرفُ الباقي في مصالح المسلمين، وسقط عندنا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، قالوا: لأنَّ عملَ الخلفاء الراشدين على ذلك، وهم أمناءُ الله تعالى على دينه، ولأنَّ الحكمَ معلَّقٌ بوَصْفٍ مشتقٍّ وهو الرسول، فيكونُ مبدأ الاشتقاق ـ وهو الرسالة ـ علةً، ولم توجد في أحدٍ بعده، وهذا كما سقط الصفيُّ[2].

---

(١) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص٢٦، والبيهقي ٦/٣١٨.

(٢) الصفيُّ: سهم كان للنبي ﷺ من الغنيمة، إن شاء عبداً، وإن شاء أمة، وإن شاء فرساً، يختاره قبل الخمس. زاد المعاد ٣/١٠٢.

ونقل عن الشافعي أنه يُصرَفُ للخليفة بعده؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يستحقُّهُ لإمامته دون رسالته، ليكون ذلك أَبْعَدَ عن توهُّم الأجر على الإبلاغ، والأكثرونَ من الشافعية أنَّ ما كان له ﷺ من خُمْسِ الخمس يُصرَفُ لمصالح المسلمين كالثغور، وقضاة البلاد، والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ولو مبتدئين، والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء، وسائر مَنْ يشتغلُ على نحو كسبه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم، وأُلحق بهم العاجزون عن الكسب، والعطاءُ إلى رأي الإمام، معتبراً سعة المال وضيقه، ويقدِّمُ الأهمَّ فالأهمَّ وجوباً، وأهمُّها سَدُّ الثغور. وَرَدُّ سهمه ﷺ بعد وفاته للمسلمين الدالُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الصحيح: «ما لي مما أفاء الله تعالى عليكم إلا الخمس، والخمسُ مردودٌ عليكم»[1] صادقٌ بصَرْفه لمصالح المسلمين، كما أنه صادقٌ بضمِّه إلى السهام الباقية، فيُقسَمُ معها على سائر الأصناف، ولا يسلم ظهوره في هذا دون ذاك.

وسهمٌ لذي القربى، وسهمٌ لليتامى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لابن السبيل، فهذه خمسةُ أسهمِ الخُمُس.

والمراد بذي القربى قرابته ﷺ، والمراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ لأنه ﷺ وَضَعَ السَّهْمَ فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، ومن ذُرِّيته عثمان، وأخيهما لأبيهما نوفل، مجيباً عن ذلك بقوله ﷺ: «نحن وبنو المطلب شيءٌ واحد» وشَبَّكَ بين أصابعه. رواه البخاري[2]، أي: لم يفارقوا بني هاشم في نُصْرته ﷺ جاهليةً ولا إسلاماً، وكأنه لمزيد تعصُّبهم وتوافقهم - حتى كأنهم على قلبِ رجلٍ واحد - قيل: «لذي القربى» دون: لذوي، بالجمع.

قال الشافعية: يشترك في هذا السهم الغنيُّ والفقير؛ لإطلاق الآية، ولإعطائه ﷺ العباسَ وكان غنيًّا، بل قيل: كان له عشرونَ عبداً يتَّجرون له، والنساءُ؛ لأنَّ فاطمة، وصفيةَ عمَّة أبيها رضي الله عنهما كانا يأخذان منه، ويُفضَّلُ الذكر

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي ٦/ ٢٦٢-٢٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) في صحيحه (٣١٤٠) من حديث جبير بن مطعم، وهو عند أحمد (١٦٧٤١).

كالإرث، بجامع أنه استحقاقٌ بقرابةِ الأب، فله مثلُ حَظَّي الأنثى، ويستوي فيه العالم والصغير وضدُّهما، ولو أعرضوا عنه لم يسقطْ كالإرث، ويثبتُ كونُ الرجل هاشميًّا أو مُطَّلبيًّا بالبيِّنة، وذَكَرَ جَمْعٌ أنه لا بدَّ معها من الاستفاضة. وبقول الشافعي قال أحمد، وعند مالك: الأمرُ مُفوَّضٌ إلى الإمام، إن شاء قَسَمَ بينهم، وإن شاء أعطى بعضَهم دونَ بعضٍ، وإن شاء أعطى غيرَهم إن كان أمرُهُ أهمَّ من أمرهم.

وقال المزني والثوري: يستوي الذكرُ والأنثى، ويُدفع للقاصي والداني ممن له قرابة، والغني والفقير سواء؛ لإطلاق النص، ولأنَّ الحكم المعلَّقَ بوَصْفٍ مشتقٍّ معلَّلٌ بمبدأ الاشتقاق.

وعندنا ذو القربى مخصوصٌ ببني هاشم وبني المطَّلب للحديث، إلا أنهم ليس لهم سهمٌ مستقلٌّ، ولا يُعطَون مطلقاً، وإنما يُعطَى مسكينهم ويتيمهم وابن سبيلهم؛ لاندراجه في «اليتامى والمساكين وابن السبيل» لكن يُقدَّمون على غيرهم من هذه الأصناف؛ لأنَّ الخلفاء الثلاثة لم يُخرجوا لهم سهماً مخصوصاً، وإنما قَسَموا الخمسَ ثلاثةَ أسهم: سهمٌ لليتامى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لابن السبيل، وعليٌّ كرَّمَ الله تعالى وجهه في خلافته لم يخالفهم في ذلك مع مخالفته لهم في مسائل، ويُحمَلُ على الرجوع إلى رأيهم ـ إن صَحَّ عنه ـ أنه كان يقول بسهم[1] ذوي القربى على ما حكي عن الشافعي، وفائدةُ ذِكْرهم ـ على القول بأنَّ استحقاقهم لوَصْفٍ آخر غير القرابة، كالفقر ـ دَفْعُ توهُّم أنَّ الفقيرَ منهم مثلاً لا يستحقُّ شيئاً؛ لأنه من قبيل الصَّدقة، ولا تحلُّ لهم، ومن تتَّبع الأخبار وَجَدَ فيها اختلافاً كثيراً؛ ومنها ما يدلُّ على أنَّ الخلفاء كانوا يُسهمونهم مطلقاً، وهو رأي علماء أهل البيت.

واختار بعضُ أصحابنا أنَّ المذكورَ في الآية مصارفُ الخمس على معنى أنَّ كلًّا يجوزُ أن يُصرَفَ له، لا المستحقِّين، فيجوز الاقتصارُ عندنا على صِنْفٍ واحدٍ، كأن يُعطَى تمامُ الخمس لابن السبيل وحده مثلاً. والكلامُ مستوفًى في «شروح الهداية».

(١) في (م): سهم.

والمراد باليتامى الفقراء منهم، قال الشافعية: اليتيمُ: هو صغيرٌ لا أبَ له، وإن كان له جَدٌّ، ويُشترطُ إسلامه وفَقْره، أو مسكنته، على المشهور أنَّ لفظ اليتيم يُشعر بالحاجة، وفائدةُ ذِكْرهم مع شمول المساكين لهم عدمُ حرمانهم لتوهُّم أنهم لا يصلحون للجهاد، وإفرادهم بخُمْسٍ كاملٍ، ويدخلُ فيهم وَلَدُ الزنى، والمنفيُّ، لا اللَّقيطُ على الأَوْجَه؛ لأنَّا لم نتحققْ فَقْدَ أبيه، على أنه غنيٌّ بنفقته في بيت المال، ولا بدَّ في ثبوت اليتيم والإسلام والفقر هنا من البيِّنةُ، ويكفي في المسكين وابن السبيل قولهما، ولو بلا يمين، وإن اتُّهما، نعم يظهرُ في مُدَّعي تلفِ مالٍ له عُرِفَ أو عيالٍ أنه يُكلَّفُ بينة. انتهى، واشتراطُ الفقر في اليتيم مُصرَّحٌ به عندنا في أكثر الكتب، وليراجع الباقي.

هذا والأربعةُ الأخماس الباقية مصرفُها ـ على ما قال صاحب «الكشف»، وهو شافعيٌّ، بعد أن اختارَ جَعْلَ «للفقراء» بدلاً من «ذي القربى» وما عُطِفَ عليه ـ مَن تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ [الآية: ٩] إلى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الآية: ١٠] على معنى أنَّ له عليه الصلاة والسلام أن يَعُمَّ الناسَ بها حَسَبَ اختياره، وقال: إنها للمقاتلين الآن على الأصحِّ.

وفي «تحفة» ابن حجر أنها على الأظهر للمرتزقة وقضاتهم وأئمتهم ومؤذِّنيهم وعُمَّالهم، ما لم يوجد تبرُّع، والمرتزقة: الأجنادُ المرصودون في الديوان للجهاد؛ لحصول النُّصرة بهم بعده ﷺ. وصرَّح في «التحفة» بأنَّ الأكثرينَ على أنَّ هذه الأخماس الأربعة كانت له عليه الصلاة والسلام مع خُمْسِ الخمس، فجملةُ ما كان يأخذه ﷺ من الفيء أحدٌ وعشرون سهماً من خمسةٍ وعشرين، وكان على ما قال الروياني: يَصرِفُ العشرينَ التي له عليه الصلاة والسلام ـ يعني الأربعة الأخماس ـ للمصالح وجوباً في قولٍ ونَدْباً في آخر، وقال الغزاليُّ: كان الفيءُ كلُّه له ﷺ في حياته، وإنما خُمِّسَ بعد وفاته.

وقال الماورديُّ: كان له ﷺ في أول حياته، ثم نُسخ في آخرها.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ قوله تعالى: (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ) إلخ بيانٌ للجملة الأولى ـ يعني قوله تعالى: (وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ) ولذا لم يدخل العاطف عليها ـ بيَّن فيها

لرسول الله ﷺ ما يصنعُ بما أفاء الله تعالى عليه، وأمره أن يضعهُ حيث يضعُ الخُمْسَ من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة[١]. وظاهره أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، والسؤالُ عن مصارف ما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ من بني النضير الذي أفادت الجملةُ الأولى أنَّ أمرهُ مفوَّضٌ إليه ﷺ، لا يلزم أن يقسم قسمةَ الغنائم التي قُوتل عليها قتالاً معتدًّا به وأخذت عَنوة وقهراً، كما طلب الغزاة لتكونَ أربعة أخماسها لهم، وأنَّ ما يُوضَعُ موضعَ الخُمس من الغنائم هو الكلُّ لا أنَّ خمسه كذلك والباقي ـ وهو أربعة أخماسه ـ لمن تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ على ما سمعتَ سابقاً، وأنَّ المرادَ بأهل القرى هو المرادُ بالضمير في «منهم» أعني بني النضير، وعدل عن الضمير إلى ذلك ـ على ما في «الإرشاد» ـ إشعاراً بشمول ما في «ما أفاء الله» لعقاراتهم أيضاً[٢]. واعترض صاحب «الكشف» ما يُشعر به الظاهرُ من أنَّ الآيةَ دالةٌ على أمره ﷺ بأن يضعَ الجميعَ حيث يضعُ الخمس من الغنائم، ووجَّه الآيةَ بما أيد به مذهبه، ودقَّق الكلام في ذلك، فليراجع وليتدبر.

وقال ابن عطية: أهل القرى المذكورون في الآية هم أهلُ الصَّفراء، ويَنْبُع، ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب التي تُسمَّى قُرى عُرينة، وحكمها مخالفٌ لحكم أموال بني النضير، فإنَّ تلك كلَّها له ﷺ خاصة، وهذه قَسَمها كغيرها[٣].

وقيل: المراد بـ «ما أفاء الله على رسوله» خيبر، وكان نصفُها لله تعالى ورسوله ﷺ، ونصفُها الآخر للمسلمين، فكان الذي لله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام من ذلك الكتيبةُ والوطيحُ وسُلالم ووَخْدة، وكان الذي للمسلمين الشقّ، وكان ثلاثةَ عشر سهماً، ونَطاة، وكانت خمسة أسهم، ولم يَقسم عليه الصلاة والسلام من خيبرَ لأحدٍ من المسلمين إلا لمن شَهِدَ الحديبية، ولم يأذن ﷺ لأحدٍ

(١) الكشاف ٤/ ٨٢.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٢٧-٢٢٨.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦.

تخلَّف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهدَ معه خيبرَ، إلا جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، وروي هذا عن ابن عباس(١).

وخصَّ بعضهم ما أفاء الله تعالى بالجزية والخراج، وعن الزهري أنه قال: بلغني أنه ذلك. وأنت قد سمعتَ أنَّ عمر ﷺ إنما احتجَّ بهذه الآية على إبقاء سواد العراق بأيادي أهله، وضَرَبَ الخراج والجزية عليهم ردًّا على مَنْ طلب قِسْمته على الغزاة بعُلُوجه، لكن ليس ذلك إلا لأنَّ وصولَ نَفْعِ ما أفاء الله تعالى إلى عامة المسلمين كان بما ذكر دون القسمة، فافهم.

وفي إعادة اللام في «الرسول» و«ذي القربى» مع العاطف ما لا يخفى من الاعتناء، وفيه على ما قيل تأييدٌ ما لمن يذهب إلى عدم سقوط سهميهما، ووجهُ إفراد ذي القربى قد ذكرناه غير بعيد، ولَمَّا كان أبناءُ السبيل بمنزلة الأَقارب قيل: «وابن السبيل» بالإفراد كما قيل: «ولذي القربى»، وعلى ذلك قوله:

أيا جارتا إنَّا غريبان هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ(٢)

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ تعليلٌ للتقسيم، وضميرُ «يكون» لما أفاء الله تعالى، أي: كي لا يكون الفيءُ ﴿دُولَةً﴾ هي بالضَّمِّ وكذا بالفتح: ما يدولُ، أي: ما يدور للإنسان من الغناء والجدِّ والغَلَبة، وقال الكسائيُّ وحُذَّاق البصرة: الدَّولة بالفتح في المُلْكِ بالضم، والدُّولة بالضم في المِلك بالكسر، أو بالضَّمِّ في المال، وبالفتح في النُّصرة، قيل: وفي الجاه، وقيل: هي بالضم ما يتداول، كالغُرْفة اسم ما يغترف، وبالفتح مصدرٌ بمعنى التداول. والراغب(٣) وعيسى بن عمر وكثير أنهما بمعنى واحد.

وجمهورُ القراء قرؤوا بضمِّ الدال والنصب، وبالياء التحتية في «يكون»(٤) على أنَّ اسم «يكون» الضمير، و«دولة» الخبر، أي: كي لا يكونَ الفيءُ جدًّا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ

(١) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٩٢.
(٢) البيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص٦٠.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (دول).
(٤) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

مِنكُمْ﴾ أي: بينهم خاصةً يتكاثرون به، أو كي لا يكون دولةً وغَلَبَةً جاهليةً بينكم، فإنَّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون: مَنْ عَزَّ بَزَّ(١)، وقيل: المعنى: كي لا يكونَ شيئاً يتداوله الأغنياءُ خاصةً بينهم، ويتعاورونه، فلا يُصيبُ أحداً من الفقراء.

وقرأ عبد الله: «تكون» بالتاء الفوقية(٢)، على أنَّ الضميرَ على «ما» باعتبار المعنى؛ إذ المراد بها الأموال. وقرأ أبو جعفر وهشام كذلك، ورفع «دُولةٌ» بضمّ الدال(٣)، على أنَّ «كان» تامة، و«دولةٌ» فاعلٌ، أي: كي لا يقعَ دولةٌ. وقرأ عليٌّ والسُّلميُّ كذلك أيضاً، ونَصْب «دَولةً» بفتح الدال(٤)، على أنَّ «كان» ناقصة اسمها ما سمعت، و«دَولةً» خبرها، ويُقدَّرُ مضافٌ على القول بأنها مصدرٌ إن لم يُتجوَّز فيه، ولم يقصد المبالغة، أي: كي لا تكونَ ذاتَ تداولٍ بين الأغنياء، لا يُخرجونها إلى الفقراء.

وظاهرُ التعليل بما ذُكر اعتبارُ الفقر فيمن ذُكر، وعدمُ اتصافه تعالى به ضروريٌّ، مع أنَّ ذكرهُ سبحانه كان للتيمُّن عند الأكثرين، لا لأنَّ له عزَّ وجلَّ سهماً، وكذا يُجَلُّ رسولُ الله ﷺ عن أن يُسمَّى فقيراً، وما اشتهر من قوله عليه الصلاة والسلام: «الفقر فخري» لا أصل له، وكيف يُتوهَّم مثله والدنيا كلُّها لا تساوي عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وهو ﷺ أحبّ خلقه إليه سبحانه، حتى قال بعضُ العارفين: لا يقال له ﷺ زاهدٌ؛ لأنه التاركُ للدنيا، وهو عليه الصلاة والسلام لا يتوجَّهُ إليها فضلاً عن طلبها اللازم للترك. وقيل: إنَّ الخبرَ لو صَحَّ(٥) يكونُ

(١) أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب. ينظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧.

(٢) البحر ٨/ ٢٤٥.

(٣) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦، ولهشام أيضاً: «كي لا يكونَ دُولةٌ» بالياء والرفع وضم الدال.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٥.

(٥) ولم يصح، فقد قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠٩: سئل عنه الحافظ ابن تيمية فقال: إنه كذب لا يعرف في شيء من كتب المسلمين المروية. وجزم الصغاني بأنه موضوع.

المرادُ بالفقر فيه الانقطاعَ عن السِّوى بالمرة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو غيرُ الفقر الذي الكلامُ فيه. واعتباره فيمَن بَعْدُ لا محذورَ فيه، حتى إنه ربما يكونُ دليلاً على القول بأنه لا يُعطى أغنياءُ ذوي القربى، وإنما يُعطى فقراؤهم.

وإذا حُمل الكلامُ على ما حملناه عليه كفى في التعليل أن يكونَ فيمن يُدفع إليه شيءٌ من الفيءِ فَقْرٌ، ولا يلزمُ أنَّ كلَّ مَنْ يُدفَعُ إليه شيءٌ منه فقيراً.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حقُّكم الذي أحلَّه الله تعالى لكم.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه منه ﴿فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفته عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ فيعاقب مَنْ يخالفه ﷺ.

وحَمْلُ الآية على خصوصِ الفيء مرويٌّ عن الحسن، وكأنَّ ذلك لقرينة المقام، وفي «الكشاف»: الأجودُ أن تكونَ عامةً في كلِّ ما أَمَر به ﷺ ونهى عنه، وأَمْرُ الفيء داخلٌ في العموم[(١)]. وذلك لعموم لفظ «ما»، على أنَّ الواو لا تصحُّ عاطفةً، فهي اعتراضٌ على سبيل التذييل، ولذلك عقَّب بقوله تعالى: «واتقوا الله» تعميماً على تعميم، فيتناول كلَّ ما يجبُ أن يُتَّقى؛ ويدخلُ ما سِيقَ له الكلام دخولاً أَوَّليًّا كدخوله في العموم الأول، وروي ذلك عن ابن جريج.

وأخرج الشيخان وأبو داود والترمذي[(٢)] وغيرهم عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله تعالى الواشماتِ والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسْنِ، المغيِّرات لخلق الله تعالى. فبلغ ذلك امرأةً من بني أسدٍ يقال لها: أُمُّ يعقوب، وكانت تقرأُ القرآن، فأتته فقالت: بلغني أنك لعنتَ كَيْتَ وكَيْتَ؟ فقال: ما لِيَ لا أَلعنُ مَنْ لَعَنَ رسولُ الله ﷺ، وهو في كتاب الله عزَّ وجلَّ. فقالت: لقد قرأتُ

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٢.

(٢) البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥)، وأبو داود (٤١٦٩)، والترمذي (٢٧٨٢)، وهو عند أحمد (٤١٢٩).

ما بين لوحَي المصحف فما وجدته؟ قال: إن كنتِ قرأتيه فقد وَجَدْتيه، أما قرأتِ قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه ﷺ قد نهى عنه.

وعن الشافعيِّ أنه قال: سلوني عمَّا شئتم أُخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ. فقال عبد الله بن محمد بن هارون: ما تقول في المُحْرِمِ يقتل الزُّنبور؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعيِّ بن حِراش(١)، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وحدثنا سفيان بن عيينة، عن مِسْعر بن كِدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزُّنبور(٢). وهذا من غريب الاستدلال، وفيه على عِلَّاته ـ ككلام ابن مسعود ـ حمل ما في الآية على العموم، وعن ابن عباس ما يدلُّ على ذلك أيضاً، قيل: والمعنى حينئذٍ: ما آتاكم الرسول من الأمر فتمسَّكوا به، وما نهاكم عن تعاطيه فانتهوا عنه.

والأمر جُوِّزَ أن يكونَ واحد الأمور، وأن يكون واحد الأوامر لمقابلة «نهاكم» له، قيل: والأولُ أقربُ؛ لأنه لا يقال: أعطاهُ الأمرَ بمعنى: أمره، إلا بتكلُّفٍ كما لا يخفى.

واستُنبط من الآية أنَّ وجوبَ الترك يتوقَّفُ على تحقُّق النهي، ولا يكفي فيه عدمُ الأمر، فما لم يتعرَّضْ له أمراً ولا نهياً لا يجب تركه.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ قال الزمخشريُّ: بدلٌ من قوله تعالى: «لذي القربى» والمعطوف عليه، والذي منع الإبدال من «لله وللرسول» وما بعد ـ وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ ـ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخرجَ رسوله عليه الصلاة والسلام من الفقراء في

---

(١) في الأصل و(م): خراش. والمثبت هو الصواب.

(٢) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن ٥/ ٢١٢. وقوله: «اقتدوا...» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥)، وقول عمر في قتل الزنبور أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨.

قوله سبحانه: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وأنه يترفَّعُ برسول الله عليه الصلاة والسلام عن التسمية بالفقير، وأنَّ الإبدالَ على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا كما لا يجوزُ أن يُوصَفَ سبحانه بـ: علّامة؛ لأجلِ التأنيث لفظاً؛ لأنَّ فيه سوء أدب. انتهى.

وعنى أنه بدل كلٍّ من كلٍّ لاعتبار المبدَل منه مجموع ما ذكر، قال الإمام: فكأنه قيل: أعني بأُولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين[٢]. وما ذكر من الإبدال من «لذي القربى» وما بعده مبنيٌّ على قول الحنفية: إنه لا يُعطى الغنيُّ من ذوي القربى، وإنما يُعطى الفقير، ومن يرى ـ كالشافعي ـ أنه يُعطَى غنيُّهم كما يُعطى فقيرهم خَصَّ الإبدالَ باليتامى وما بعده. وقيل: يجوز ذلك أيضاً، إلا أنه يقول بتخصيص اعتبار الفقر بفيء بني النضير، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعطِ غنيًّا شيئاً منه، والآيةُ نازلةٌ فيه، وفيه تعسُّفٌ ظاهر.

وفي «الكشف» أنَّ «للفقراء» ليس للقيد، بل بياناً للواقع من حال المهاجرين، وإثباتاً لمزيد اختصاصهم، كأنه قيل: لله وللرسول وللمهاجرين.

وقال ابن عطية: «للفقراء» إلخ، بيانٌ لقوله تعالى: «اليتامى والمساكين وابن السبيل» وكُرِّرتْ لامُ الجرِّ لما كان ما تقدَّم مجروراً بها لتبيين أنَّ البدلَ هو منها[٣].

وقيل: اللامُ متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه قوله تعالى: «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» كأنه قيل: ولكن يكون للفقراء المهاجرين.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما خطر لنا في ذلك من الاحتمال بناءً على ما يُفهَمُ من ظاهر كلام عمر بن الخطاب بمحضر جمعٍ من الأصحاب[٤].

---

(١) إلى هنا انتهى كلام الزمخشري، ينظر الكشاف ٤/ ٨٣.
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٦.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦-٢٨٧.
(٤) ينظر ما سيرد ص٤٢ من هذا الجزء.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرَّهم كفارُ مكةَ وأحوجوهم إلى الخروج، فخرجوا منها، وهذا وَصْفٌ باعتبار الغالب، وقيل: كان هؤلاء مئةَ رجل.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رِزْقاً في الدنيا ومرضاةً في الآخرة، وُصِفُوا أولاً بما يدلُّ على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار والأموال، وقُيِّدَ ذلك ثانياً بما يُوجبُ تفخيم شأنهم ويؤكِّده، مما يدلُّ على توكُّلهم التامّ ورضاهم بما قَدَّره المليك العلَّام.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطْفٌ على «يبتغون» فهي حالٌ مقدَّرةٌ، أي: ناوين لنُصْرة الله تعالى ورسوله ﷺ، أو مقارِنةٌ، فإنَّ خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نُصرةٌ وأيُّ نُصرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان، حيث فعلوا ما يدلُّ أقوى دلالةٍ عليه، مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله، لا غيرهم ممن آمنَ في مكة ولم يخرجْ من داره وماله، ولم يثبتْ منه نحو ما ثبتَ منهم لنحو لِينٍ منه مع المشركين، فالحصرُ إضافيٌّ، وُوُجِّهَ بغير ذلك.

وحملَ بعضُهم الكلامَ على العموم لحذف متعلّق الصدق، وتمسَّك به لذلك في الاستدلال على صحة إمامة أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه؛ لأنَّ هؤلاء المهاجرين كانوا يَدْعونه بخليفة رسول الله ﷺ، والله تعالى قد شَهِدَ بصِدْقهم، فلا بدَّ أن تكونَ إمامته رضي الله عنه صحيحةً ثابتةً في نفس الأمر؛ وهو تمسُّكٌ ضعيفٌ مستغنيةٌ عن مثله دعوى صحة خلافة الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة، ومنهم عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، ونسبةُ التَّقية إليه بالموافقة لا يوافقُ الشيعةَ عليها مُتَّقٍ، كدعوى الإكراه، بل مستغنية بغير ذلك أيضاً.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الأكثرون على أنه معطوفٌ على «المهاجرين» والمراد بهم الأنصار؛ والتبوُّؤُ: النزولُ في المكان، ومنه المَبَاءة للمنزل؛ ونسبته

إلى الدار ـ والمراد بها المدينة ـ ظاهرٌ، وأما نسبته إلى الإيمان فباعتبار جَعْله مستقرًّا ومتوطناً على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية. والتعريفُ في «الدار» للتنويه، كأنها الدارُ التي تستحقُّ أن تُسمَّى داراً، وهي التي أعدَّها الله تعالى لهم ليكون تبوُّؤهم إياها مَدْحاً لهم.

وقال غير واحدٍ: الكلام من باب:

علفتها تبناً وماءً باردا[1]

أي: تبوؤوا الدارَ وأخلصوا الإيمان.

وقيل: التبوؤ مجازٌ مرسلٌ عن اللزوم، وهو لازمُ معناه، فكأنه قيل: لزموا الدارَ والإيمان، وقيل في توجيه ذلك: إنَّ «أل» في «الدار» للعهد، والمرادُ دارُ الهجرة، وهي تغني غناء الإضافة، وفي «والإيمان» حَذْفُ مضافٍ، أي: ودارُ الإيمان، فكأنه قيل: تبوؤوا دارَ الهجرة ودارَ الإيمان، على أنَّ المرادَ بالدارين المدينة، والعَطْفُ كما في قولك: رأيتُ الغيثَ والليثَ. وأنت تريدُ زيداً. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف والتعسُّف.

وقيل: إنَّ الإيمانَ مجازٌ عن المدينة، سُمِّي محلُّ ظهور الشيء باسمه مبالغةً. وهو كما ترى.

وقيل: الواو للمعية، والمراد: تبوؤوا الدارَ مع إيمانهم، أي: تبوؤوها مؤمنين. وهو أيضاً ليس بشيء.

وأحسنُ الأوجه ما ذكرناه أولاً. وذكر بعضُهم أنَّ الدار عَلَمٌ بالغلبة على المدينة، كالمدينة، وأنه أحدُ أسماءٍ لها، منها: طيبةُ وطابةُ ويثربُ وجابرةُ، إلى غير ذلك. وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم حديثاً مرفوعاً يدلُّ على ذلك[2].

---

(١) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ١/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠ وعجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. ونسبه الفراء لبعض بني أسد. وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٢) وهو قوله ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء، وهي المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار». الدر المنثور ٦/ ١٩٥، وورد فيه تسعة أسماء لا عشرة!.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل المهاجرين؛ والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تبوؤوا»، والكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: من قبل هجرتهم، فنهايةُ ما يلزمُ سَبْق إيمان[1] الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزمُ منه سَبْقُ إيمانهم على إيمانهم ليقال: إنَّ الأمرَ بالعكس.

وجُوِّزَ أن لا يقدَّرَ مضافٌ، ويقال: ليس المراد سَبْقَ الأنصار لهم في أصل الإيمان، بل سَبْقَهم إياهم في التمكُّن فيه؛ لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه.

وقيل: الكلامُ على التقديم والتأخير، والتقديرُ: تبوؤوا الدارَ من قبلهم والإيمانَ، فيفيدُ سَبْقَهم إياهم في تبوُّؤ الدار فقط. وهو خلافُ الظاهر، على أنَّ مثله لا يُقبَلُ ما لم يتضمَّنْ نكتةً سَرِيَّةً، وهي غيرُ ظاهرةٍ هاهنا.

وقيل: لا حاجةَ إلى شيءٍ مما ذكر، وقصارى ما تدلُّ الآيةُ عليه تقدُّم مجموع تبوُّؤ الأنصار وإيمانهم على تبوُّؤ المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقدم المجموع تقدُّم بعض أجزائه، وهو هاهنا تبوُّؤ الدار.

وتُعقِّبَ بمنع الكفاية، ولو سلِّمتْ لَصَحَّ أن يقال بتقدُّم المهاجرين وإيمانهم، على تبوُّؤ الأنصار وإيمانهم؛ لتقدُّم إيمان المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ في موضع الحال من الموصول، وقيل: استئنافٌ، والكلامُ قيل: كنايةٌ عن مواساتهم المهاجرين وعدمِ الاستثقال والتبرُّم منهم إذا احتاجوا إليهم، وقيل: على ظاهره، أي: يُحبُّون المهاجرَ إليهم من حيثُ مهاجرته إليهم لِحُبِّهم الإيمان.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: ولا يعلمون في أنفسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي: طلب محتاج إليه ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: مما أُعطيَ المهاجرون من الفيء وغيره، وحاصله أنَّ نفوسَهم لم تتبع ما أُعطيَ المهاجرون، ولم تطمحْ إلى شيءٍ منه تحتاج إليه، فالوجدان إدراكٌ علميٌّ، وكونه في الصَّدرِ من باب المجاز. و«الحاجةُ» بمعنى المحتاج إليه، وهو استعمالٌ شائعٌ، يقال: خُذْ منه حاجتك، وأعطاه من ماله

---

(١) في (م): الإيمان.

حاجته، و«من» تبعيضية، وجُوِّزَ كونُها بيانية، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ وهو «طلب»، وفيه فائدةٌ جليلةٌ، كأنهم لم يتصوَّروا ذلك ولا مرَّ في خاطرهم أنَّ ذلك محتاجٌ إليه حتى تطمحَ إليه النفس.

ويجوز أن يكون المعنى: لا يجدون في أنفسهم ما يَحملُ عليه الحاجة كالحزازة والغيظ والحسد والغِبطة لأجل ما أُعطي المهاجرون، على أنَّ الحاجةَ مجازٌ عمَّا يتسبَّبُ عنها، وقيل: على أنها كنايةٌ عمَّا ذُكر؛ لأنه لا ينفكُّ عن الحاجة، فأُطلق اسمُ اللازم على الملزوم. وما تقدَّم أولى، وقولُ بعضهم: أي أثر حاجةٍ، تقديرُ معنًى لا إعراب.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ تعليلية.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يُقدِّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كلِّ شيءٍ من الطيِّبات، حتى إنَّ مَنْ كان عنده امرأتان، كان ينزلُ عن إحداهما ويزوِّجها واحداً منهم، ويجوزُ أن لا يعتبر مفعول «يؤثرون» خصوص المهاجرين، أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائي[١] وغيرهم عن أبي هريرة قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا رجلٌ يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله؟» فقام رجلٌ من الأنصار، وفي رواية: فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله. فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيفَ رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبيةُ العشاء فنوِّميهم، وتعالي فأطفئي السراجَ ونطوي الليلةَ لضيف رسول الله ﷺ، ففعلت، ثم غدا الضيفُ على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ الله الليلةَ من فلانٍ وفلانة» وأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ إلخ.

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الشعب» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أُهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة، فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَهُ أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعثُ به واحدٌ إلى

(١) البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤)، والترمذي (٣٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٨).

آخر حتى تداوله أهلُ سبعةِ أبيات، حتى رَجَعَ إلى الأول، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(١).

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجةٌ، من خَصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفُرَج والفُتوح، والجملةُ في موضع الحال، وقد تقدم وجهُ ذلك مراراً.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشُّحُّ: اللُّؤمُ، وهو أن تكونَ النفسُ كَزَّةً حريصةً على المنع، كما قال:

يمارسُ نفساً بين جنبيه كَزَّةً إذا هَمَّ بالمعروف قالت له مهلا(٢)

وأُضيفَ إلى النفس لأنه غريزةٌ فيها، وأما البخل: فهو المنعُ نفسُهُ، وقال الراغب: الشُّحُّ: بُخْلٌ مع حِرْصٍ؛ وذلك فيما كان عادة(٣).

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قال: البخلُ أن يبخلَ الإنسانُ بما في يده، والشُّحُّ أن يَشِحَّ على ما في أيدي الناس(٤).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» والحاكم وصححه، وجماعة عن ابن مسعود: أنَّ رجلاً قال له: إني أخافُ أن أكونَ قد هَلَكْتُ؟! قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الآية، وأنا رجلٌ شحيحٌ لا يكادُ يخرُج مني شيءٌ. فقال له ابن مسعود: ليسَ ذاك بالشُّحِّ، ولكنه البخل، ولا خيرَ في البخل، وإنَّ الشُّحَّ الذي ذَكَرهُ الله تعالى: أن تأكلَ مالَ أخيك ظُلْماً(٥).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٥، والحاكم ٢/ ٤٨٣-٤٨٤، والبيهقي (٣٤٧٩). قال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٢) البيت في غرر الخصائص الواضحة ص٢٨٥ دون نسبة.

(٣) المفردات (شح).

(٤) الدر المنثور ٦/١٩٦، والخبر فيه عن طاوس، وخبر الحسن غيره، وقد ورد في الدر قبله، فنسبته إليه وهم من المصنف رحمه الله، ولفظ الحسن: النظر إلى المرأة لا يملكها من الشح.

(٥) الدر المنثور ٦/١٩٦، وتفسير الطبري ٢٢/٥٢٩-٥٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٩/٩٨، والبيهقي (١٠٨٤١)، والحاكم ٢/ ٤٩٠.

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ليس الشُّحُّ أن يمنعَ الرجلُ ماله، ولكنه البخلُ، إنما الشُّحُّ أن تطمحَ عينُ الرجل إلى ما ليس له.

ولم أرَ لأحدٍ من اللُّغويين شيئاً من هذه التفاسير للشُّحِّ، ولعلَّ المرادَ أنه البخلُ المتناهي، بحيث يبخلُ المتَّصِفُ به بمالِ غيره، أي: لا يَودُّ جُوْدَ الغير به، وتنقبضُ نفسُهُ منه، ويسعى في أن لا يكون، أو بحيثُ يبلغُ به الحِرْصُ إلى أن يأكلَ مالَ أخيه ظُلْماً، أو تطمحَ عينُهُ إلى ما ليس له، ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره. فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: «ومن يُوَقَّ» بشدِّ القاف(٢)، وقرأ ابن عمر وابن أبي عبلة: «شِحَّ» بكسر الشين(٣)، وجاء فيه لغة أيضاً، ومعنى الكلِّ واحد.

ومعنى الآية: ومن يُوقَ بتوفيق الله تعالى ومعونته شُحَّ نفسه حتى يخالفها فيما يغلبُ عليها من حُبِّ المال وبُغْضِ الإنفاق ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، الناجون من كلِّ مكروه. والجملةُ الشرطيةُ تذييلٌ حَسَنٌ، ومَدْحٌ للأنصار بما هو غايةٌ؛ لتناوله إياهم تناولاً أوليًّا، وفي الإفراد أولاً والجمع ثانياً رعايةٌ لِلَفْظِ «مَنْ» ومعناها، وإيماءٌ إلى قِلَّة المتَّصفينَ بذلك في الواقع عدداً، وكَثْرتهم معنًى:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنا(٤)

ويُفهمُ من الآية ذَمُّ الشُّحِّ جدًّا، وقد وردتْ أخبارٌ كثيرةٌ بذَمِّهِ، أخرج الحكيم الترمذيُّ وأبو يعلى وابن مردويه عن أنسٍ مرفوعاً: «ما محقَ الإسلامَ محقَ الشُّحِّ شيءٌ قط»(٥).

---

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ١٩٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨. ونسبها في القراءات الشاذة ص١٥٤ لمحمد بن النضر القارئ.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر ٥/ ٢٨٨، والبحر ٨/ ٢٤٧.

(٤) البيت لابن دريد، وهو في شرح مقصورته للتبريزي ص١٨٤.

(٥) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، وهو في نوادر الأصول ص٢١٦، ومسند أبي يعلى (٣٤٨٨)، وفي إسناده: علي بن أبي سارة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٢: ضعيف.

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقيُّ في «الشعب»، والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ نار جهنَّم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمعُ الإيمانُ والشُّحُّ في قلب عبدٍ أبداً»[١].

وأخرج أبو داود والترمذيُّ ـ وقال: غريبٌ ـ والبخاريُّ في «الأدب» وغيرهم عن أبي سعيدٍ الخدري مرفوعاً: «خصلتان لا يجتمعان في جوفِ مسلمٍ: البخلُ وسوءُ الخلقْ[٢]».

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عدي والحاكم والخطيب عن أنس[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «خلقَ الله تعالى جنةَ عدنٍ، وغَرَسَ أشجارها بيده، ثم قال لها: انطقي. فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتِي وجلالي، لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأخرج أحمد والبخاريُّ في «الأدب» ومسلم والبيهقيُّ عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «اتقوا الظلم، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ قد أهلكَ مَنْ كان قبلكم، حملهم على أنْ سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم»[٤]. إلى غير ذلك من الأخبار، لكن ينبغي أن يُعلَمَ أن تقوى الشُّحّ لا تتوقَّفُ على أن يكونَ الرجلُ جواداً بكلِّ شيءٍ، فقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى والطبراني والضياء عن مجمع بن يحيى[عن خالد بن زيد الأنصاري] مرفوعاً: «بَرِئَ من الشُّحِّ مَنْ أدَّى الزكاةَ، وقَرَى الضيفَ، وأدَّى في النائبة»[٥].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، والنسائي في الكبرى (٤٣٠٣)، والبيهقي في السنن ٩/ ١٦١، وفي الشعب (٤٢٥٧)، والحاكم ٢/ ٧٢. وهو عند أحمد (٨٤٧٩) (٨٥١٢).

(٢) الترمذي (١٩٦٢)، والبخاري في الأدب (٢٨٢). ولم نقف عليه عند أبي داود.

(٣) ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٣٧، والحاكم ٢/ ٣٩٢، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: بل ضعيف.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٩٦، وأحمد (١٤٤٦١)، والبخاري في الأدب (٤٨٣)، ومسلم (٢٥٧٨)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣٢).

(٥) أخرجه من طريق أبي يعلى ابنُ حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢، وهو في المعجم الكبير =

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما يقربُ منه[١]، وكذا ابن جرير والبيهقيُّ عن أنس[٢].

وأخرج ابن المنذر عن عليٍّ كرَّمَ الله تعالى وجهه قال: مَنْ أدى زكاةَ ماله، فقد وُقيَ شُحَّ نفسه[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عَطْفٌ عند الأكثرين أيضاً على «المهاجرين»، والمراد بهؤلاء قيل: الذين هاجروا حين قويَ الإسلام، فالمجيءُ حِسِّيٌّ، وهو مجيئهم إلى المدينة، وضمير «من بعدهم» للمهاجرين الأولين، وقيل: هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، فالمجيءُ إما إلى الوجود، أو إلى الإيمان، وضمير «من بعدهم» للفريقين المهاجرين والأنصار، وهذا هو الذي يدلُّ عليه كلامُ عمر رضي الله عنه، وكلامُ كثيرٍ من السلف كالصريح فيه، فالآيةُ قد استوعبتْ جميعَ المؤمنين.

وجملة قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ، حاليةٌ، وقيل: استئنافٌ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ أي: في الدين الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهم من النسب ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وَصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ أي: حقداً، وقُرِئ «غِمْراً»[٤]. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ أي: مبالغٌ في الرأفة والرحمة، فحقيقٌ بأن تجيب دعاءنا.

وفي الآية حَثٌّ على الدعاء للصحابة، وتصفيةِ القلوب من بُغْضِ أحدٍ منهم، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وجماعة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُمروا أن

= (٤٠٩٧)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، وما بين حاصرتين من المصادر، وإسناده حسن كما في الإصابة ٣/ ٥٨، لكنه مرسل كما قال ابن حبان.

(١) وأخرجه الطبراني في الصغير (١٢٦)، وقال في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨: فيه يحيى بن زكريا الوقار، وهو ضعيف.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٣٠-٥٣١، والشعب (١٠٨٤٢)، وفي إسناده إسماعيل بن عياش، وهو مخلِّط في روايته عن غير أهل بلده، وهذا الحديث منها.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٩٦.

(٤) وهي قراءة الأعمش، ينظر المحتسب ٢/ ٣١٨، والكشاف ٤/ ٨٥.

يستغفروا لأصحاب النبيِّ ﷺ، فسبُّوهم، ثم قرأتْ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو﴾ إلخ[١].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً وهو يتناولُ بعضَ المهاجرين، فدعاه، فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار أفمنهم أنت؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: لا، والله ليس من هؤلاء مَنْ سَبَّ هؤلاء[٢].

وفي رواية أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنه بلغه أنَّ رجلاً نالَ من عثمان رضي الله عنه، فدعاه فقرأ عليه الآيات وقال له ما قال.

وقال الإمام مالك: مَنْ كان له في أحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم قولٌ سيئٌ أو بُغْضٌ، فلا حَظَّ له في الفيء؛ أَخْذاً من هذه الآية[٣].

وفيها ما يدلُّ على ذَمِّ الغِلِّ لأحدٍ من المؤمنين، وفي حديثٍ أخرجه الحكيمُ الترمذيُّ والنسائيُّ عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال في أيامٍ ثلاثة: «يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة» فطلعَ فيها رجلٌ من الأنصار، فباتَ معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاثَ ليالٍ مستكشفاً حاله، فلم يَرَ له كثيرَ عملٍ، فأخبره الخبرَ، فقال له: ما هو إلا ما رأيتَ غيرَ أني لا أجدُ في نفسي غِلًّا لأحدٍ من المسلمين، ولا أحسده على خيرٍ أعطاه الله تعالى إياه، فقال له عبد الله: هذه التي بلغتْ بك، وهي التي لا نطيق[٤].

وفي رواية أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأُخذتْ مني لم أحزنْ عليها، ولو أُعطِيتُها لم أفرحْ بها، وأَبِيتُ وليس في قلبي غِلٌّ على أحدٍ، فقال عبد الله: لكني

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٨، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩٨.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.
(٤) النسائي في الكبرى (١٠٦٣٣)، وهو عند أحمد (١٢٦٩٧).

أقومُ الليلَ وأصومُ النهارَ، ولو وهبتْ لي شاةٌ لفرحتُ بها، ولو ذهبتْ لحزنتُ عليها، والله لقد فضَّلكَ الله تعالى علينا فَضْلاً بيِّناً[١].

هذا وذهب بعضُهم إلى أنَّ قوله تعالى: «والذين تبوَّؤوا» إلخ مبتدأ، وجملةُ «يُحبُّون» إلخ خبره، والكلامُ استئنافٌ مسوقٌ لمدح الأنصار، وجُوِّزَ كونُ ذلك معطوفاً على «أولئك» فيفيدُ شِرْكةَ الأنصار للمهاجرين في الصِّدق، وجملةُ «يُحبُّون» إلخ إما استئنافٌ مقرِّرٌ لصِدْقهم، أو حالٌ من ضمير «تبوَّؤوا»، وإلى أنَّ قوله تعالى: «والذين جاؤوا» إلخ مبتدأ؛ وجملة «يقولون» إلخ خبره، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة السابقة، مسوقةٌ لمدح هؤلاء بمحبَّتهم مَنْ تقدَّمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأُخوَّة في الدين، والسَّبْق بالإيمان، كما أنَّ ما عُطفتْ عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار.

واستُدلَّ لعدم عَطْفِ «الذين تبوَّؤوا» على «المهاجرين» بما روي أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قسمَ أموالَ بني النضير على المهاجرين، ولم يُعطِ الأنصارَ إلا ثلاثة كما تقدم، وقال عليه الصلاة والسلام لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم من هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم ديارُكم وأموالكم، ولم يُقسمْ لكم شيءٌ من الغنيمة»، فقالوا: بل نقسمُ لهم - أي: المهاجرين - من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلى آخره[٢].

وبعضُ القائلين بالعَطْف يقولون: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ إلخ بيانٌ لحكم الأخماس الأربعة، على معنى أنَّ له عليه الصلاة والسلام أن يعمَّ الناسَ بها حَسَبَ اختياره، وأنَّ الأنصارَ مَصْرِفٌ من المصارف، ولكن قد اختارَ ﷺ أن يكونَ إعطاؤهم بالشرط الذي ذكره عليه الصلاة والسلام لهم، وهم اختاروا ما اختاروا إيثاراً منهم، وذلك لا يُخرجهم عن كونهم مَصْرِفاً، بل في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٩، وهو في نوادر الأصول ص١٨٢.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٨٤. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٦٦: ذكره الثعلبي هكذا بغير سند.

أَنفُسِهِمْ) رمزٌ إليه، على أنَّ في الأخبار ما هو أصحُّ وأصرحُ في الدلالة على عَطْفهم على ما تقدم، وأنهم يُعطَون من الفيء، وكذا عَطْفُ «الذين جاؤوا من بعدهم» فقد أخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن حبان وغيرهم عن مالك بن أوس بن الحدثان في حديثٍ طويلٍ أنَّ عمر رضي الله عنه قال ـ أي: في قضاءٍ بين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وعَمِّه العباس رضي الله عنه في فَدَك، وقد كان عمرُ دفعها إليهما وأخذَ عليهما عَهْدَ الله تعالى على أن يعملا فيها بما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعمل به فيها، فتنازعا ـ: إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، ثم قال سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى آخر الآية، ثم والله ما أعطاها هؤلاء وَحْدَهم حتى قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثم والله ما جعلها لهؤلاء وَحْدهم حتى قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فقسمها هذا القَسْمَ على هؤلاء الذين ذكر، ولئن بقيتُ ليأتينَّ الرُّويعيَّ بصنعاءَ حَقُّهُ ودمه في وجهه[1].

وظاهر هذا الخبر يقتضي أنَّ للمهاجرين سَهْماً غير السهام السابقة، فلا يكون «للفقراء» بدلٌ من «لذي القربى» وما بعده، ولا مما بعده دونه، وكذا ظاهر ما في مصحف عبد الله وزيد بن ثابت كما أخرجه ابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن الأعمش: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين في سبيل الله»، على أنَّ الإبدالَ يقتضي ظاهراً كونَ اليتامى مهاجرين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، إلى آخر الصفات، وفي صدْقِ ذلك عليهم بُعْدٌ، وكذا يقتضي كون ابن السبيل كذلك، وفيه نوعُ بُعْدٍ أيضاً كما لا يخفى، فلعلَّه اعتبر تعلُّقه بفعلٍ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ

(١) البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٤)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣٤)، وابن حبان (٦٦٠٨)، وهو عند أحمد (٤٢٥).

بيانيٌّ، وذلك أنهم كانوا يعلمون أنَّ الخمسَ يُصرَفُ لمن تضمَّنه قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فلما ذُكر ذلك انقدَح في أذهانهم أنَّ المذكورينَ مصرفُ الخمس، ولم يعلموا مصرفَ الأخماس الأربعة الباقية، فكأنهم قالوا: فلمنْ تكونُ الأخماسُ الأربعةُ الباقية؟ أو: فلمن يكونُ الباقي؟ فقيل: تكونُ الأخماسُ الأربعة الباقية ـ أو يكون الباقي ـ للفقراء المهاجرين. . إلى آخره. ولم أرَ مَنْ تعرَّضَ لذلك، فتأمل، والله تعالى الهادي إلى أحسن المسالك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ حكايةٌ لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيبٌ منها، بعدَ حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم. والخطابُ لرسول الله عليه الصلاة والسلام، أو لكلِّ أحدٍ ممن يصلحُ للخطاب، والآيةُ ـ كما أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس ـ نزلت في رَهْطٍ من بني عوف، منهم عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، ووديعةُ بن مالك، وسويدٌ، وداعسٌ، بعثوا إلى بني النضير بما تضمَّنته الجمل المحكية بقوله تعالى: «يقولون» إلخ(١).

وقال السديُّ: أسلم ناسٌ من بني قريظة والنضير، وكان فيهم منافقون، فبعثوا إلى بني النضير ما قصَّ الله تعالى. والمعوَّل عليه الأول.

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئنافٌ لبيانِ المتعجَّب منه، وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته، واللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للتبليغ؛ والمرادُ بأُخُوَّتهم: الأخوَّةُ في الدين واعتقادِ الكفرة، أو الصداقةُ، وكَثُرَ جَمْعُ الأخ ـ مراداً به ما ذكر ـ على: إخوان، ومراداً به الأخوة في النسب على: إخوة، وقلَّ خلافُ ذلك.

واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم؛ وقوله سبحانه: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جوابُ القَسَم، أي: والله لئن أُخرجتم من دياركم قَسْراً، لنخرجنَّ من ديارنا معكم ألبتة، ونذهبنَّ في صُحْبتكم أينما ذهبتم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٩.

في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعنا من الخروج معكم، وهو لدفع أن يكونوا وَعَدُوهم الخروجَ بشرط أن يمنعوا منه ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان.

وقيل: لا نُطيعُ في قتالكم أو خِذْلانكم، قال في «الإرشاد»: وليس بذاك؛ لأنَّ تقديرَ القتال مترقَّبٌ بعدُ، ولأنَّ وَعْدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرَّد عدمِ طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم، بل نصرتهم عليه كما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لنعاوننَّكم على عدوِّكم، على أنَّ دعوتَهم إلى خِذلان اليهود مما لا يمكنُ صدوره عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حتى يدعوا عدمَ طاعتهم فيها، ضرورةَ أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنُصْرتهم وإظهار كُفْرهم، ولا ريبَ في أنَّ ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم، لا دعوتُهم إلى تَرْك نُصرتهم، وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر، لجواز أن يدَّعوا أنَّ خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة في الدين[1]. ونوقش في ذلك. وجواب «إنْ» محذوفٌ، و«لننصرنكم» جوابُ قَسَم محذوف قبل «إن» الشرطية، وكذا يقال فيما بعدُ على ما هو القاعدة المشهورة فيما إذا تقدَّم القَسَمُ على الشرط.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مواعيدهم المؤكَّدة بالأيمان.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ إلى آخره تكذيبٌ لهم في كلِّ واحدٍ من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم في الكلِّ على الإجمال.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمرُ كذلك.

والإخبارُ عن خُلْفهم في الميعاد قيل: من الإخبار بالغيب، وهو من أدلة النبوَّة وأحد وجوه الإعجاز. وهذا مبنيٌّ على أنَّ السورةَ نزلت قبل وقعة بني النضير، وكلامُ أهل الحديث والسِّيَر - على ما قيل - يدلُّ على خلافه.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ قوله تعالى: «يقولون... لئن أخرجتم» إلخ من باب الإخبار بالغيب بناءً على ما روي أنَّ عبد الله بن أُبَيّ دَسَّ إليهم لا يخرجوا، فأَطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام على ما دَسَّهُ.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٠.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ أي: المنافقون ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ فراراً ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بعد ذلك، أي: يُهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو: ليولنَّ، أي: اليهودُ المفروضةُ نصْرةُ المنافقين إياهم ولَيَنْهَزِمُنَّ، ثم لا ينفعهم نصرةُ المنافقين.

وقيل: الضميرُ المرفوع في «نصروهم» لليهود، والمنصوبُ للمنافقين، أي: ولئن نَصَرَ اليهودُ المنافقين ليولِّي اليهودُ الأدبارَ. وليس بشيء، وكأنه دعا قائلَه إليه دَفْعُ ما يتوهَّمُ من المنافاة بين «لا ينصرونهم» و«لئن نصروهم» على الوجه السابق، وقد أشرنا إلى دَفْع ذلك من غير حاجةٍ إلى هذا التوجيه الذي لا يخفى حاله.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مرهوبية، على أنَّ «رهبةً» مصدرٌ من المبني للمفعول؛ لأنَّ المخاطَبين ـ وهم المؤمنون ـ مرهوبٌ منهم لا راهبون. ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رهبتُهم منكم في السِّرِّ أشدُّ مما يظهرونه لكم من رهبة الله عزَّ وجلَّ، وكانوا يُظهرون لهم رهبةً شديدةً من الله عزَّ وجلَّ.

ويجوز أن يُرادَ: إنهم يخافونكم في صدورهم أشدّ من خوفهم من الله تعالى، ولشدَّة البأس والتشجُّع ما كانوا يُظهرون ذلك. قيل: إنَّ «في صدورهم» على الوجه الأول مبالغةٌ وتصويرٌ على نحوِ: رأيته بعيني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من كونكم أشدَّ رهبةً في صدورهم من الله تعالى ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ شيئاً حتى يعلموا عظمةَ الله عزَّ وجلَّ، فيخشوه حقَّ خشيته سبحانه وتعالى. والمراد بهؤلاء اليهود، وقيل: المنافقون، وقيل: الفريقان.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهود والمنافقون، وقيل: اليهود، يعني: لا يقتدرون على قتالكم ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين مُتَّفقين في موطنٍ من المواطن. ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ونحوها ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يتستَّرون بها دون أن يصحروا لكم(١) ويبارزوكم؛ لِقَذْفِ الله تعالى الرعبَ في قلوبهم ومزيد رهبتهم منكم.

---

(١) يصحروا لكم: يبرزوا لكم. القاموس المحيط (صحر).

وقرأ أبو رجاء والحسن وابن وثّاب: «جُذْر» بإسكان الدال تخفيفاً، ورُويتْ عن ابن كثيرٍ وعاصمٍ والأعمش[١].

وقرأ أبو عمرو وابن كثير في الرواية المشهورة، وكثيرٌ من المكيين: «جدارٍ» بكسر الجيم وألفٍ بعد الدال[٢]، وهي مفردُ: الجدر، والقصد فيه إلى الجنس، أو المراد به السُّور الجامعُ للجُدُر والحيطان.

وقرأ جمعٌ من المكيين، وهارون عن ابن كثير: «جَدْر» بفتح الجيم وسكون الدال[٣]، قال صاحب «اللوامح»: وهو الجدار بلغة اليمن. وقال ابن عطية: معناه أصلُ بنيان كـ: سُوْرٍ وغيره، ثم قال: ويحتملُ أن يكون من جَدر النخل، أي: من وراء نخلهم؛ إذ هي مما يُتَّقى به عند المصافَّة[٤].

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئنافٌ سِيْقَ لبيان أنَّ ما ذُكِرَ من رهبتهم ليس لضعفهم وجُبْنهم في أنفسهم، فإنَّ بأسَهم إذا اقتتلوا شديدٌ، وإنما ضَعْفُهم وجُبْنهم بالنسبة إليكم بما قَذَفَ الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين ذوي أُلْفةٍ واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ جمع: شتيت، أي: متفرقةٌ لا أُلفةَ بينها، يعني: أنَّ بينهم إِحَناً وعداواتٍ فلا يتعاضدون حقَّ التعاضد، ولا يرمونَ عن قوسٍ واحدة، وهذا تجسيرٌ للمؤمنين وتشجيعٌ لقلوبهم على قتالهم.

وقرأ مبشر بن عبيد: «شَتًّى» بالتنوين[٥]، جَعَلَ الألفَ ألفَ الإلحاق، وعبد الله: «وقلوبهم أَشَتّ»[٦] أي: أكثر ـ أو: أشدُّ ـ تفرُّقاً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٥، والمحرر ٥/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ٢٤٩.

(٢) التيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر ٥/ ٢٨٩، والبحر ٨/ ٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩. ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ٢٤٩، ووقع في مطبوع المحرر: عند المضايقة. بدل: عند المصافة.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٤٩.

(٦) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذُكر من تشتُّت قلوبهم بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ شيئاً حتى يعلموا طُرُقَ الألفة وأسبابَ الاتفاق.

وقيل: لا يعقلون أنَّ تشتُّتَ القلوب مما يُوهِنُ قواهم المركوزة فيهم بحَسَبِ الخِلْقة، ويُعينُ على تدميرهم واضمحلالهم. وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: مثلهم، أي: مَثَلُ المذكورين من اليهود بني النضير، أو منهم ومن المنافقين كمَثَل أهل بدر ـ كما قال مجاهد ـ أو كبني قينقاع ـ كما قال ابن عباس ـ وهم شَعْبٌ من اليهود الذين كانوا حوالي المدينة، غزاهم النبيُّ ﷺ يومَ السبت على رأس عشرين شهراً من الهجرة في شوال، قبل غزوة بني النضير، حيثُ كانت في ربيع سنة أربعٍ، وأجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أَذْرعات على ما فُصِّلَ في كتب السِّيَر.

وقيل: أي: مَثَلُ هؤلاء المنافقين كمَثَل منافقي الأمم الماضية.

﴿قَرِيبًا﴾ ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوءَ عاقبة كُفْرهم في زمنٍ قريبٍ من عصيانهم، أي: لم تتأخَّر عقوبتهم، وعُوقبوا في الدنيا إثْرَ عصيانهم.

وقيل: انتصاب «قريباً» بـ «مَثَل»، إذ التقديرُ: كوقوع مَثَلِ الذين.

وتُعقِّبَ بأنَّ الظاهرَ أنه أُريد أنَّ في الكلام مضافاً هو العامل حقيقةً في الظرف، إلا أنه لمّا حُذِفَ عَمِلَ المضاف إليه فيه لقيامه مقامه، ولا يخفى أن المعنى ليس عليه؛ لأنَّ المرادَ تشبيهُ المَثَل بالمَثَل ـ أي: الصفة الغريبة لهؤلاء بالصفة الغريبة للذين من قبلهم ـ دون تشبيه المثل بوقوع المثل.

وأُجيب بأنَّ الإضافةَ من إضافة الصِّفة إلى موصوفها، فيرجعُ التشبيهُ إلى تشبيهِ المثل بالمثل، فكأنه قيل: مَثَلُهم كَمَثَلِ الذين من قبلهم الواقع قريباً.

وفيه أنَّ ذلك التقدير ركيكٌ، وما ذُكر لا يدفعُ الركاكة، والقولُ بتقدير مضافٍ في جانب المبتدأ أيضاً، أي: وقوعُ مثلهم كوقوع مثل الذين من قبلهم قريباً، فيكون قد شُبِّهَ وقوعُ المثل بوقوع المثل = تعسُّفٌ لا ينبغي أن يُرتَكَبَ في الفصيح.

وقيل: إنَّ العاملَ فيه التشبيه، أي: يُشبهونهم في زمنٍ قريب. وقيل: متعلّقُ الكاف؛ لأنه يدلُّ على الوقوع. وكلا القولين كما ترى.

ولا يبعدُ تعلُّقه بما تعلَّقتْ به الصلة، أعني: «من قبلهم»، أي: الذين كانوا من قبلهم في زمنٍ قريبٍ، فيفيدُ أنَّ قَبْليَّتهم قَبْليَّةٌ قريبةٌ، ويلزمُ من ذلك قُرْبُ ما فُعل بهم، وهو المثل، ويكونُ هذا مَطْمَح النظر في الإفادة، ويتضمَّنُ تعييرهم بأنهم كانت لهم في أهل بدر أو بني قينقاع أسوةٌ، فبعدُ لم ينطمسْ آثارُ ما وقع بهم، وهو كذلك على تقدير الوقوع ونحوه.

وجملة «ذاقوا» مفسِّرةٌ للمَثَل لا محلَّ لها من الإعراب، ويتعيَّنُ تعلُّقُ «قريباً» بما بعدُ على تقدير أن يُرادَ بمن قبل منافقو الأمم الماضية، فتدبَّر.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه، والجملة قيل: عَطْفٌ على الجملة السابقة، وإن اختلفتا فعلية واسمية، وقيل: حالٌ مقدَّرةٌ من ضمير «ذاقوا». وأيًّا ما كان فهو داخلٌ في حَيِّز المثل، وقيل: عَطْفٌ على جملة «مَثَلُهم كَمَثَلِ الذين من قبلهم» ولا يخفى بُعْدُه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جعله غيرُ واحدٍ خبرَ مبتدأ محذوف أيضاً، أي: مَثَلُهم كَمَثَلِ الشيطان، على أنَّ ضمير «مَثَلُهم» هاهنا للمنافقين، وفيما تقدَّم لبني النضير، وقال بعضُهم: ضميرُ «مثلهم» المقدَّر في الموضعين للفريقين. وجعله بعضُ المحقِّقين خبراً ثانياً للمبتدأ المحذوف في قوله تعالى: «كمثل الذين» على أنَّ الضميرَ هناك للفريقين، إلا أنَّ المَثَلَ الأولَ يخصُّ بني النضير، والثاني يخصُّ المنافقين، وأُسند كلٌّ من الخبرين إلى ذلك المقدَّر المضافِ إلى ضميرهما من غير تعيينِ ما أُسند إليه بخصوصه، ثقةً بأنَّ السامعَ يَرُدُّ كلًّا إلى ما يليق به ويماثله، كأنه قيل: مَثَلُ أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم، كَمَثَلِ الذين من قبلهم، ومَثَلُ المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نُقِلَ عنهم كَمَثَلِ الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: أغراه على الكفر إغراءَ الآمِر للمأمور به، فهو تمثيلٌ واستعارة.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ تبرّأً منه مخافَةَ أن يُشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ أبدَ الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الخلودُ في النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ على الإطلاق دون المذكورين خاصة.

والجمهورُ على أنَّ المرادَ بالشيطان والإنسان الجنسُ، فيكونُ التبرِّي يومَ القيامة، وهو الأوفق بظاهر قوله: «إني أخاف» إلخ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ بالشيطان إبليس، وبالإنسان أبو جهل عليهما اللعنة، قال له يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٨]، فلمّا وقعوا فيما وقعوا قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]، وفي الآية عليه - مع ما تقدم عن مجاهد - لطيفةٌ؛ وذلك أنه لما شَبَّهَ أولاً حالَ إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدرٍ، شَبَّه هنا حالَ المنافقين بحال الشيطان في قصة أهل بدر.

ومعنى «اكفر» على تخصيص الإنسان بأبي جهل: دُمْ على الكُفْر، عند بعض، وقال الخفاجيُّ: لا حاجةَ لتأويله بذلك؛ لأنه تمثيل[1].

وأخرج أحمد في «الزهد»، والبخاري في «تاريخه»، والبيهقي في «الشعب»، والحاكم وصححه[2]، وغيرهم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ رجلاً كان يتعبَّدُ في صومعته، وأنَّ امرأةً كانت لها إخوةٌ، فَعَرَضَ لها شيءٌ، فأتَوه بها، فزيَّنتْ له نفسُهُ، فوقع عليها، فحملتْ، فجاءه الشيطانُ فقال: اقتلها، فإنهم إن ظهروا عليك افتُضِحتَ. فقتلها ودفنها، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيَّنتُ لك، فاسجُد لي سجدةً أُنجِّيكَ. فسجد له، أي: ثم تبرَّأ منه، وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ الآية، وهذا الرجل هو برصيصا الراهب، وقد رُويتْ قِصَّته على وجهٍ أكثر تفصيلاً

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٨٢.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩٩، والبخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، والبيهقي في الشعب (٥٤٥٠)، والحاكم ٢/ ٤٨٤-٤٨٥.

مما ذُكر، وهي مشهورةٌ في القصص[١]، وفي «البحر»[٢]: إنَّ قولَ الشيطان: «إني أخاف الله» كان رياء، وهو لا يمنعه الخوف عن سوءٍ يُوقع فيه ابنَ آدم.

وقرئ: «أنا بريء»[٣]. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم: «فكان عاقبتُهما» بالرفع[٤] على أنه اسم «كان»، و«أنهما» إلخ في تأويل مصدرٍ خبرها على عكس قراءة الجمهور.

وقرأ عبد الله وزيد بن عليٍّ والأعمشُ وابن أبي عبلةَ: «خالدان» بالألف[٥] على أنه خبرُ «أنَّ»، و«في النار» متعلِّقٌ به، وقُدِّمَ للاختصاص، وفيها تأكيدٌ له وإعادةٌ بضميره، وجُوِّزَ أن يكون «في النار» خبر «أنَّ»، و«خالدان» خبراً ثانياً، وهو في قراءة الجمهور حالٌ من الضمير في الجارِّ والمجرور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما تأتون وتذرون ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: أيّ شيءٍ قدَّمتْ من الأعمال ليوم القيامة، عبَّر عنه بذلك لدنوِّه دنوَّ الغد من أَمْسه، أو لأنَّ الدنيا كيومٍ والآخرةَ غَدُهُ، يكون فيها أحوالٌ غيرُ الأحوال السابقة، وتنكيره لتفخيمه وتهويله، كأنه قيل: لغدٍ لا يُعرَفُ كُنْهه؛ لغايةِ عِظَمه، وأما تنكير «نفس» فلاستقلال الأنفس النواظر، كأنه قيل: ولتنظر نفسٌ واحدةٌ في ذلك، وفيه حَثٌّ عظيمٌ على النظر، وتعييرٌ بالترك، وبأنَّ الغفلةَ قد عمَّتِ الكلَّ، فلا أحد خَلُصَ منها، ومنه ظهر ـ كما في «الكشف» ـ أنَّ جَعْله من قبيل قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] غيرُ مطابقٍ للمقام، أي: فهو كما في الحديث: «الناسُ كإبلٍ مئة، لا تجدُ فيها راحلة»[٦]، لأنَّ الأمرَ بالنظر وإن عمَّ، لكنَّ المؤتمر الناظر أقلّ من القليل، والمقصودُ بالتقليل هو هذا؛ لأنَّ المأمورَ لا ينظر إليه ما لم يأتمر.

(١) ينظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٤٨، والطبري ٢٢/٥٤٣، والبغوي ٤/٣٢٢-٣٢٤.
(٢) ٨/ ٢٥٠.
(٣) الكشاف ٤/٨٦.
(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٦) أخرجه أحمد (٤٥١٦)، ومسلم (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وجوَّزَ ابنُ عطيةَ أن يُراد بغدٍ يوم الموت(١). وليس بذاك.

وقرأ أبو حيوة ويحيى بن الحارث: «ولِتنظر» بكَسْر اللام، وروي ذلك عن حفصٍ عن عاصم(٢). وقرأ الحسنُ بكَسْرها وفتح الراء(٣)، جَعَلَها لامَ «كي»، وكأن المعنى: ولكي تنظرَ نفسٌ ما قدَّمتْ لغدٍ أَمَرنا بالتقوى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات كما يُشعرُ به ما بعده من الأمر بالعمل، وهذا في تَرْك المحارم كما يُؤذن به الوعيد بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: من المعاصي، وهذا الوجهُ الثاني أرجحُ لفَضْلِ التأسيس على التأكيد، وفي ورود الأمرين مطلَقَين من الفخامة ما لا يخفى.

وقيل: إنَّ التقوى شاملةٌ لتَرْك ما يؤثم، ولا وجهَ وجيه للتوزيع، والمقام مقام الاهتمام بأمرها، فالتأكيدُ أولى وأقوى. وفيه مَنْعٌ ظاهرٌ، وكيف لا والمتبادر من «ما قدَّمت» أعمال الخير. كذا قيل، ولعلَّ مَنْ يقولُ بالتأكيد يقول: إنَّ قوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ) إلخ يتضمَّنُ الوعدَ والوعيدَ، ويُعمّم «ما قدمت» أيضاً، ولعلك مع هذا تميلُ للتأسيس.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا حقوقه تعالى شأنه، وما قدروا الله حقَّ قَدْره، ولم يُراعوا مواجبَ أمره سبحانه ونواهيه عزَّ وجلَّ حقَّ رعايتها ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ الله تعالى بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم سبحانه ناسين لها، حتى لم يسعوا بما ينفعها، ولم يفعلوا ما يُخلِّصها، أو أراهم جلَّ جلاله يومَ القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم، أي: أراهم أمراً هائلاً وعذاباً أليماً، ونسيانُ النفس حقيقةً قيل: مما لا يكون؛ لأنَّ العلمَ بها حضوريٌّ، وفيه نظرٌ، وإن نصَّ عليه ابنُ سينا وأشياعه. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ الكاملون في الفسوق.

وقرأ أبو حيوة: «ولا يكونوا»(٤) بياء الغَيبة على سبيل الالتفات، وقال ابن

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥٠.
(٤) المصدر السابق.

عطية: كنايةٌ عن نفسٍ المراد بها الجنس[1].

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله تعالى، فاستحقُّوا الخلود في النار ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين اتقوا الله، فاستحقوا الخلودَ في الجنة، ولعلَّ تقديمَ أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي يُنبئ عنه عدمُ الاستواء، من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإنَّ مفهومَ عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونقصاناً، وإن جاز اعتباره بحَسَب زيادة الزائد، لكنَّ المتبادرَ اعتباره بحسب نقصان الناقص؛ وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] إلى غير ذلك.

ولعلَّ تقديمَ الفاضل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] لأنَّ صفتَه مَلَكةٌ لصفة المفضول، والأعدامُ مسبوقةٌ بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء عدمُ الاستواء في الأحوال الأخروية كما يُنبئُ عنه التعبيرُ عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ فإنه استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية عدم الاستواء بينهما، أي: هم الفائزون في الآخرة بكلِّ مطلوبٍ الناجونَ عن كلِّ مكروه.

والآيةُ تنبيهٌ للناس وإيذانٌ بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فِكْرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات الزائلة، كأنهم لا يعرفونَ الفَرْقَ بين الجنة والنار، والبونَ العظيمَ بين أصحابهما، وأنَّ الفوزَ مع أصحاب الجنة، فمن حَقِّهم أن يعلموا ذلك ويُنبَّهوا عليه، وهذا كما تقول لمن عَقَّ أباه: هو أبوكَ، تجعله بمنزلة مَنْ لا يعرفه، فتنبِّههُ على حَقِّ الأُبوَّةِ الذي يقتضي البرَّ والتعطُّفَ. ومما ذُكر يُعلَمُ ضَعْفُ استدلال أصحاب الشافعيِّ رضي الله عنه بالآية على أنَّ المسلمَ لا يُقتَلُ بالكافر، وأنَّ الكفارَ لا يملكون أموالَ المسلمين بالقهر. وانتُصِر لهم بأنَّ لهم أن يقولوا: لَمَّا حَثَّ سبحانه على التقوى فعلاً وتَرْكاً، وزَجَرَ عزَّ وجلَّ عن الغفلة التي تضادّها غاية المضادَّة، بذِكْرِ غايتها، أعني: نسيان الله تعالى ترشيحاً للتقريع، أردفه سبحانه بأنَّ أصحابَ التقوى وأصحابَ هذه الغفلة لا يستوون في شيءٍ ما، وعبَّرَ عنهم

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١.

بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادةَ تصويرٍ وتبيين، فالمقامُ يقتضي التباين في حُكْمَي الدارين، وإن كان المقصودُ بالقصد الأول تباينهم في الدار التي هي المدار، وأنت تعلمُ أنَّ بيانَ اقتضاء المقام ذلك في مقابلة قول أصحاب أبي حنيفة: إنَّ المقامَ يقتضي التخصيص، وإلا فالشافعيةُ يقولون: إنَّ العمومَ مدلولُ نفي المساواة لغة؛ لأنَّ النفيَ داخلٌ على مسمَّى المساواة، فلا بدَّ من انتفائها من جميع الوجوه؛ إذ لو وُجدتْ من وجهٍ لما كان مسمَّاها منتفياً، وهو خلافُ مقتضى اللفظ، وقول الحنفية: إنَّ الاستواءَ مطلقاً أعمُّ من الاستواء من كلِّ وجهٍ، ومن وجهٍ دون وجه، والنفيُ إنما دَخَلَ على الاستواء الأعمّ، فلا يكونُ مُشعِراً بأحد القِسْمين الخاصَّين، وحاصله أنَّ الأعمَّ لا يُشعِرُ بالأخصِّ، فيه أنَّ ذلك في الإثبات مُسلَّمٌ وفي النفي ممنوع، ألا ترى أنَّ مَنْ قال: ما رأيتُ حيواناً، وكان قد رأى إنساناً مثلاً، عُدَّ كاذباً؟.

وتمامُ ذلك في كتب الأصول، والإنصافُ أنَّ كونَ المراد هنا نفيُ الاستواء في الأمور الأُخروية ظاهرٌ جدًّا، فلا ينبغي الاستدلالُ بها على ما ذكر.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطويَ على فنون القوارع ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، أو جبلٍ عظيمٍ ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقِّقاً منها.

وقرأ طلحة(١): «مُصَّدِّعاً» بإدغام التاء في الصاد، وهذا تمثيلٌ وتخييلٌ لعلوِّ شأن القرآن، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر، والغرضُ توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه، وقِلَّة تخشُّعه عند تلاوة القرآن وتدبُّر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أُنزل على جبلٍ وقد رُكِّبَ فيه العقلُ لَخَشَعَ وتصدَّع، ويُشير إلى كونه تمثيلاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ فإنَّ الإشارةَ فيه إلى قوله تعالى: «لو أنزلنا» إلخ وإلى أمثاله، فالكلامُ بتقدير وقوع تلك، أو المراد: تلك وأشباهها، والأمثالُ في الأغلب تمثيلاتٌ متخيَّلةٌ.

---

(١) في الأصل (م): أبو طلحة، وهو خطأ، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط ٨/ ٢٥١ وهو طلحة بن مصرف كما في المحرر.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو ما لم يتعلَّقْ به عِلْمُ مخلوقٍ وإحساسُهُ أصلاً، وهو الغيبُ المطلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما يُشاهده مخلوق. قال الراغب: الشهود والشهادة: الحضورُ مع المشاهدة؛ إما بالبصرِ أو بالبصيرة، وقد يُعتبرُ الحضورُ مفرداً، لكنَّ الشهودَ بالحضور المجردِ أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى(١).

وحَمْلُ الغيبِ على المطلق هو المتبادر، و«أل» فيه للاستغراق؛ إذ لا قرينةَ للعهد، ومقامُ المدح يقتضيه مع قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيشملُ كلَّ غيبٍ واجباً كان أو ممكناً، موجوداً أو معدوماً، أو ممتنعاً لم يتعلَّق به عِلْمُ مخلوق، ويُطلقُ الغيبُ على ما لم يتعلَّق به عِلمُ مخلوقٍ معيَّنٍ، وهو الغيبُ المضاف، أي: الغيبُ بالنسبة إلى ذلك المخلوق، وهو على ما قيل: مرادُ الفقهاء في قولهم: مُدَّعي علم الغيب كافرٌ، وهذا قد يكونُ من عالم الشهادة كما لا يخفى، وذِكْرُ الشهادة مع أنه إذا كان كلُّ غيبٍ معلوماً له تعالى كان كلُّ شهادةٍ معلوماً له سبحانه بالطريق الأولى من باب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقيل: الغيبُ: ما لا يقعُ عليه الحِسُّ من المعدوم أو الموجود الذي لا يُدرَك، والشهادةُ ما يقع عليه الإدراك بالحسِّ.

وقال الإمام أبو جعفر رضي الله عنه: الغيبُ: ما لم يكن، والشهادةُ: ما كان.

وقال الحسن: الغيبُ: السِّرُّ. والشهادةُ: العلانية.

وقيل: الأول الدنيا بما فيها. والثاني الآخرةُ بما فيها.

وقيل: الأولُ: الجواهرُ المجرَّدةُ وأحوالها. والثاني: الأجرامُ والأجسام وأعراضها. وفيه أنَّ في ثبوت المجرَّدات خلافاً قويًّا، وأكثرُ السلف على نفيها.

وتقديمُ الغيب؛ لأنَّ العلمَ به كالدليل على العلم بالشهادة، وقيل: لتقدُّمه على الشهادة، فإنَّ كلَّ شهادةٍ كان غيباً، وما برز ما برز إلا من خزائن الغيب، وصاحب

---

(١) المفردات (شهد).

القِيل الأخير يقول: إنَّ تقديمَ الغيب لتقدُّمه في الوجود وتعلُّق العلم القديم به.

واستدلّ بالآية على أنه تعالى عالمٌ بجميع المعلومات، ووَجْهُه ما أشرنا إليه، وتتضمَّنُ على ما قيل دليلاً آخر عليه؛ لأنها تدلُّ على أنه لا معبودَ إلا هو، ويلزمه أن يكون سبحانه خالقاً لكلِّ شيءٍ بالاختيار، كما هو الواقع في نفس الأمر، والخلق بالاختيار يستحيلُ بدون العلم، ومن هنا قيل: الاستدلالُ بها على هذا المطلب أولى من الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ برحمةٍ تليقُ بذاته سبحانه، والتأويل وإن ذكره علماءُ أجلَّاءُ من الماتريدية والأشاعرة، لا يحتاج إليه سلفيٌّ كما حُقِّقَ في التمييز وغيره.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُرِّرَ لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المتصرِّفُ بالأمر والنهي، أو المالك لجميع الأشياء، الذي له التصرُّف فيها، أو الذي يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، ويستحيلُ عليه الإذلال، أو الذي يُولِّي ويعزلُ، ولا يتصوَّرُ عليه توليةٌ ولا عزلٌ، أو المنفرد بالعِزِّ والسلطان، أو ذو المُلْكِ والمُلْكُ خَلْقُهُ، أو القادرُ، أقوالٌ حكاها الآمديُّ(١)، وحكى الأخيرَ عن القاضي أبي بكر.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغُ في النزاهة عمَّا يُوجبُ نقصاناً، أو الذي له الكمالُ في كلِّ وَصْفٍ اختصَّ به، أو الذي لا يُحَدُّ ولا يُتصوَّرُ.

وقرأ أبو السمال وأبو دينار الأعرابي: «القَدُّوس» بفتح القاف(٢)، وهو لغةٌ فيه، لكنها نادرة، فقد قالوا: فُعول بالضَّمِّ كثير، وأما بالفتح فيأتي في الأسماء؛ كَسَمُّور وتَنُّور وهَبُّود ـ اسمُ جبلٍ باليمامة ـ وأما في الصفات فنادرٌ جدًّا، ومنه: سَبُّوح، بفتح السين.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كلِّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغة، وعن الجبائي: هو الذي تُرجى منه السلامة، وقيل: أي: الذي يُسلِّمُ على أوليائه فيَسْلَمون من كلِّ مخوف.

---

(١) في كتابه أبكار الأفكار ٢/ ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحتسب ٢/ ٣١٧.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ قيل: المصدِّقُ لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلَّغوه عنه سبحانه؛ إما بالقول أو بخَلْقِ المعجزة، أو واهبُ عبادِهِ الأمنَ من الفزع الأكبر، أو مؤمِّنُهم منه؛ إما بخَلْق الطمأنينة في قلوبهم، أو بإخبارهم أن لا خوفَ عليهم.

وقيل: مؤمِنُ الخلقِ من ظُلْمه، وقال ثعلب: المصدِّقُ المؤمنينَ في أنهم آمنوا، وقال النحاس: في شهادتهم على الناس يومَ القيامة[1]. وقيل: ذو الأمنِ من الزوال لاستحالته عليه سبحانه، وقيل غير ذلك.

وقرأ الإمامُ أبو جعفر محمدُ بن عليّ بن الحسين رضي الله عنه - وقيل: أبو جعفر المدني ـ: «المؤمَن» بفتح الميم[2] على الحذف والإيصال كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: المؤمَن به.

وقال أبو حاتم: لا يجوزُ إطلاقُ ذلك عليه تعالى؛ لإيهامه ما لا يليق به سبحانه؛ إذ المؤمَنُ المطلَقُ مَنْ كان خائفاً وآمنه غيرُه[3]. وفيه أنه متى كان ذلك قراءةً ـ ولو شاذَّة ـ لا يصحُّ هذا؛ لأنَّ القراءةَ ليست بالرأي.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ، مُفَيعِلٌ من الأَمْن بقلب همزته هاءً، وإليه ذهب غيرُ واحد، وتحقيقه كما في «الكشف» أنَّ أيْمَنَ على فَيْعَلَ مبالغةُ أمِنِ العدوَّ، للزيادة في البناء، وإذا قلت: أمِنَ الراعي الذئبَ على الغنم مثلاً، دلَّ على كمال حفظه ورقبته، فالله تعالى أمِنَ كلَّ شيءٍ سواه سبحانه على خَلْقه ومُلْكه؛ لإحاطة علمه وكمال قدرته عزَّ وجلَّ، ثم استعمل مجرد الدلالة بمعنى الرقيب والحفيظ على الشيء من غير ذِكْرِ المفعُول بلا واسطةٍ للمبالغة في كمال الحِفْظ كما قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وجَعْلُهُ من ذاك أولى من جَعْله من الأمانة، نظراً إلى أنَّ الأمينَ على الشيء حافظٌ له؛ إذ لا يُنبئُ عن المبالغة ولا عن شمول العلم والقدرة.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/ ٨٧، والبحر ٨/ ٢٥١، والكلام منه.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥١.

وجَعَلَه في «الصحاح»[1] اسم فاعل من آمنه الخوفَ على الأصل، فأُبدلت الهمزةُ الأصليةُ ياءً كراهةَ اجتماع الهمزتين، وقُلبت الأولى هاءً كما في: هَرَاق الماء. وقولهم في إياك: هيّاك، كأنه تعالى بحفظه المخلوقين صَيَّرهم آمنين، وحرفُ الاستعلاء كـ «مهيمناً عليه» لتضمين معنى الاطِّلاع ونحوه. وأنت تعلم أنَّ الاشتقاقَ على ما سمعت أولاً أدلُّ، والخروج عن القياس فيه أقلّ.

وظاهرُ كلام «الكشف» أنه ليس من التصغير في شيء، وقال المبرد: إنه مُصغَّرٌ. وخُطِّئَ في ذلك، فإنه لا يجوزُ تصغيرُ أسمائه عزَّ وجلَّ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب. وقيل: الذي لا مِثْلَ له، وقيل: الذي يُعذِّبُ من أراد. وقيل: الذي عليه ثوابُ العاملين. وقيل: الذي لا يُحَطُّ عن منزلته. وقيل غيرُ ذلك.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَرَ خَلْقَهُ على ما أراد وقَسَرَهم عليه، ويقال في فِعْله: أَجْبَرَ، وأمثلةُ المبالغة تُصاغُ من غير الثلاثي، لكن بِقِلَّةٍ، وقيل: إنه من جَبَره بمعنى أَصلحه، ومنه: جبرتُ العظمَ فانجبر، فهو الذي جَبَر أحوالَ خَلْقه، أي: أصلحها. وقيل: هو المنيعُ الذي لا يُنال، يقال للنخلة إذا طالت وقَصُرَت عنها الأيدي: جبَّارة، وقيل: هو الذي لا يُنافَسُ في فعله، ولا يُطالَبُ بعِلَّةٍ ولا يُحْجَرُ عليه في مقدوره. وقال ابن عباس: هو العظيم. وقيل غير ذلك.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغُ الكبرياء والعظمة؛ لأنه سبحانه بريءٌ من التكلُّف الذي تُؤذن به الصيغة، فيرجعُ إلى لازمه من أنَّ الفعلَ الصادرَ عن تأنُّقٍ أقوى وأبلغ، أو الذي تكبَّرَ عن كلِّ ما يُوجب حاجةً أو نقصاناً.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تنزيهٌ لله تعالى عمَّا يشركون به سبحانه، أو عن إشراكهم به عزَّ وجلَّ، إثر تعداد صفاته تعالى التي لا يمكن أن يُشارَكَ سبحانه في شيءٍ منها أصلاً.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة، أو مبدِعُ الأشياء من غير أصلٍ ولا احتذاء، ويُفسَّرُ الخلقُ بإيجاد الشيء من الشيء.

---

(١) مادة (همن).

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئةً من تفاوت ما تقتضيه بحسب الحكمة والجِبِلَّة، وقيل: المميِّز بعضها عن بعضٍ بالأشكال المختلفة.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصُوَرها وكيفياتها كما أراد.

وقال الراغب: الصورة ما تَنتقش بها الأعيان، وتتميَّزُ بها عن غيرها، وهي ضَرْبان: محسوسةٌ تُدركها العامة والخاصة، بل الإنسانُ وكثيرٌ من الحيوانات؛ كصورة الفرس المشاهَدة. ومعقولةٌ تدركها الخاصةُ دون العامة؛ كالصورة التي اختُصَّ الإنسانُ بها من العقل والرَّويَّة، والمعاني التي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] إلى آياتٍ أُخَر(١). انتهى فلا تغفل.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وحاطبُ بن أبي بلتعة والحسن وابن السَّميفع: «المصوَّرَ» بفتح الواو والنصب(٢) على أنه مفعول للبارئ، وأُريد به جنس المصوَّر.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه فَتْحُ الواو وكَسْرُ الراء(٣) على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، نحو: الضارب الغلام.

وفي «الخانية»: إنَّ قراءة «المصوَّر» بفتح الواو هنا تُفسدُ الصلاة. ولعله أراد إذا أجراهُ حينئذٍ على الله سبحانه، وإلا ففي دعوى الفساد بعد ما سمعتَ نظرٌ.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على محاسن المعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات بلسان الحال لِمَا تضمَّنته من الحِكَم والمصالح التي يضيقُ عن حَصْرها نطاقُ البيان، أو بلسان المقال الذي أُوتيه كلٌّ منها حسبما يليقُ به على ما قاله كثيرٌ من العارفين، وقد تقدَّم الكلام فيه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ الجامعُ للكمالات كافة، فإنها مع تكثُّرها وتشعُّبها راجعةٌ إلى كمال القدرة المؤذن به «العزيز» بناءً على تفسيره بالغالب، وإلى كمال

---

(١) المفردات (صور).

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤، والكشاف ٤/ ٨٧-٨٨، والبحر ٨/ ٢٥١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥١.

العلم المؤذن به «الحكيم» بناءً على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة، وفي ذلك إشارةٌ إلى التحلية بعد التخلية كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فتأمل ولا تغفل.

ولهذه الآيات فضلٌ عظيمٌ كما دلَّتْ عليه عِدَّةُ روايات، وأخرج الإمام أحمد والدارميُّ والترمذيُّ وحسنه والطبرانيُّ وابن الضُّريس والبيهقيُّ في «الشعب» عن معقل بن يسار عن النبيِّ ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاثَ مرَّاتٍ: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاثَ آياتٍ من آخر سورة الحشر، وَكَّلَ الله به سبعينَ ألفَ ملكٍ يُصلُّون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم ماتَ شهيداً، ومَنْ قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة[1]».

وأخرج الديلميُّ عن ابن عباس مرفوعاً: «اسمُ الله الأعظم في سِتِّ آيات من آخر سورة الحشر[2]».

وأخرج أبو عليٍّ عبدُ الرحمن بن محمد النيسابوريُّ في «فوائده» عن محمد بن الحنفية أنَّ البراء بن عازب قال لعليِّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصَّكَ به رسول الله عليه الصلاة والسلام، مما خَصَّه به جبريلُ، مما بعثَ به الرحمنُ عزَّ وجلَّ. قال: يا براء، إذا أردتَ أن تدعوَ اللهَ باسمه الأعظم، فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر، ثم قلْ: يا من هو هكذا وليس شيءٌ هكذا غيره، أسألك أن تفعلَ لي كذا وكذا، فو الله يا براء لو دعوتَ عليَّ لخسف بي[3].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، وأحمد (٢٠٣٠٦)، والدارمي (٣٤٢٥)، والترمذي (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٢٢٩ (٥٣٧)، وفي الدعاء (٣٠٨)، وفضائل القرآن لابن الضريس (٢٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٢)، وإسناده ضعيف كما ذكر محققو المسند، وتحسين الترمذي لم يرد في مطبوعه ولا في تحفة الأشراف ٨/ ٤٦٥، ولا في تفسير ابن كثير حيث ذكره آخر هذه السورة. وينظر تحفة الأحوذي ٨/ ٢٤٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، ومسند الفردوس ١/ ٤١٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، وذكره في كنز العمال ٢/ ٢٤٨ عن ابن النجار بإسناده، وفيه عمرو بن ثابت، وهو متروك كما في المغني في الضعفاء للذهبي ص٤٨٢.

وأخرج الديلميُّ[١] عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾ إلى آخر السورة: «هي رقيةُ الصداع».

وأخرج الخطيب البغداديُّ في «تاريخه»[٢] قال: أنبأنا أبو نعيم الحافظ[٣]، أنبأنا أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف بن جعفر المقرئ البغدادي - يُعرَفُ بغلام ابن شنبوذ - أنبأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأتُ على خلفٍ، فلما بلغتُ هذه الآية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على [سُليم، فلما بلغت هذه الآية. قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على] حمزةَ، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على الأعمش، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على يحيى بن وثَّاب، فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضَعْ يدكَ على رأسك، فإني قرأتُ على علقمة والأسود، فلما بلغتُ هذه الآية قالا: ضَعْ يدك على رأسك، فإنَّا قرأنا على عبد الله رضي الله عنه، فلما بلغنا هذه الآية قال: ضَعَا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأتُ على النبيِّ ﷺ، فلما بلغتُ هذه الآية قال لي: «ضَعْ يدكَ على رأسك، فإنَّ جبريلَ عليه السلام لما نزل بها إليَّ قال: ضَعْ يدك على رأسك، فإنها شفاءٌ من كلِّ داءٍ إلا السَّام، والسَّامُ: الموت»[٤] إلى غير ذلك من الآثار، والله تعالى أعلم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠٢، ومسند الفردوس ٣/ ٢٢٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٠١، وتاريخ بغداد ١/ ٣٧٧، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٣) في الأصل و(م): أبو عبيد الحافظ، والمثبت من الدر المنثور وتاريخ بغداد، وهو الصواب، وقد أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٥٤.

(٤) قال الذهبي: حديث باطل، وما في إسناده متهم إلا شيخ أبي نعيم أبو الطيب، فهو الآفة. ينظر تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٥.